لوتز نيتهامر

ترجمة : فاضل جتكر

ما بعد التاريخ

هل انتهى التاريخ؟

منشورات



٩

دراسات



مابعد التاريخ

هل انتهى التاريخ ؟



اسم الكتاب: ما بعد التاريخ : هل انتهى التاريخ ؟
المؤلف : لوتز نيتهامر
المترجم : فاضل جتكر
الغلاف : تفصيل من لوحة لغسّان سلمان
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٥

تصميم : محمد سعيد الصكار ـ باريس
اللوغو : صادق الصائغ

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ – ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ – ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

لوتز نيتهامر

ترجمة : فاضل جتكر

ما بعد التاريخ

هل انتهى التاريخ ؟

منشورات

دراسات



٩

العنوان الأصلي للكتاب

POSTHISTOIRE

Has History Come to an End ?

LUTZ NIETHAMMER

in collaboration with

DIRK VAN LAAK

Translated by

Patrick Camiller

تعالوا نتعقب مصائر
روح العصر !

الفصل الأول

لا تبـدأ بالأشياء القديمـة الطيبـة
بك بالأشـيـاء الجـديدة البـائسـة .
(فالتر بنيامين في ١٩٣٨ متحدثاً عن إحدى حِكَم بريشت)(١)

تلوذ روح العصر بعدد غير قليل من التعابير لتتجنب الدقة حول ذاتها ؛ قد تشير ، مثلاً ، الى مجتمع مابعد الحداثة ، مابعد الصناعة ، أو مابعد الثورة . ولكن الأوسع انتشاراً من بين سائر هذه التعابير المختزلة وأمثالها لا يتجلى إلا حين يكون طابعاً مميزاً للمنعطف الحالي . فهنا وهناك نرى عدداً كبيراً من المقالات والملاحظات البحثية . وهي تعلن أن التاريخ قد انتهى ، أننا الآن نعيش في عالم ينتسب إلى ما بعد التاريخ وتكون تلك نهاية المسألة كما لو أن مزيداً ، أيَّ مزيد ، لم يعد يمكن قوله . وعلى العموم ، ينتمي التركيز على ما بعد التاريخ، على «البوست هيستوري» Posthistory أو «البوست هيستوار» Posthistoire إذ يحاكي مُزَقاً عشوائية من الماضي ، ينتمي إلى جماليات تقوم على «كما لو» (as if) ، الى لعبة ذات اشارات مازالت تحتفظ بجاذبيتها وإن باتت «غير فعالة» و«غير ذات نفوذ» اذا ما وردت خارج سياقها .

حين يقرأ المؤرخون هذه التقارير المُبْتَسَرة التي تتحدث عن أن موضوع عملهم وفضولهم لم يعد موجوداً ، فإنهم يحسون ، بطبيعة الحال ، بقَدْرٍ

---

(١) فالتر بنيامين ، فهم بريشت ، لندن ، ١٩٧٣ ، ص : ١٢١ .

مـؤكد من الارتبـاك والـحيـرة . فهم أيضـاً يـعـيشون فـي تلك الفـتـرات النادرة حـيث يقوم الـتـاريـخ بإثارة اهتـمـام واسم فـي وسائل الإعـلام ، وحـيـث يـتكرر قـيام الـتراث الثـقـافي بالهام الـخـيال الـجمـالي . لذا فإن رسل مـابعد الـتـاريـخ يقـضـمـون ثقة المؤرخ بـنفـسه حين يـلـمـحون إلى أن عودة الاهتـمـام هذه قد لا تتـمخض إلا عن نوع مـن الممارسة في الـفكر أو المـحـاكـاة من جانب صناعـة الثقافة . وقد لا يبقى للمؤرخ أو المؤرخة إلا أن يشغل نفسه بمحاولة تجميع بعض الـحـصـى ، دون علم منـه حـول مــا إذا كـانـت تشكل جــزءاً من لوحــة فسيفسائية ، أم أنها سوف لن تتبدى مع الزمن إلا ركاماً من حجارة يخلو من أي شكل أوخطة . فهل هذه التركـة المبعثرة هي الـتي يعكسها مابعد التاريـخ عن الماضي ؟

قبل أن يتبدد موضـوع المؤرخ في نوع من السراب ، يجدر بنا أن نمعن النظر في تلك الـنقاشـات الـحاميـة حول روح العـصـر ، تـلك الـنقـاشـات التي أدت ، بطرق مـختلفـة ، الى حالة من حـالات الـ «مابعد» . لـيست هذه الزحـمة من الكلام ، في حـقـيـقـة الأمـر ، مـسألة مـوضـة بـبـسـاطة ، كـمـا أنهـا لـيـست مـقـتـصـرة على المـعنى الـحـرفـي للـعـبـارة الـتي تشي بأن شيـئـاً ، شيـئـاً آخر اضافـيـاً ، قد وصل الى نهايته . فـنحن أميل لأن نـكون متحدثـين عن «حداثتنا العائدة لما بعد الحداثة» (ولش Welsch) ، حيث لا تشير نزعة الارتداد الى انتـهاء بنـية ديناميكيـة بل إلى تبـدد الأمل المرتـبط بتلك البنيـة . فالأمـور مازالت مستمرة ، ولكن الإيمان بأن لـهـا معنى يخبو ويتـلاشى . واذا كان هذا يبـين أن تشخـيصات الـ «مابعد» لـيست مجـرد كلام فـارغ من جهـة ، وتعني شيئاً آخر غير الذي تبوح به من جهة ثانيـة ، فإن علينا أن ننظر في المعنى الإضافي المتـضـمن في داخلها ، وبعبارة أخرى ، يـتعـين علينا أن ندقق في أصـولها وجذورها ـ الأمـر الذي نقـتـرح القـيـام به هنا فـيـمـا يخص البـوسـت هيـسـتـوار "Posthistoire" أو «البـوسـت هيـسـتـوري "Posthistory"ما سندعوه كرمى لعين القراء الناطقين بالانجليزية .

إن استعراض تاريخ هذا المفهوم ينطوي على عدد من المفاجآت . فكلمة بوست هيستوار "Postihstoire" المركبة وغير العملية وهي تبدو لفظة فرنسية جديدة منحوتة ، ليست ، بادئ ذي بدء ، موجودة فعلاً في اللغة الفرنسية - كما أن اضافة الأداة «داس das بالألمانية لا تزيدها إلا منافاة للذوق السليم . ففي اللغتين كلتيهما تكون كلمة تاريخ كمفرد جمعي مؤنثة مثلها مثل مُلْهِمة التاريخ الإلهة كليو Clio ؛ يبدو أن ذلك هو السبب الكامن وراء اضطرار عبارة «داس بوست هيستوار das Posthistoire" لأن تصبح اسماً محايداً في اللغة الألمانية . تنطوي الكلمة نفسها على وعد بنوع من الغوص في أعماق مناطق مظلمة من التاريخ النظري ، وتحذرنا من أننا لن نكون قادرين على الامساك بالمفهوم إذا بقينا محصورين بمستوى المعلومات التي يوفرها خبراء التاريخ وأساطينه ، غير أن علينا ، أولاً ، أن نهتدي الى المَعْبَر الذي يفضي الى الأعماق السفلية . فاي قول يستحق ، آخر الأمر ، معاينة أولية انطلاقاً من شروطه الخاصة ، وتدقيقاً لجملة الأسانيد التي يعتمدها لتفسير ذاته .

في معاينتنا للاستخدام الراهن لمفهوم «مابعد التاريخ» سننطلق من حيث التقطه اليسار وجعل منه لغة رمزية تؤمن التواصل بين فئات مختلفة . وقد حدث ذلك مع انتهاء «الخريف الألماني» بعد ١٩٧٧ ، حين تم نشر مقتطفات من كتابات بيتر بروكنر Peter Brückner أحد مفكري اليسار الجديد ورفاقه وأحد آخر الناطقين باسم هذا اليسار ، بعد موته . ثم نتحول إلى مؤلفات أرنولد غيهلن Arnold Gehlen أحد مفكري الثورة المحافظة للرايخ الثالث وأنصارها وأحد الناطقين المتأخرين باسم تلك الثورة في الجمهورية الاتحادية ـ ذلك الرجل الذي قام ، في أوائل الخمسينات ، بتقديم الصياغات الأولية الكامنة وراء الإشارات إلى «مابعد التاريخ» لدى رهط مثقفي مابعد الفاشية . ومن غيهلن هذا يمكن تعقب الخيط وصولاً الى من يبدو أباً لهذا المفهوم ، وصولاً إلى انطوان اوغستين

كورنو Antoine Augustin cournot ، ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي عاش أيام الامبراطورية الثانية والذي لا يعرفه إلا القليلون في ألمانيا . غير أننا لا نهتدي ، في مؤلفات كورنو هذا ، لا إلى كلمة «مابعد التاريخ» ولا إلى السوداوية (الميلانخوليا) (النزعة التشاؤمية) مابعد التاريخية التي تطبع أتباعه الجدد ؛ بل نجدنا ، على النقيض من ذلك ، أمام برنامج تكنوقراطي يستهدف التغلب على التاريخ باعتباره حقبة طويلة من الصراعات الفوضوية . قد يبدو هذا النسب موحياً بنوع من التقليد البنيوي لرأي يقول بأن التاريخ إنْ هو إلا سيرورة صراعات ذاتية متجهة الى معنى معين ، في حين يشير مابعد التاريخ إلى وضع تمارس فيه المدنية العالمية وظائفها بوصفها جهازاً عملاقاً ، تَمَّ تدريبه علمياً ، وتصبح فيه الثقافة متحجرة ومتكلسة على شكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة .

غير أن قدراً غير قليل من القَسْر ولَيّ العنق لابد منه لبناء تقليد كهذا عبر جملة شديدة التباين من الأُطُر والسياقات ذات المسارات والمواقف السياسية المتناقضة . سأقارب هذه المعضلة بطريقتين منفصلتين . فمن جهة ساحاول ، عبر عملية التجريد من المنعطف التاريخي لما بعد التاريخ ، أن أجد في سلاسل معينة من الروابط ثلاثة تشخيصات لعبت دوراً كبيراً في القرن الذي يفصلنا عن كورنو . والعناصر البنيوية الثلاثة هذه هي :

١ . التغلب على النزعة التاريخية ونشوء الفكرة التي تقول بأن التراث التاريخي الكوني الشامل متوفر ليشكل «موضوع نقاش» خارج الزمن ، فيما بين العقول أو «الأرواح» القيادية ؛

٢ ـ الضبط الذاتي لبنية المجتمع التكنو ـ اقتصادي بوصفها «آلة عملاقة» بعيدة عن الذوات ؛

٣ ـ عودة الثقافة الى مبادئ طبيعية مع نزوع الى التكلس على المدى الطويل ، اضافة الى كونها ، كمحصلة ، متضمنة في سياق الطبيعة ـ الموت .

لذا فإن اهتمامي ليس مركزاً على تحديد أمكنة سائر المؤلفين في سياق تاريخ الأفكار وتقويمهم ، بل على استخدام هذه القطاعات الطولانية الثلاثة لتحديد أوجه الخلاف والأرض المشتركة في تشخيصاتهم للعصر ، وفي موضوعهم المطروح على بساط البحث .

ستبين سلاسل الترابط أن الأطروحات المفتاحية لما بعد التاريخ ليست ، بأي حال من الأحوال ، محصورة في إطار فن التشخيص العائد للقرن الماضي ، بل ويمكن بالفعل ادخالها في صُلْب تقاليد رئيسة كانت دائبة على البحث عن التوصل إلى نوع من فهم العصر . ومن الجهة الثانية فإن تقاطع هذه الأطروحات وتلاحمها في الفكرة القائمة على أن التاريخ قد انتهى ، وأن الحياة ستستمر الآن حياة حيوانية إلى هذا الحد أو ذاك ، يبدو سمة تخص فترات معينة وجماعات محددة من المؤلفين . ثمة أمران يميزان جملة الخطابات مابعد التاريخية عن كتابات قد تبدو ، من نواحٍ معينة شديدة الشبه بها ، وهذان نجدهما في :

أولاً : تعود تلك الخطابات إلى تقليد يقوم على انتاج معنى لم يعد له أي مستقبل اجتماعي ، وتتموضع ذاتياً فيه ؛

ثانياً : تدأب تلك الخطابات على تجنب التفكير بالموت ، وخصوصاً بخطر قيام المدنية الحديثة بالاجهاز على نفسها وعلى العالم ؛ وهذا هو الهم المركزي الذي يُقِضّ مضاجعَ الكتاب الآخرين . أما الصورة التي تتراءى لمنظري مابعد التاريخ فهي صورة حياة أخلاقية تُعاش دون أية جدية أو كفاح ، في ظل الملك المنظم القائم على الاعادة الأبدية لانتاج الحداثة على الصعيد العالمي . فاشكالية ما بعد التاريخ لا تكمن في انتهاء العالم بل في زوال المعنى وتبدده .

يصل بنا هذا الى مقاربتي الثانية لخصوصية المنعطف التفسيري الحالي ، حيث نجد مرة أخرى انطواء الرواية العالمية الشاملة لعملية الانتقال إلى مدنية مابعد تاريخية على جملة أخرى من العناصر التشخيصية . سيكون

اهتمامي الرئيسي متركزاً على المرحلة التكوينية لأطروحة ما بعد التاريخ مي زحمة التغيرات الجذرية التي جرت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها . فهنا بالذات آمل أن أستبق لعبة الاقتباسات الأدبية ، وأن أمسك بالمقدمات التجريبية التي استنبطها أصحاب جملة من المُزَق التشخيصية ، بهذا القدر من التمايز ، من الترسانة المعاصرة في سبيل تسليط الأضواء على الحلم الطوباوي السلبي بحياة تدوم بلا معنى . وهذا الأمر يغدو بالغ الصعوبة لأن أساطين تشخيص مابعد التاريخ الأوائل ظلوا عازفين ، كلياً تقريباً ، عن تقديم صورة ملموسة ومفهومة عن تجربتهم ، بل فضلوا اعطاء تلك التجربة عبر لغة رمزية عامة على شكل استعارات وصور بيانية مجازية . تشير صورتهم الخيالية إلى حاجة ماسة للتفسير ، وإلى تقطير لجملة من كواكب ومجرات محظورة لا يستطيع أحد أن يتحدث عنها ، أو يُفترض التعرف عليها في لمح البصر ، دون أية امكانية لتوضيحها عن طريق المناقشة . وفي الصور البيانية العائدة للمنعطف التفسيري يتعين علينا، لذلك ، أن نلتمس التاريخ المخبوء لما هو متصل بما بعد التاريخ . وبعبارة أخرى ، يتوجب علينا أن نكتشف محتوى تلك الحساسية التاريخية الحياتية غير القابلة للنطق والتي تقوم ، كحافز ، بالتزود من عناصر بائسة أخرى تستمدها من المخزون الروحي للعصر فتجمعها في إطار تفسير كوني متفوق أو متسام .

إن الصورة البيانية ، وهي رسول معرفة ممكنة من جهة وصياغة رمزية لما هو محظور ومنسي من جهة ثانية تستحيل قراءتها بسهولة لأنها تتضمن جملة معقدة من الوقائع المكثفة والمترابطة فيما بينها . إنها تسبق فهمنا ، ولا يمكن الامساك بمحتواها إلا بصورة تقريبية ، عبر فيض تفسيراتها الخاصة ومن خلال الطريقة التي تتبعها في التجلي داخل سياق محدد خاص . ولدى السعي الى فهم المنظومة المجازية لتشخيص ماقبل التاريخ في نشوئه وتكوّنه ، لُذت أولاً بتفسيرات تَشي بتاريخ حياته

وازماته . وهذه التفسيرات ليست هي الوحيدة بالطبع ؛ وثمة تفسيرات أخرى من شانها أن تكون قادرة على محاكمة النتائج المترتبة على نزوعي أنا كمؤرخ إلى التاريخ لما بعد التاريخ .

ما من مؤلف ممن ذكرتهم حتى الآن كان مؤرخاً . وقد أغراني ذلك باختيار التفسير الخاص بالصورة المركزية لتأملات فالتر بنيامين «حول مفهوم التاريخ» وهو نص بات في العقود الأخيرة النص الأوسم تعرضاً لاساءة التفسير في التاريخ الألماني للأفكار في عقد الأربعينيات . فكتابات بنيامين المتأخرة في ميدان النقد الأدبي ونظرية الفن كانت مصحوبة سراً بنوع من التاريخ المبدوء به للحياة اليومية في المدينة (المتروبول) في المجتمع البرجوازي ـ أي تلك الكتابات المعروفة باسم كتاب الممرات والحواري ، تلك المزق والمقتطفات التي نُشرت للمرة الأولى في عام ١٩٨٢ . قبيل موته فيما كان مطارداً من قبل النازيين ، في حالة من العذاب المفرط والخيبة الكاملة ، قام بنيامين بتسجيل نص بالغ الغنى بالصور ، نص شكل محاولته المكثفة الأولى لصياغة نظرية معرفة (ابستمولوجيا) تخص الممارسة السياسية التي تعرض فيها هو نفسه للهزيمة . على الرغم من أن لبعض جوانب تحليل بنيامين نقاطاً مشتركة مع كتاب ما بعد التاريخ الأخرين فإن هذا التحليل يشكل نقيضاً مباشراً وحاداً لتشخيصات أولئك الكتاب . لم يكن بنيامين حريصاً على البقاء لاعلان نهاية المعنى ، فقد ترك وصية ملأى بالمعاني ، وصية تَحُضُّ على الغوص عميقاً لاستخراج وانتشال جملة من الآمال المكبوتة والمدفونة في سبيل تقوية أولئك الذين يعيشون من حوله ـ ومات بعد ذلك . غير أن قراءه ، ومنذ عقد الستينيات ، انقسموا حول التوتر الديالكتيكي لهذه النظرة الجديدة الى التاريخ ، وبات النص الفعلي مجرداً من التاريخ عبر سلسلة من التفسيرات الصغيرة والتي تكاد أن تكون غير قابلة للفهم لصوره الخيالية البيانية . وبهذه الصورة تم سحب لوحة بنيامين التخطيطية المختصرة لتطور نظريته في التاريخ ، مع

سجل صورها البيانيـة الدقيقة المرافقة ، إلى الموجة اليسـارية الثانية ما بعد التاريـخ ، هذه الموجة التي انطلقنا منها .

وهكذا فقـد حاولت أن أفـهم تشخيص مـا بعد التاريـخ بالافادة من ثلاثة مِجَسّات أو مسابر : البحث عن تقـليد قـد يوفر رؤى ذات قـيمـة كبـرى على الرغم من احـتـمـال كـونه دليلاً زائفـاً ؛ تجـمـيع أجزاء مـسبـقـة الـصنع للرأي المطروح من قـبل بعض الورشـات الفكرية في القـرن المـاضي أو ما حـوله ؛ ومحاولة التماس المساهمة المخبوءة في هذا التشخيص من جانب المنظومة المجازية لدى المـتبحرين فيه . أما المادة المحصلة من هذه التلمسـات فتتم أخـيـراً ترجـمتـهـا الى السـؤال ذي الأوجـه الثـلاثة التـالي : ١ ـ مـا الذي ينتـهي بالتـحديد فيمـا بعد التاريـخ ؟ ما الأرضية الـتاريخيـة لهذا التشـخيص ؟ وهل ينبغي لهذا الأمـر أن يشغل الـمؤرخـين ؟ وبمـا أنني ، رغم شكوكي الكـثيـرة وتحفظاتـي الـنقدية كلها ، سـاجيب على السؤال الأخـير بالايجـاب ، فإنني أود أن أطرح على المناقـشـة هذا التقـرير عن تحـقـيقـاتـي وأبحـاثي التي تكاد أن تكون ممزقة ومجزوءة ، جنباً الى جنب مع مزيد من الخيوط التي ورد ذكرها هنا والتي سـيـتم العـثـور عليـهـا في كل من النص والملاحظات الـهامـشـيـة الداعمـة الملحقة بالفـصول . حتى الـلحظة تـبدو مسـألة ما إذا كان التـاريـخ قد انتهى مـسألة ظلت تقض مـضاجع سـائر العلوم الثـقـافيـة باستـثنـاء التاريخ نفـسه . قـد يكون المؤرخـون متـمتـعين بـأسـبـاب وجيـهة تدعـوهم إلى تـبني مـوقف الانتـظار والتـرقب من جـمـيع المناقـشـات الأخرى القـائمـة على الـ «مـابعـد» حـول الحـداثة والمـجتـمع الصنـاعي ، والـثـورة والحـركـة العـمـاليـة ، والفاشيـة ، والحركة الـنسوية ، ومـا إلى ذلك ، بهدف التأكد مـمـا إذا كان بوسع مثل هذا التقطيع إلى مـراحل أن يتمخض عن مفاهيم إيجابية . غـير أن صبراً كـهـذا يبـدو أقل مـلاءمـة حيث يتم طرح مـسألة كـيـف ، ومـا إذا كـان ، يمكن التعامل مع التاريـخ عموماً ، لا الماضي فقط ، تعاملاً سليماً .

* * * *

يسعدني أن أعبر عن شكري لأولئك الذين ساعدوني في أبحاثي وناقشوا استنتاجاتهم الخاصة معي - وفي طليعتهم ديرك فان لاك Dirk van Laak الذي ساعدني في الاهتداء الى الأدبيات ذات العلاقة ، في القيام بالعديد من الرحلات الجديدة ، وفي دعمي لدى قيامي بصياغة هذا النص واعداده للنشر بعد أن كان قد كُتب أساساً كسلسلة محاضرات بجامعة المراسلات Correspondence University في هاغن Hagen . ومن هذه الناحية أجدني أيضاً شديد الامتنان لكل من أولريخ هيربرت Urlich herbert ونوري مودينغ Nori Moding على جملة استثنائية من النصائح والانتقادات ، كما أجدني مديناً بالشكر لكل من ميشيل بريلاز Michel Brélaz ، ايريك كيتز مولر Erich Kitzmuller ، كارل سيغبيرت ريهبرغ Karl - Siegbert Rehberg واينغبرغ فيللينغر In-geberg Villinger ، على أمور أخرى . وفي وقت مبكر وفر لي ديتمار كامبر Dietmar Kamper مخطوطة مجموعة الدراسات التي كانت بعنوان : مابعد الحداثة ، معالم جماليات ما بعد التاريخ : Nach der Moderne Umrisse einer Ästhetik das Posthistiore والتي قام هو نفسه مع المرحوم جاكوب توب Jacob Taube بتحريرها واعدادها للنشر ، مما مهد لي الطريق المفضي الى الاضطلاع بالمشروع . أما المناقشة الأولى لأفكاري فكانت مع طلاب الدراسات العليا للأستاذ يورن روسن Jörn Rüsen في جامعة الرو ببوخوم Bochum خلال ندوة حول «مابعد التاريخ أم نزعة تاريخانية جديدة ؟» في تشرين الأول ١٩٨٧ ، ومع توماس ليندبيرغر Thomas Lindberger من ورشة التاريخ في برلين - وفي العام التالي تلقيت في كلية العلماء البرلينية Berlin Wis-senschaftskolleg قدراً من النصح والنقد والتشجيع قدمه لي عدد من الباحثين أذكر منهم سيزار كاسيس Sesare Cases ، لازلو غلوزر Lazlo Closer ، فيلهلم هينيس Wilhlem Hennis ، راينهارت كوسيلليك

Reinhart Koselleck وولف ليبينيز Wlof Lepenies ، وفي طليعتهم فيكتور غورفيتش Victor Görevitch» الذي أنا مدين له بشكل خاص على حواراتنا الطويلة التي كانت تدوم أياماً كاملة . أتممت الفصل الخاص بملاك بنيامين أوائل هذا العام وأنا أعمل ليلاً بصحبة الأمداء الخالية الهادئة المحيطة بالقاعة القديمة لبلدية هايزنغن التي هي ضاحية من ضواحي ايسن ـ فساعات النهار كانت مكرسة لتأسيس معهد للدراسات الثقافية هنا في حوض الرور . . . ظلت رؤية ريغينا شولته Regina Schulte الانتروبولوجية مصاحبة لهواجسي التدقيقية القائمة على الافراط في التحري لدى الاهتداء الى مدخل قوي يفضي الى جملة الاقتباسات المتعلقة بما بعد التاريخ ، مع الاكثار من طرح الأسئلة الواشية بمسارب غنية للبحث ، أو المجبِرة إياي أحياناً على التوقف الاجباري ببساطة . ذلك هو السبب الكامن وراء اهداء هذا الكتاب الى ريغينا شولته .

ل . ن .

معهد الدراسات الثقافية

ايسن ، أيار ، ١٩٨٩

التقهقر :
ضياع التاريخ أم التغلب عليه ؟

الفصل الثاني

آ - نهاية تاريخ المجتمع البورجوازي ؟

في عقد السبعينيات كان بيتر بروكنر Peter Brückner تجسيداً لمثقفي مابعد الـ ٦٨ الراديكاليين الثوريين اذ سعى الى توسيع المنافذ التي فتحها اليسار الجديد في الجمهورية الاتحادية وتكرر تقديمه بوصفه ذا علاقة بجماعة الجيش الأحمر وأوقف عن عمله كأستاذ لعلم النفس في جامعة هانوفر. وكانت المرة الأخيرة خلال «الخريف الألماني» الذي امتد من ١٩٧٧ إلى ١٩٨١ . وحين مات في الستين من العمر بعد عام واحد من رفع الحظر عنه مرة أخرى ،تم العثور بين الأوراق التي تركها على ملف يحمل عنوان «مابعد التاريخ» . احتوى الملف على مواد لسلسلة مخططة من المحاضرات. على مقتطفات من مؤلفين آخرين(١) مع مخطوطة عن تغيرات مفهوم الثورة ،(٢) في المقام الأول . هاكم هذا المقطع المأخوذ من المخطوطة :

١ـ منهج دانييل بيل Daniel Bell ، يورغن هابرماس Jürgen Habermas ، هيربرت ماركوز Herbert Marcuse ، هنري لوفيفر Henry Lefebvre وكلاوس أوفه Claus offe

٢ـ «التاريخ وما بعد التاريخ» ذيل لكتاب بيتر بروكنر «علم النفس والتاريخ» تحرير أكسل د . اويستمان A.R. Oestmann ، برلين الغربية ، ١٩٨٢ ـ من المقدر أنه كُتب عام ١٩٨٠.

«وهكذا فإن المجتمع البورجوازي(٣) كان هو المجتمع التاريخي حقاً ، بمعنى أن أحقاباً متباينة تقاطعت وتداخلت في داخله في حالة من التوتر الشديد وأن تغييراته الجذرية أدت الى إقامة الروابط ، في الدول القومية من جهة وعلى صعيد السوق العالمية من جهة ثانية ، بين عدد كبير من الأقاليم والشعوب والسيرورات الاجتماعية والاقتصاديات التي ظلت حتى ذلك الحين لا تتواصل فيما بينها إلا لُماماً . غير أن مما لا ينطوي على أي شك أن سيرورة الترابط هذه بالتحديد هي التي شكلت بداية مشروع نمط الانتاج القائم على المجتمع الصناعي ، للمرة الأولى في التاريخ ، بخلق كونية أو شمولية نسبية لظروف حياة العديد من الفئات الجامدة (الكاستات) والطبقات والشرائح والمناطق ، في عملها وتجارتها ، في أوقات فراغها واتصالاتها ، في التنظيم الاجتماعي للعائلة ، في الجنس وفي سريرية الموت . . لذا فإن سائر العناصر الفارضة للمساواة التي تنطوي عليها البيئة الصناعية لابد لها من تمهيد الطريق أمام ظهور شبح «مابعد التاريخ» ، شبح بشرية غدا أعضاؤها متشابهين في «مواقفهم وسلوكهم» ، في «اهتماماتهم وأحكامهم القيمية»(٤) . . إن حصيلة مثل هذا التطبيع والتوحيد أو الدمج تكون شكلاً جديداً من «الواقع» ـ أي تطبيعاً لا يعتبر التميز أو الاختلاف النوعي إلا انحرافاً ، إلا قضية تجب إحالتها عادة على الطبيب أو على الشرطة والبوليس . فالخصوصية تتلاشى من هوامش الخريطة .(٥) وتمايز الأحقاب المتداخلة يتعرض للتسوية : حيث مراكز

٣ـ من خصوصيات الفهم الألماني للتاريخ أن مفهومي : المجتمع المدني والمجتمع البرجوازي ، يتم التعبير عنهما بمصطلح bürgenliche Gesellschaft نفسه .

٤ـ المقتبسات مأخوذة من آرنولد غيهلن .

٥ـ إشارة الى حديث بروكنر عن شبابه في الرايخ الثالث ، Das Abseits als sicherer ort ، برلين الغربية ، ١٩٨٠ .

المدن وشبكات المواصلات ، حيث التعليم ولهجات الكلام ، حيث أشكال التدجين والمعاشرة ، وأنماط التصور والادراك ، تتمرض لعملية «التحديث» . وهذا الواقع أحادي البعد ، خلافاً للفترة التاريخية المُخْتَضرة والمتلاشية ببطء ، لم يعد مكاناً أو زماناً لأطراف متنافسة أو متصارعة ؛ إنه ، هو نفسه ، طرف بذاته . . . فحتى في بلدان ذات بنية طبقية متطورة ، تكون الطبقات ومصائرها قادمة من الهوامش لتنخرط في شبح الطبعة الجديدة لـ «التناقض الأساس» ، بين قوى تحافظ على العقلانية (التكنولوجية) وادارة أو انتاج الأخلاق من جهة وبين الهبّات أو الثورات «اللامتزامنة» التي تحيط بعناصر من الانتقادات ما قبل البرجوازية ومابعد الصناعية من جهة ثانية . ثمة منبع واحد لصيغة ثانية من صيغ التحول : صيغة مقاومة بُنى مابعد التاريخ . وهذه الكتلة السكانية الناشئة لا تتيح لنا ، نحن القابعين في الصدع ، فرصة اجترام تركيب محدد حول «الذات الجماعية» بوصفها ذاتاً طبقية على الأقل .»(٦)

ليست هذه الملاحظات إلا نصاً من نصوص كثيرة كان اليسار الثوري قد اضطر للاعتراف فيها بأن مفاهيم التراث الماركسي ماعادت تصف الواقع المعاش في مجتمعه المحيط به بما يوفر أي دليل عمل .(٧) هذا الادراك جاء متأخراً في المانيا الغربية بالمقارنة مع الأماكن الأخرى لأن التراث الماركسي هنا كان قد تعرض للقطع والتوقف لفترة طويلة جراء الفاشية والحرب الباردة وقد تعين عليه أن يخضع أولاً لعملية اعادة اكتشاف قبل أن يتم انجاز

٦ـ بروكنر ، «علم النفس و . . .» ص : ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ، (باللغة الألمانية) .

٧ـ إن لأشهر نصين ـ وقد كتبهما اثنان من المهاجرين تحديداً ـ المنظور نفسه ويكادان يغطيان فترة هذا الأدب كلها ، وهو الأدب الذي ينبغي تمييزه عن موجة سابقة من استنكار الماركسية الستالينية . انظر «انسان البعد الواحد» نيويورك ، ١٩٦٤ ، لهيربرت ماركوز ، و «وداعاً للطبقة العاملة» ، لندن ، ١٩٨٢ ، لاندري غورز .

مهمة استيعابه أوتمثله . (٨) وبسبب حرمانها من أي تراث مواز داخل الحركة العمالية ، تعرضت فئة المثقفين (الانتلجنسيا) الأكثر شباباً لعملية تغيير في التوجه كانت محمومة جداً نحو توجه الجيل الى الفعل الثوري الراديكالي في النصف الثاني من عقد الستينيات مما أعاد شحن التراث الماركسي بشحنة الاشمئزاز المطلق ازاء الفاشية . وهكذا تم حفز التطلع الى التماهي مع ذات ثورية جماعية لرهط من الضحايا ، ذاتٍ تم البحث عنها أول الأمر بين الطبقة العاملة ، وفي التضامن مع الحركات التحررية العالم ثالثية بعد ذلك . ولكن التوترات المأزومة الصادرة عن مثل هذا التماهي ، وهي توترات بين المهمات الثورية النظرية لـ «الذوات» وبين واقعها الفعلي ، دَمَّرَتْ الأمل في أي تحويل للنظام الرأسمالي وبالتالي في التاريخ نفسه كبنيان ديالكتيكي للحركة الاجتماعية .

وعبر السبعينيات كانت النظرة القائمة على إلحاق الهزيمة بالنظام تُستَبْدل أكثر فأكثر بتعريفات لنظام ، لم يعد قابلاً للتاثر ، مما أدى الى القاء ظلال «مابعد التاريخ» . إن بشرية مقَوْلَبة باتت الآن مستعدة للتعامل مع الاختلاف بوصفه انحرافاً خالصاً ولوضعه بين أيدي الأطباء أو رجال الشرطة . يا لها من طبيعية بُعْدٍ واحد لابد للخصوصية من أن تختفي عن المسار في مواجهتها ؛ ثمة تلاحم(٩) سرابي للتناقض الذي كان يوماً مركزياً بين رأس المال والعمل سينقلب الى قوة دافعة لديناميكية النظام المدمرة وسيحدث

٨ـ يمكن العثور على تقويمات أولية في عدد من المجموعات مثل «منبر أبندروث» ، ماربورغ ١٩٣٧ ، تحرير فرانك ديب وآخرين ، ملاحظات حول (الوضع الروحي للعصر) ، كامبرج ، ماس ١٩٨٥ ، تحرير يورغن هابرماس ، «نهاية الحركة العمالية في ألمانيا ؟ حلقة بحث عن ثيوبيركر» اوبالدن ، ١٩٨٤ .

٩ـ الرحلة Die Reise ، تأليف بيرنفارد فيسبر ، (الطبعة الأولى ، ١٩٧٧) يوسا ، ١٩٨١ ص : ٤٣٣ .

تغييراً في خطوط المجابهة . فالنضالات المنظمة على جبهة التناقض الرئيس ستُخلي مكانَها لجملة متعددة الوجوه من العصيانات وحركات التمرد الخاصة ، لرعاية أشكال بديلة من الحياة في هوامش النظام وجيوبه ، ولتعبئة تحالف حركات مناهضة لأخطار موجودة وماثلة (القوة النووية ، التلوث البيئي ، تكديس الأسلحة) . هل كانت هذه عملية انتقال من تناقض اجتماعي أساسي واحد الى جملة متعددة الوجوه من البدائل ، من الذات الثورية الى نوع حيوي من الذاتية ، ومن التاريخ إلى «مابعد التاريخ» ؟

بنوع من النظر الى الوراء ،تضم ملاحظات بروكنر المكتوبة في زحمة اعادة تجميع اليسار وتجديد توجهاته ، كلاً من «المجتمع البورجوازي» و «التاريخ» في سلة واحدة بوصفهما تراكباً لحقبتين في اوربا . وما ينشأ في مكانهما إنْ هو إلا اطار مدنية عالمية مابعد تاريخية ، ماعادت هاتان المقولتان قادرتين على الامساك به أو ادراكه . وأي أمل في التحرك كامن في التناقضات الوجودية ذات الوجوه المعقدة بين الطبيعية المُقَوْلَبة وبين الآخر الملائم ، هذه التناقضات التي تكون بعيدة عن متناول أية خطط عظيمة أو تنظيمات جليلة . كما أن دور النَّبِي يتوقف عن كونه فاعلاً ، فينزاح المثقف الى شُرفة المفسّر والشارح أو يتم اختزاله الى كاسب لقوت اليوم .

لم يكن الخليط المتميز للأفكار ، هذا الخليط الذي يضم اشارة المساواة بين المجتمع البورجوازي والتاريخ ، يحدد العالم المعاصر من منطلق أخطار نظامية ، ولا ينطوي على أي أمل في المستقبل إلا على المستوى الفردي في المقام الأول ، باي حال من الأحوال محصوراً ببروكنر أو بمنظري اليسار ، لم يكن سوى أحد بدائل تشخيص معين من تشخيصات العصر ، لم يكن سوى بديل يمكن أيضاً التعرف على خطوطه العريضة في أماكن أخرى وبتناظر مُذهش . لنأخذ فقط مثال المفسر الأكثر انتاجاً والأشد محافظة لألمانيا الحديثة ، مثال ايرنست نولته "Ernst Nolte" الذي تنطلق ثلاثيته حول المحتوى الايديولوجي لتاريخ ألمانيا والعالم في القرنين الأخيرين ، من

اشكالية مماثلة حتى وإن كانت منطوية على مفاهيم وهموم معرفية مختلفة .(١٠)

لدى استخدامه لعبارة «النظام الليبرالي» للدلالة على المجتمع المدني أو البرجوازي يستنبط نولته زخم هذه العبارة التاريخي من التوتر الكامن في طبيعتها المتناقضة غير المتوافقة (تراكب الأحقاب عند بروكنر) . إن السعي الى حل هذا التوتر هو المسؤول عن الخيبة الطوباوية للفوضوية ، ولكنه مسؤول أيضاً عن احتمالات الابادة والافناء الكامنة في كل من البلشفية والفاشية . غير أن المستقبل لم يتبلور بعد ، بالنسبة لنولته كما بالنسبة لبروكنر ، وهو ، أي نولته ، يأمل في أن الحركة الداخلية للنظام الليبرالي سوف تتيح له أخيراً ، «تحت التهديد بالكارثة» فرصة التكيف مع الانسان . ولكنه يدرك أن التقدم الذي بات سمة بنيوية داخل المجتمع المدني ، «يمكن أن يفضي ، حتى وهو يحمي السلام ، الى الفناء الذاتي للبشرية» .

ما من شيء سوى جمع مركز من الأفراد ذوي القدرة على التفكير والتعليم ، سوى نوع من القوة غير الممركزة لنُخَب ذاتية ، يمكن أن يصبح «العامل الرئيس في عملية تدريجية من عمليات تغير النظام كله .» لذا فإن اشكالية مابعد التاريخ مطروحة في الاطار الاجمالي للحالة مابعد القومية . بعد سعي هتلر الى اغتصاب التاريخ واعتقاله ، جاءت الاتفاقيات بين الشرق والغرب لتقسم ألمانيا وتزيحها من «مركز العالم» . ومن ثم ارتقت الجمهورية الاتحادية بوصفها قناة مجتمع لا سياسي اقتصادوي قائم على السعادة الخاصة ، لفترة قصيرة على الأكثر ، أي خلال فترة «الخريف الألماني» . الى مستوى التحرك بوصفها وحدة تاريخية ومستوى رسم بعض

١٠ـ انظر كتاب ايرنست نولته بعنوان «الماركسية والثورة الصناعية» ، شتوتغارت ١٩٨٣ ، وكتابه «الفاشية في عصرها» ، ميونيخ ١٩٦٣ ، اضافة الى كتاب «ألمانياوالحرب الباردة» ميونيخ ، ١٩٧٤ .

ملامح دولة برجوازية(١١) . من الصعب أن نهتدي الى تحليلين أكثر تناقضاً على الصعيد السياسي وأشد تماثلاً ، مع ذلك ، على الصعيد التاريخي !

قد يشي تورُّم سائر مفاهيم الـ «مابعد» المتباينة بأننا لم نعد قادرين على ، أو راغبين في ، تحديد محتوى المكان الذي نحن فيه والمكان الذي نريد التوجه اليه(١٢) ؛ بأننا لا نريد أن نعرف إلا المكان الذي نأتي منه . فما كان يبدو جلياً بذاته أو مرغوباً فَقَدَ براءته ، وباتت الكلمات تخذلنا بقدر أقل أو أكثر . إن «مابعد التاريخ» هو الأعمق غوراً بين هذه المفاهيم ، لأنه يقوم على انكار أي مستقبل لا لعنصر مميز واحد من عناصر إحدى مراحل التاريخ (الحداثة ، الثورة ، الصناعة . . الخ) فقط ، بل لفكرة التاريخ بالذات . فكتابات بروكنر الأخيرة تبين أن هذه الفكرة القائمة على ثقافة مابعد تاريخية وشيكة ، وهي التي صيغت للمرة الأولى من قبل مثقفي اليمين بالمانيا مابعد الحرب ،(١٣) والتي تعرّض تبنيها من قبل جيل «مدرسة

١١ـ انظر ?Was ist bürgerlich ، شتوتغارت ، ١٩٧٩ لنولته ، و «تعددية عهد هتلر» ؟ اضافة الى العرض المتضمن في «الماركسية . . .» وللحصول على تقويم أكثر تحفظاً انظر مقال كارل ديتريش براخر بعنوان : Ende des bürglischen Zeitalters في «التاريخ والعنف ؛ حول سياسة القرن العشرين» ، برلين الغربية ، ١٩٨١ .

١٢ـ انظر العرض الرائع للجوانب المختلفة العديدة لظاهرة الـ «مابعد» في مقدمة بحث هانس روبرت ياوس بعنوان : Der literarische Prozeb des Modernismus von Rousseau bis Adorno في كتاب «مؤتمر حول ادورنو» تحرير لودفيغ فون فريد بورغ ويورغن هابرماس ، ١٩٨٣ ، فرانكفورت على الماين ؛ انظر أيضاً العرض الفني لهانس ايغون هولتوس بعنوان «عودة الى التاريخ . مابعد الحداثة ومابعد التاريخ في الأدب الراهن» ، ميركور ٤٣٠ (١٩٨٤) .

١٣ـ يتجلى هذا بأوضح صوره في حالة زميل غيهلن القديم من الثلاثينيات في لايبزيغ : هانس فرير Hans freyer انظر مؤلفه المتأخر : Theorie des gegenwärtigen Zeitalters» شتوتغارت ١٩٥٥ ، وخصوصاً القسم الذي يحمل عنوان Die Vollendarkeit den Geschichte . إن هذا التراث كلّه سيتم تناوله بالمزيد من النقاش في الفصلين الثالث والخامس اللاحقين .

فرانكفورت» الأقدم للانتقاد لدى الحركة الطلابية وقادتها المعلمين(١٤) ، انتشرت فيما بعد بسرعة بين صفوف اليسار ، ولاسيما مايخص كلمتها المفتاحية الغريبة على الأقل(١٥) . ما الذي جعل هذه الكلمة ذات الصبغة الفرنسية ترد بهذه الكثرة في اللغة الألمانية ؟(١٦) وما الذي جعلها تكتسب جِنسَها المحايد ؟ لابد لثوب الأستذة الصارخة الذي تتجلبب به هذه العبارة بالفعل من أن يجعل مهمتنا المتركزة على تعقب الجذور والأهمية التاريخية لهذا التصور كله أكثر سهولة .

١٤ـ انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

١٥ـ مع انقضاء عشر سنوات على ١٩٦٨ بات تصور قدم رؤيا طويلة ورفض «مراقبة البطاقات من قبل روح العالم» ـ تلك الحساسية التي كثيراً ما عبر عنها هانس ماغنوس انزنسبيرغر في وقت مبكر ـ من الأمور الشائعة تماماً بين صفوف اليسار . انظر مقالاً له بعنوان «ملاحظات حول نهاية العالم» (١٩٧٨) في البوليتيكال كروب Political Group لندن ، ١٩٩٠ . أما في التسعينيات فإن الاهتمام الأكبر بما بعد التاريخ كان موجوداً لدى فلاسفة وسوسيولوجيي برلين الشباب المتحلقين حول جاكوب توب ـ بوهرينغر ، بولز ، كامبر ، أو كيتشتانير ـ كما بين كتاب آخرين ذوي خلفيات يسارية مثل غومبريخت أو سلوترديك ، ممن شخصوا احساساً بأن الزمن والتاريخ قد انتهيا ليس جراء تبلور البُنى الاجتماعية ـ الثقافية في المقام الأول ، مما يسبب انقطاع الصلة بين فسحة التجربة وبين أفق التوقعات (كوسيلليك) ، نظراً لاستحالة توقع أي شيء بعد الآن . يمكن الاهتداء الى نظائر دولية في كتابات كل من فاتيمو ، بودريار ، أو كوبر على سبيل المثال .

١٦ـ شذ عدد قليل من المؤلفين باستخدام أداة التأنيث ، فرولف شفندتر في «حول التاريخ المعاصر للمستقبل ، Zur Zeitgeschichte der Zukunft (فرانكفورت ، ١٩٨٤) مثلاً ، يتصور eine Posthistoire (مابعد التاريخ مسبوقة بأداة التأنيث) بوصفها ، على غرار كونت ، «المستقبل مابعد التاريخي كما لو كان ماضياً ممدداً إلى ما لا نهاية» .

يورد بروكنر نفسه عدداً من التلميحات العارضة ، ولكنها ذات شأن ، الى مؤلفات آرنولد غيهلن Arnold Gehlen الذي اشتهر في الرايخ الثالث فيلسوفاً متخصصاً بعلم النفس الاجتماعي ، والذي كان للانتروبولوجيا المحافظة والنقد الثقافي عنده نفوذ كبير وتأثير ذو شأن خلال فترة حكم اديناور Adenauer(١٧) . يظهر التقزز من الجماهير للمرة الأولى منذ عام ١٩٥٢ ، حيث يتم التعبير عن الحاجة الى الأمن بوصفها قوة دفع لاشعورية تحرك البشرية المعاصرة (الإيد "id" ، الـ "هو" و "هي" لغير العاقل) : "لم يعد الناس مهتمين بكلمة الحرية السحرية القديمة ؛ إنهم يفكرون من منطلق الخطط . ربما تم الوصول الى مستوى أعلى من عدم الثقة نتيجة لذلك . إنها الرغبة في جعل العالم بلا مستقبل ، وفي شراء الأمن بمثل ذلك الثمن . هل أصبحنا خارج التاريخ وانتهى الأمر ؟ هل أصبحنا فيما بعد التاريخ ؟(١٨) .

١٧ـ عن سيرة حياة غيهلن ، انظر الكلمة التأبينية التي كتبها كارل ـ زيغبرت ريهبرغ بعنوان : Metaphern des Standhaltens في كولنر زايتشريفت فور سوزيولوجي اوند سوزيالسايكولوجي ، ٢٨ (١٩٧٦) . أما عن مشكلة الاستمرارية بين طبعات ١٩٤٠ وطبعات ١٩٥٠ لمؤلَّف غيهلن الرئيس بعنوان : Der Mensch, Seine Natur und Scellung in der Welt ، فانظر مؤلف كارول هاغيمان وايت بعنوان : Legitimation als Authropologie, Eine Kritik der Philosophie A. Gehlen ، شتوتغارت ، ١٩٧٣ ؛ ومقال غابرييل آلتاوس بعنوان Zucht - Bilder في كتاب (الفكر والكارثة . Geist und Katastrophe. تحرير أورس جايغي وأخرين ، برلين الغربية ، ١٩٨٣ .

١٨ـ غيهلن ، «شتوديث تسور انتربولوجي اوند سيوسيولوجي» نيويد ، برلين ١٩٦٣ . (حول ولادة الحرية من الاغتراب über der Geburt der Freiheit aus der Ent- fremdung . (وضمير غير العاقل بالألمانية هنا يشير إلى هو ـ هي لغير العاقل أي (id) لدى فرويد بطريقة لا يمكن التعبير عنها بالانجليزية) (ملاحظة المترجم إلى الانجليزية) .

وبعد عقد من السنين أورد غيهلن ملاحظة تقول : «إن مفهوم «مابعد التاريخ» مأخوذ من كورنو "Cournot" (١٨٠١ ـ ١٨٧٧)" . راح المؤلف مؤخراً يميل الى التعامل معه(١٩) ، لم يعد الجمهور هو "هم" الذين يفكرون بل أنا معينة تؤكد ذاتها وتعكس صورة لعقم شامل ، حيث "الملونون" عاجزون حتى عن التفكير ثانية بما تم تجاوزه :

«اذا التفتنا الى النصفين الكبيرين للعالم والى أساسيهما الايديولوجيين فان استنتاجي قد يكون أقل ادهاشاً مما هو حين اقول بان ليس هناك اي مزيد يمكن توقعه في ميدان تاريخ الأفكار ، وبان على البشرية ان تسلّم بالاطار العريض الحالي مع جميع التنوعات المختلفة الكثيرة التي يمكن ان تخطر بالبال بالطبع . فكما أن البشرية تعوّل باطمئنان فيما يخص الدين على مذاهب الخلاص العظيمة التي صيغت منذ زمن طويل ، نجدها بالمثل ملتزمة التزاماً راسخاً باحساسها بالمدنية ، مما يقودني الى طرح فرضية معقولة تقول بان ما يعرف بالأمم النامية لن تهتدي الى ايديولوجية ثالثة ايجابية . فالايديولوجيات الكونية التي هي من ذلك النوع ـ بما فيها ايديولوجيات تجاوزها الزمن تاريخياً مثل الفاشية ، أو أخرى غير متطورة مثل عقيدة روسو أو نيتشه القائمة على الخلاص ـ ليست «دون استثناء» إلا نتاجات أوربية غير موجودة خارج هذه الدائرة . لذا فإنني ساشرئب بعنقي وأزعم أن تاريخ الأفكار قد تم تعليقه ، وأننا الآن أصبحنا في محطة ما بعد التاريخ . وبالتالي فإن نصيحة غوتفريد بين Gottfried Benn للفرد : «اعتمد على مواردك الخاصة!» ، ـ يجب أن تُعَمم الآن على البشرية كلها . في الحقبة التي تصبح فيها رؤية الكرة الأرضية كلها والتحدث عنها من الأمور الممكنة بالذات ، حين لا يستطيع اي شيء ذي أهمية أن يمر دون أن يلاحظ ،

١٩ـ المصدر السابق . أيقن ناشرو أعمال غيهلن الكاملة أن المفهوم المألوف لم يكن موجوداً عند كورنو .

تصبح الأرض من هذه الناحية خالية من المفاجآت . إن البدائل معروفة وهي نهائية في الحالات كلها كما في ميدان الدين»(٢٠) .

وفي عقد الستينات ، في مؤتمر علماء السوسيولوجيا مثلاً ، اتخذ غيهلن موقفاً مناقضاً لموقف أدورنو Adorno . ومع ذلك فإن الرجلين دأبا على طمأنة كل منهما الآخر في المراسلات الخاصة ، كأناس ضاعوا في الغابة . . رغم الذئاب . على أن انتقاداتهما الثقافية كانت متفقة حول استسلام الذات ، حول طغيان الشر وحول تكلُّس ظروف الحياة . ففي مواجهة «عصر الظلام» النيتشوي المتزامن مع التعليم العام الأوسع انتشاراً ، سوف يجد الفيلسوف نفسه ببساطة مرة أخرى «متخبطاً تخبطاً عشوائياً مثل هرقل» . قام غيهلن بارجاع هذا الى «الخيبة العلمانية التي جلبتها الاشتراكية في ذيلها الثقافي» . لقد استحالت ، بالتالي ، عملية التعويض عن ثقافة الاقطاع والبرجوازية الراقية حتى بعد انقضاء حقبتيهما واندماجهما بالمجتمع الصناعي . فالطبقة الرابعة الخاضعة دائماً «لمن هم غرباء عن الطبقات» كانت قد قدمت «ورقة حساب صِفْرية» ؛ ولم يكن ماتضمنه المجتمع الصناعي ، بالفعل ، إلا «ثقافة مابعد برجوازية» لم يعد ممكناً وصفها بأنها ايجابية .(٢١) لم تكن عملية برجزة الجماهير ذات جدوى ، لأنك لا تستطيع أن تنتظر من هذه التشكيلة إنجاب ثقافة جديدة متميزة ، بل على النقيض من ذلك ، نجد أن الثقافة المشلولة التي ذابت بنى المجتمع في بوتقتها كانت هي الأخرى موشكة على فقدان امكانياتها المميزة ، هذه الامكانيات التي كانت ، بالنسبة للثقافة البرجوازية ، تعني ذاتية أفراد عظماء . وهذا النوع من الذاتية الذي يتراكم الآن أكواماً لم يعد

٢٠ـ المصدر السابق . Uber kulturelle Kristallisation .

٢١ـ غيهلن : Uber Kulturelle Evolution. في كتاب «الفلسفة ومسألة التقدم» تحرير هـ . كون وف . فيرمان ، ميونيخ ، ١٩٦٤ .

يتمتم باية أهمية تاريخية ، بعد أن بات هامش مناورته مختزلاً الى جُحر متمورة أميبية قابعة في «طبيعة ثانية» . «لم يسبق قط أن كانت ثمة ذاتية على هذا القدر من التمايز والحذلقة كما هي موجودة اليوم ، كما لم يسبق أن وُجد هذا العدد الكبير من الناس المجهزين بأكثر الانتينات حساسية»(٢٢) . ومثل هذه التصريحات وإن اتسمت بشيء من الإيجابية في مرحلة اعادة البناء الحداثية ، حين بدا الفرد العظيم مايزال متمتعاً بشيء من الشعور بانه مطلوب ومعترف به كصاحب دور تبشيري ، انقلبت رأساً على عقب في مواجهة الحركة الطلابية والخطاب الأخلاقي الذي مهد الطريق أمامها . وعندئذ باتت السمة النموذجية سمة مفعمة بالاشمئزاز الرافض :

«إن النزعة الفردية الشديدة القائمة على تأمل الذات لا تعني إلا النزعة الذاتية حيث تتسابق السلسلة المدمرة من الركائز والمعاني الى نهاية معينة ؛ يتم ضخها من قسريتها اللاشعورية واجترارها ويُصار الى استهلاكها في اجترام نوع من التجربة ، من التأمل ، ومن الشهادة»(٢٣) .

٢٢ـ غيهلن ، Uber Kulturelle Evolution في كتاب «الفلسفة ومسالة التقدم» تحرير هـ . كون و ف . فيرمان ، ميونيخ ، ١٩٦٤ .

٢٣ـ غيهلن ، Moral und Hypermoral ، الطبعة الثانية ، ميونيخ ، ١٩٧٠ . في هذا الاستنكار للمعارضة خارج البرلمان ، التحق غيهلن بركب المتشدد الايديولوجي وولفجانغ هاريش في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، الذي اكتشف أواخر حياته في انتروبولوجيا غيهلن القائمة على النظام الدكتاتوري أسلوباً لاكمال الماركسية بما يمكّن بلدان الكتلة الشرقية من السير في طريق التطور نحو أنظمة دكتاتورية ـ اقتصادية تسووية . لست أملك ما يكفي من المعلومات لأقرر ما إذا كان غيهلن قد أصبح نصيراً دكتاتورياً لحركة الخضر قبل موته نتيجة لهذه المبادلة على الحاجات . انظر هاريش : شيوعية بلا نمو ؟ بابوف و «نادي روما» ، مقابلة مع فرايموت دوف ، راينبيك ١٩٧٥ .

ومنذ فترة حكم اديناور ظلت هذه النزعة الهروبية الشرسة تعيش على افتتان الناس بتلميحاتها القصيرة وبالتالي على نوع من «البداهة» كما يقول غيهلن . في السر قام غيهلن أيضاً بالاقتباس من أستاذه هانس دريش Hans Driesch إذ تبنّى عبارة «المعرفة المسبقة بالفوضى» ، وأعادها الى مشاعر لازَمَته أيام الطفولة في المانيا الامبراطورية(٢٤) . غير أن تصور ثقافة مابعد الحرب ثقافة عابثة كانت له جذور عميقة :

«لم يعد هناك أي تطور داخلي في قلب الفن ! بات كل شيء قائماً على تاريخ للفن مستند الى منطق المعنى ، بل وحتى مع أي قدر من اضطراد السخافات .لقد اكتملت سيرورة التطور ، وما يأتي الآن موجود سلفاً : إنها التوفيقية المضطربة الجامعة بين سائر الأساليب والامكانيات . إنه مابعد التاريخ .(٢٥)»

٢٤- حول «الأنانة الحيوية .Vitalist Solipsism لدى دريش ، انظر لوتار سامسون : Systematisch - historische Unter suchungen' Natur teleologie und Freiheit. bei A. Gehlen فرايبورغ ١٩٧٦ .

٢٥- غيهلن زايت - بيلدر ، فرانكفورت ١٩٨٦ . كثيراً ما يجري ايراد مفهوم غيهلن عما بعد التاريخ في الأدبيات ولكن قلما جرى التعمق فيه . ولكن انظر التفاسير في «ميلانخولي اوند غيرلشافت» لوولف ليبينيز ، فرانكفورت ١٩٦٩ ، «داس دايلماديس كونزير فانيزموس ايث دويتشلاند» لمارتن غريفنهاغن ، فرانكفورت ١٩٨٦ ، مع المزيد من مناقشة استحالة المحافظة في الحداثة . كنت سعيد الحظ إذ حصلت على مخطوطة فيرنر روهر بعنوان «يوتوبيا آ - غيهلن السلبية القائمة على (مابعد التاريخ)» قبل طباعتها في بولونيا عام ١٩٨٧ . إنها دراسة حكيمة عموماً ، وبحث نقدي كُتب في جمهورية المانيا الديمقراطية ، ولكنها تتسرب من اليد بسبب منعطفاتها الاجتماعية الوظيفية .

غالباً ما تنطوي الغطرسة ، حتى حين لا تكون سوى درع للعزلة ، على جانب مبهر . فالموقف الرافض لمثقف مابعد الفاشية سرعان ما وجد أتباعاً له ومؤيدين بين صفوف الألمان المهزومين . كانت ثمة روح أوربية . ولكنها الآن ماعادت موجودة ، انتهت الى غير رجعة . وبعدنا لن يأتي إلا طوفان من التعسف والعشوائية ، متضمناً ، ربما ، بعض التنويعات الملونة . ألم تحذِّر بالوعة الصحافة الغوبلزية من أن الأمركة من شأنها أن تتمخض عن «إشاعة الزنوجة» ؟ لم تكن الجماهير ، الأقوام والعروق الأخرى ، سوى ضمير "هم" أو "هي" و "هو" لغير العاقل "it" . لا تاريخ بدون ذات فاملة تتصف بالبطولة ، وكل ما يستطيع المرء التعويل عليه هو المحتويات الموجودة في حقيبة كتبه . لاشيء عدا ذلك جدير بأن تفتح عينيكَ لتنظر إليه . ومع ذلك فإن النبوءات ذات النمط الكاساندري باتت أعلى صراخاً من أي وقت مضى فيما عيناك تجحظان وتوشكان على الخروج من محجريهما رعباً وهلعاً .

وهكذا فإن غوصنا بحثاً عن جذور «مابعد التاريخ» اليسار الجديد قد أفضى بنا . فضلاً عن بعض الاشارات الى مدرسة فرانكفورت . الى كتابات آرنولد غيهلن الأساسية في عقدي الخمسينيات والستينيات والى الاستخدام الأول القابل للاقتباس للعبارة في ١٩٥٢ . وقبل الالتفات الى المصدر الذي ذكره غيهلن نفسه ، آ . آ . كورنو ، علينا أن نسأل عن الذي مهد السبيل الى طرح هذه الفكرة في مؤلفه هو . هل مابعد التاريخ هو مابعد الفاشية ؟ يشير كارول هاغمان . وايت Carol Hagemann White إلى أن غيهلن ، في مقال له من عام ١٩٤٣ ، كان قد تطرق الى فكرة «البلورة» الاجتماعية التاريخية . أو فكرة «المنهجة المعززة» كما دعاها أنذاك . التي كانت ستشكل المحتوى الجوهري لما بعد التاريخ .(٢٦) ففي منتصف شهر كانون الثاني

٢٦ـ هاغنمان ـ وايت ، مشيراً الى غيهلن «أشكال ومصائر العقل» (مجلة أوراق الفلسفة الألماني) ، العدد : ١٧ ، ١٩٤٣ .

١٩٤٣ بعد نزول قوات الحلفاء في شمال افريقيا بشهرين وقبيل استسلام الجيش السادس في ستالينغراد ، ألقى غيهلن محاضرة حول «مشكلات احدى فلسفات التاريخ» . وحسب الملاحظات النقدية التي سجلها عملاء مكتب روزنبرغ ، قام غيهلن بصياغة فكرة مابعد التاريخ صياغة أولى avant la lettre بلغة ألمانية متوجسة شديدة الحرص :

«بات مدى استخفاف غيهلن بالتاريخ بوصفه فعلاً أو تطوراً ، على الأقل ، واضحاً من خلال تحول كاشف للتعبير : «لا أعني بذلك استحالة أي شيء جديد حقاً في التاريخ غير أن شيئاً ، أي شيء جديد بالفعل ، أي شيء مدهش وجذري لا يمكن أن يحدث بعد الآن ، بالنسبة لهذا التفسير الوجودي والبعيد كلياً عن التوقيت والزمن . كما زعم غيهلن أن الرسم الأوربي قد أكمل الآن جملة امكانياته كلها ، وأن الأساطير الهندية قد قامت بتطوير سائر الامكانيات الأساسية الكامنة في العقيدة الدينية . وصل التاريخ ، بنظر غيهلن الى نهاية ترسانة مغلقة ذاتياً من التجربة ، ترسانة باتت بعيدة عن متناولنا . أو كل شيء فيها ، معاصر من جهة وغير محدد زمنياً من جهة أخرى كـ «امكانية» .

وقد علق أحد المسؤولين قائلاً :

«لم ينتج غيهلن في معرض ملاحظاته ماهو أكثر من نظائر تاريخية مجردة فقط : لم يلامس مسألة الأساس / للتاريخي الحقيقي لمثل هذه النظائر ، كما لم يلامس ، بالتالي ، مسألة التاريخ بالذات . ففي حين أن ماكس فيبر Max Weber الذي أشار اليه انطلق من قضايا اجتماعية ملموسة جداً ، لم يتقدم غيهلن بأكثر من طرح مقاربة ذكية ولكنها عقيمة أساساً مع نوع مجرد من تنظيم أنماط تاريخية .(٢٧)»

٢٧ـ السوسيولوجي الذي قام بنشر مؤلفات غيهلن الكاملة ، كارل . زيغبيرت ريهبرغ فضَّل عليَّ إذ لفت نظري الى هذه الملاحظات .

إن المسافة الجلية هنا والفاصلة بين غيهلن وبين الأوصياء على الايديولوجيا القومية. الاشتراكية مرت من قبل دون أن تلفت الأنظار نظراً لأنها جُسِرت بنجاح على الصعيد العملي. فقبل انقلاب الموازين في الحرب لم يكن غيهلن قد احتل مركز الصدارة بوصفه أحد فلاسفة التاريخ. متابعاً عَمَلَه الأكاديمي بعد ١٩٣٣، كان غيهلن قد التحق بالرايخ الثالث كموظف في رابطة معلمي الجامعة بمدينة لايبزيغ، قد عبَّرَ عن ولائه الكامل للنظام من خلال جملة متنوعة من المحاضرات والمقالات،(٢٨) ومن ثم، مع بداية الحرب، حقق شهرته عن طريق انتروبولوجيا فلسفية اعتبرت البشرية بطبعها معتمدة على «هيئات قيادية سامية» (أو «مؤسسات» حسب الطبعة المطهرة من النازية فيما بعد الحرب)(٢٩). لم يصبح الطابع اللاتاريخي لهذه الانتروبولوجيا قضية طالما ظلت الهيئات القيادية العليا متمتعة بقَدْر واضح من الأهمية التاريخية على الصعيد النظري. أما حين بات اخفاقها فاقعاً فإن «انترو (بيو) لوجيا(٣٠)» غيهلن تطلب إطاراً يدعم لحظلتها التاريخية أولاً ويختزلها الى مؤسسات بعد ذلك.

تعيدنا هذه الحصيلة الى جذور قيام غيهلن باختزال الانتروبولوجيا بيولوجياً، تلك الجذور التي نستطيع أن نتلمسها في أطروحة مابعد الدكتوراه التي كانت بعنوان الروح الحقيقية وغير الحقيقية في الأزمة الأخيرة لجمهورية فايمار(٣١). إن اشكالية هذا العمل تدير ظهرها الى الأفق

٢٨ـ انظر مثلاً، «الألمانية والمسيحية عند فيختة»، لغيهلن، لايبزيغ ١٩٣٥.

(٢٩) انظر المراجع الواردة في الهامش رقم ١٧.

٣٠ـ هذا التوصيف مستخدم من قبل لوثار سامسون محرر كتاباته الفلسفية.

٣١ـ «الروح الحقيقية وغير الحقيقية» لايبزيغ ١٩٣١ يتعامل سامسون مع هذا «الغوص الفلسفي في منهج فينومينولوجيا المطلق» (١٩٣١)، بوصفه مساراً وجودياً ـ هيغلياً في المقام الأول لمجرى تطور فكره؛ في حين ينظر هاغنمان ـ وايت، قبل كل شيء الى ـ

التقليدي للنظم المثالية وترفض فرضياتها المعرفية (الابستمولوجية) . وتُبْحِر ، بدلاً من ذلك ، في متاهات يفرض «عجز الروح» فيها نوعاً من الاستسلام والهروب ، ما لم تتوفر امكانية تجاوزها والتغلب عليها عبر سلسلة من القفزات على صعيدي الفكر والقرار . «فالنظم . . . ، المعرفة والتصريحات أو البيانات ، لا نلتقي بها في ميدان التجربة ، والمضامين الموضوعية لطرق التفكير السابقة (يتعين عليها) أن تُستَعاد الى الحياة لا لشيء إلا لأننا نستطيع تطبيقها على الشيء الوحيد الذي هو بمتناولنا بصورة ملائمة ، أعني على الشخص الفرد» .(٣٢)

لدى النظر الى ارتياب غيهلن ازاء امكانية معرفة المطلق ، لابد للأمل في جسر فلسفي - انتروبولوجي مع ذلك التراث من أن يبدو بائساً وكئيباً . لا يمكن جعل ميكروكوزم الفرد ، على أرضية لا نهائية الماكروكوزم التاريخي ، قابلاً للمعرفة إلا من خلال الاختزال البيولوجي . ومع ذلك فإن ديالكتيك هيغل يعيد انتاج ذاته فيما يتعلق بالشخص . أي في نفي طبيعية الشباب عبر التأمل الذاتي ، والتغلب على «اللاشعور البائس» عبر التضحية بالذات في غمرة العمل . فممارسة «الواقع الأصيل» خلف القسمة بين الذات والموضوع ، بوصفه «يقيناً لا شعورياً بالوجود» لا تتم إلا في غمرة العمل أو الفعل . وبعبارة أخرى يستعيد الأفراد أنفسهم لحظة «يخاطرون بالقفز في بحر الوجود»(٣٣) .

ولكن ما الذي يجعل التأمل يبدو تمزقاً مشلولاً ، تمزقاً لا يطاق يحفز التوق الى القفز في الوجود عبر فعل لاشعوري ؟ يشير غيهلن نفسه هذا

- عواقبه (أي الى القطيعة الكاملة مع كيركفارد كما لدى أدورنو الى هذا الحد أو ذاك) مع كلامه عن فرويد .

٣٢- غيهلن ، «الروح الحقيقية وغير الحقيقية» ، ص٨ .

٣٣- انظر سامسون ، المصدر السابق .

المنعطف الى اللاشعور كمصيبة لالفريد زايدل Alfred Seidel . الى صرخة اليأس المرضية حقاً تلك المتصاعدة من مثقفي فترة مابين الحربين ، معبرة تعبيراً ممتازاً عن أزماتها السياسية وعن تراثها الايديولوجي المربك(٣٤) . وبالفعل فإن زايدل شنق نفسه في اليوم الذي أنهى فيه كتابه بالذات . كان زايدل ابناً لأسرة تجارية ، وعاش بداية حياته يتيماً كما كان يعاني من الاكتئاب والمرض الجسدي . ألقى بنفسه في ثورة تشرين الثاني ١٩١٨ كشيوعي مثالي وبعد فترة دراسة غير مستقرة وشديدة النشاط وانفعالية بمدينة هايدلبرغ ، عمل باحثاً خاصاً أفقره التضخم تماماً ، كان الكتاب هو كل ما عاش في سبيله . أما القوى الفكرية التي سيطرت عليه فيأتي على وصفها في المقدمة حيث يقول :

«خرج هذا العمل من رحم صراعات الأيام الروحية والسياسية . كانت البداية محاولة لمزاوجة مشكلات من ماركس وفرويد وتطبيق نظريات تحليل نفسي على تأثيرات تلك المشكلات . تأثر العمل ، في المقام الأول ، بتفكير كل من غوته ، هيغل ، دوستويفسكي ، نيتشه ، جورج ، كلاغيس ، الفريد أدلر ، جيمس ، سيمل ، ماكس فيبر ، ياسبرز وشبنغلر(٣٥)» .

في النهاية يطلق زايدل صرخة «فلندمر قوة التدمير!» وينسحب من التأمل ليغوص في الدين . في الموت عملياً . وفي هذه الأثناء يقوم زايدل

٣٤ـ الفريد زايدل ، «الوعي كمصير محتوم» (من المؤلفات المنشورة بعد موت المؤلف) ، تحرير هانس برينزهورن ، بون ١٩٢٧ ، تحت عنوان (مقاطع حول العلاقات بين النظرة العالمية والشخصية ، أو حول طبيعة الايديولوجيات وتغيرها) . تعرض مقدمة الناشر صورة لطيفة عن شخصية المؤلف . أما عن أجواء التشاؤم الثقافي (لودفيغ كلاغيس اوزفالد شبنغلر ، تيودور ، ليسينغ) فانظر مؤلف سامسون ، ص٧٥ ف ف .

٣٥ـ زايدل ص٧٢ .

بتطوير نظرية تحليلية نفسية وتشخيص للايديولوجيات والوعي التحليلي في اطار فلسفة التاريخ . تُفَسَّر الثقافة على انها تصعيد لدافع جنسي شديد الانحراف ،(٣٦) ومرحلة وعي تحليل الذات . مقابل يقينية القيم الغريزية . تعتبر هذه الحالة ازدهار الثقافة ونهايتها في وقت واحد . وفي المحصلة يضع زايدل شبنغلر وهيغل في حالة مجابهة . وعلى الرغم من انه يرفض شبنغلر بوصفه رجعياً على الصعيد السياسي وغارقاً في الأوهام ، فانه معجب بتحليله للتاريخ في انحطاط الغرب The decline of the West . وزايدل لا يقرأ هيغل الا في هذا الضوء : «ليس بزوغ فجر الوعي إلا نتاج تكشف روح الشعب Volksgeist وبلوغها الأوج . إنها تحقق معنى هذا الشعب أو الثقافة في اطار تاريخ العالم ، دالة على اكتمالها وبالتالي أفول نجمها «ولكن زايدل يتابع المسيرة فينْقَضُ بالنقد القاسي على تلك العملية القائمة على الوعي النامي بوصفه عملاً خارقاً أنجزته «الغرائز الشيطانية لروح الغرب» و . «كرمى لعين النقاوة الروحية والثقافة الحقيقية» . «يبادر الى «اعدام تلك العدمية» التي تسعى ، «بحديثها عن

٣٦- يقول في أحد المقاطع (على الصفحة ٢١٢) : (ليس العالم إلا شاذاً صعَّد شذوذه . ليس العلماء على هذه الدرجة من الطيبة ليسوا كرماء فقط بل ضمان وذوو مزاج طيب - إلا لأنهم غير مضطرين لأن يمارسوا خصائصهم الشريرة المعادية للمجتمع . . . ، بل هم يصعّدون هذه الخصائص عبر فعالياتهم الذهنية والثقافية تحديداً ، غير أن هذه الاثار تنطوي ، لذلك السبب ، على تأثير تدميري موازٍ» . يشك هاغنمان - وايت في وجود أي خلط بين التصعيد وتشكيل رد الفعل لدى زايدل كما عند غيهلن : «فزايدل أصيب باليأس من أفكاره هو . . . لأنه لم يستطع أن يفهم الثقافة إلا بوصفها عُصاباً (مرضاً عصبياً) والمدنية إلا كلعنة . أما غيهلن فيقلب الأمور ويضفي صفة الشرعية على سائر أشكال العُصاب مع الثقافة (بدلاً من شحن الأخيرة بالأولى) ، طالما ظل السلوك وفقاً للمعايير أمراً ممكناً» .

الايجابية» الى المزيد من نمو الوعي كسبيل لبناء شيء «لا يمكنه ، جراء طبيعته بالذات ، ان يكون مرغوباً بوعي» . ومن وجهة النظر هذه ما من شيء أكثر اتصافاً بالسلبية من الكلام عن الايجابية ، هذا الكلام الذي لا يتورط فيه قط ماهو ايجابي حقاً . غير أن تدمير العدمية لا يمكن أن ينشأ إلا من روح العدمية بالذات ، طالما أن «التحليل موجه بقوة ضد التحليل»(٣٧) .

اهتدى غيهلن الى مخرج آخر من «الروح غير الواقعية» للحداثة في الأزمة التي كانت تعيد تنظيم المجتمع البرجوازي كمجتمع جماهيري : في السلوك الانساني كطبيعة ثانية Secundum Naturam . ولكن الفكرة القائمة على أن الفعل قادر على التغلب على تمزق الفكر تكشفت لاحقاً عن أنها وهم من الأوهام الذاتية(٣٨) فمن جهة يكون الشخص المتورط في الفعل غارقاً في علاقات اجتماعية قائمة على النفوذ والقوة حيث لا تكون ممارسة «يقينية الوجود» حاصلة حتماً بأي حال من الأحوال . ومن الجهة الثانية. وقد قام غيهلن بتطوير هذا في أواخر الثلاثينات بوضعه حجر الزاوية في الانتربولوجيا الفلسفية عنده. يتميز الانسان عن أشكال الحياة الأخرى بالمعاناة من القصور في غرائزه . وللتعويض عن ذلك فإن توجه الانسان الفكري أو الذهني نحو امتلاك الطبيعة لابد له من أن يُبْقي جملة جاذبياتها العديدة بعيدة(٣٩) ومن اعتماد السلطة والنفوذ لبناء الأطر

---

(٣٧) زايدل ، ص : ٢,١ ف . ف .

٣٨- حوالي عام ١٩٣٣ قام غيهلن بعدد من الحركات التراجعية المثالية بما يمكنه «انسجاماً مع طبيعته» من استحضار القمع والانضباط ويدعو الى تاييد كل ماحدث آنذاك باعتباره أسمى آيات الحرية . انظر هاغنمان - وايت ، ص : ٥٢ .

٣٩- في انتروبولوجيا غيهلن الفلسفية يُقَيّم هذا على انه «انجاز مثمر للانفراج» ، انظر أكس هونيت «نقد السلطة Kritik der Macht» . . . فرانكفورت ١٩٨٩ . ويضيف هونيت قائلاً : يستطيع المرء هنا ، إذا ما تم قلب الاشارات ، أن يرى نظيراً بنيوياً -

الضامنة لبقائه الذاتي في غمرة الفعل . لذا فإن التغلب على التمزق في الوعي يقود الفرد الى فسحة اجتماعية . ولكن هذه الفسحة ، لأنها ليست مُشَادَة إلا على مقولات السلطة والتقنية ، تجعل الفرد معتمداً على السلطة القائمة في أي زمن محدد . ليس ثمة دعم لمقاومة هذه السلطة ، ليس هناك سوى ذكرى «المضامين الموضوعية لأنماط سابقة من الفكر» .

ب ـ التحديث فيما بعد التاريخ

منذ أيام غيهلن باتت الأدبيات مثقلة بالكلام عن انطوان اوغستين كورنو A.A. Cournot ، ذلك الفيلسوف وعالم الرياضيات الفرنسي المنتمي الى عهد الامبراطورية الثانية . غير أننا كثيراً ما نجدنا أمام جملة من التفاصيل البيوغرافية بدلاًمن أرقام صفحات المؤلفات التي لا ترد على الاطلاق ، كما لو أن الموسوعات هي التي تم الرجوع اليها أكثر من كتابات الأب الروحي المشكوك في أبوته لـ «مابعد التاريخ»(٤٠) . وبالفعل فإننا

ـ لنقد التشييئ والهيمنة في عمل مهاجر متأخر بعض الشيء ، في عمل كل من هوركهايمر وأدورنو الذي كان بعنوان «جدل التنوير» "Dialectic of Enligtenment" الذي كان تعرضه للقولبة تحت تأثير فلسفة الحياة أو النقد الثقافي لدى أي من لودفيغ كلاغيس أو الفريد زايدل سبباً في ثلم «النظرية النقدية» وقلبها الى عقيدة الاندماج للهيمنة التوتاليتارية (الشمولية) .

(٤٠) ثمة معلومات موجزة ودقيقة عن سيرة حياة كورنو في كتاب J. Feller بعنوان : Dictionaire de biographie باريس ١٩٦١ ؛ هناك مزيد من التفاصيل عن مؤلفاته في مقدمة الناشر لمؤلف كورنو : «مقال عن أسس معرفتنا An Essay on the foundations of our knowledge تحرير مريت هـ . مور ، نيويورك ١٩٥٦ . عدد ـ

لانهتدي عملياً ، لدى معاينة كتابات كورنو الى المفهوم المركزي لـ «مابعد التاريخ» ، بل الى فكرة ذات علاقة ما بالموضوع . فالتاريخ «بالمعنى الأضيق» أو «كما هو مفهوم عادة» (إنها طريقة كورنو المألوفة في الاشارة الى ماهو أساساً مجمل التاريخ السابق منذ انبثاق المدنيات الأوربية والأسيوية المتقدمة) محصور بفترة انتقالية بطولية ومضطربة بين حالتين لا تاريخيتين ، مستقرتين : أي بين الثقافات القبلية للأزمان والاثنولوجيات المبكرة والمدنية الاجتماعية . الاقتصادية الانسانية للمستقبل . أما العلاقة بين التاريخ وبين الحالة النهائية للانسانية فتُرى بوصفها تقارباً يستحيل أن يتم بصورة كاملة . بوصفها عملية شبيهة بنهر يتم تحويله الى شبكة للري في اللغة المجازية .

ـ خاص من مجلة ريفيو دو ميتافيزيك إى دوموراك (١٩٠٥/١٣) يتضمن تقويماً لمؤلفاته . انظر خصوصاً مساهمات سي . بوغلن وجي . تريد عن تصوره للتاريخ .

٤١ـ ومع ذلك فإن الأدبيات عن كورنو تسيء استعمال عبارة «المرحلة مابعد التاريخية» Phase posthistorique انظر الى "SLa Synthése en Histoire (باريس ١٩٥٢ ط ٢) لهنري بير مثلاً ، كما الى الدراسات الأقدم . ثمة مساهمتان غنيتان كتبهما اثنان من أعوان غيهلن أُرسِلَتا الى باريس لاكتشاف مابعد التاريخ في كتابات كورنو ، لا تتضمنان أيضاً أية اقتباسات : انظر رومان شنور «بُنى العالم الخاضع للارادة المضبوطة» تشخيص ا . ا . كورنو لما بعد تاريخ العصر» في فورت اوند فاهر هايت ، ١٦ (١٩٦١) ، وفريدريك يوناس «تاريخ السوسيولوجيا» ، الجزء الأول ، راينبيك ١٩٧٦ . أما عن الحالة الراهنة للبحث فانظر ستيفن ميير . «مابعد التاريخ» «فيرسوخ أينر هيستوريشن انيهارونغ ، في كتاب : «مابعد الحداثة ، معالم جماليات مابعد التاريخ» ، مخطوطة غير منشورة أعدها ديتمار كامبر وجاكوب توب ، ١٩٨٦ ، وعرض ميير الموجز بعنوان «تاريخ وبلا نهاية» في باوفيلت ، ٧٤ (١٩٨٣) .

«للتاريخ ، كماهو مفهوم عادة ، بدايته في تلك الحقائق التي يكون وصفها وتفسيرها ، إن أمكن ، من مهام الايتنولوجيا : فهو ، أي التاريخ ، يقود البشرية تدريجياً باتجاه حالة نهائية تصبح فيها عناصر المدنية الجديرة باسمها ، من منطلق التنظيم الاجتماعي ، قد باتت ذات تأثير طاغ على سائر العناصر الأخرى في الطبيعة الانسانية ، بفضل التدخل المستمر للتجربة والعقل العام . فسائر التمايزات الأصلية تميل الى التلاشي ، وحتى تأثير السوابق التاريخية يفقد قوته ، وتميل المجتمعات ، كما لو كانت خلية نحل ، الى تنظيم نفسها بطريقة تكاد أن تكون هندسية ، باتت أوضاعها الأساسية مؤكدة بالتجربة ومبينة بالنظرية . إن الأحقاب التاريخية حقاً والعائدة للمجتمعات الانسانية موجودة بين هذين القطبين . أي الأحقاب التي تلعب فيها المؤسسات السياسية والدينية الدور الرئيس ، فترات الحرب والغزو ، فترات اقامة الامبراطوريات وتدميرها ، فترات صعود الأسر المالكة وسقوطها ، فترات صعود الحكومات الفئوية الارستقراطية أو الشعبية وسقوطها . ذلك ، قبل أي شيء آخر ، هو ما ظل يشد انتباه المؤرخين حتى اليوم ، سواء أقاربوا التاريخ كفنانين أو كفلاسفة ، لأن مجموع هذه المشاهد العظيمة والجليلة أكثر ابهاراً من الجذور الايثنولوجية للتاريخ ، أو من الحركة الخفية في الغالب للتيار الممدّن الذي ظل ينتظر عصرنا ليبدأ باستعراض قوته التي لا تقاوم أمام الجميع . . .

«ان المتفوقين ، على اختلاف مشاربهم . من الفاتحين والمشرّعين ، من المبشرين والفنانين ، من الباحثين والفلاسفة . لا يمارسون أعظم تأثيراتهم على قرنهم ، ولا تمارس ضربات الحظ قوتها القصوى وأصداءها العليا ، إلا فيما بين حدّي تطور المجتمعات المتطرفين . فطاقة التطور المزاجية لا تكون مقيدة بالقدر نفسه ، لا من جانب الغرائز البدائية للطبيعة ، مع ضرورة يمكن وصفها بالحيوية أو العضوية ، ولا من قبل ضرورة أخرى ، مادية أو اقتصادية ، يكون مبدؤها أكثر تجريدية ولكنها

ليست أقل قوة ، لأنها (في المقام الأول على الأقل) تحدد اقتصادات المجتمعات في اللحظة الأخيرة عبر القمع المتبادل لسائر الغرائز الفردية . وهكذا ، مثلما ظلت المجتمعات الانسانية مستمرة في الوجود قبل أن تعيش حياة التاريخ ، فإننا نستطيع ، تماماً ، أن نتصور أنها تستطيع ، لا أن تبلغ تماماً ، بل تستطيل وتشرئب بأعناقها نحو وضع يكون فيه التاريخ مختزلاً الى جريدة رسمية قائمة على تسجيل التشريعات والمعلومات الاحصائية وصعود رؤساء الدول وتعيين الرسميين ، مما يوقفه عن ان يكون تاريخاً بالمعنى المألوف للكلمة . .

«إننا نغادر الحقبة التاريخية التي كانت فيها أهواء القدر والأفعال ذات الحيوية الشخصية والأخلاقية ذات تاثير كبير ، لندخل في حقبة جديدة يقوم فيها الناس بزوْز الجماهير والأقلام بأيديهم ، وهم يستطيعون أن يحسبوا النتائج الدقيقة دقة دقات الساعة»(٤٢) .

ترد الحالة الجديدة في هذا النص بوصفها تغلباً على التاريخية الفوضوية ،(٤٣) وأملاً في السلام والازدهار العالميين . من المؤكد أن كورنو لم يكن وحده في التطلع بأمل نحو التنظيم الذاتي الاجتماعي . التكنولوجي

٤٢ـ انطوان أ . كورنو : "Traité de l'enchainement des idées fondamentales dan les science et dans l'histoire" الجزء الثالث من الأعمال الكاملة ، باريس ١٩٨٢ ، وعن البعد التشخيصي في مؤلّف كورنو ، ذلك البعد الذي بقي شبه مجهول في زمانه ، انظر رايموند بايز "L'Humanite de L'avenir d'apres Cournot" باريس ١٩٣٠ ، ص : ٤٧ .

٤٣ـ من الواضح أن ذلك ينطوي ، بنظر كورنو ، على سلسلة من الثورات ، كما يتكهن بأن مجتمع المستقبل المُدار على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي لن يتعرض للثورات ، بل لنوع من الاضطرابات وحركات التمرد أو العصيان التي لن تغير الطابع الأساس ، فقط ؛ وبالتالي ستجعله قريباً من المجتمعات السابقة .

لمجتمع عالمي موجود على المستوى الموحد نفسه ؛ وقد كان بالفعل راسخ القدم في التراث الفرنسي المتجسد بالاشتراكية المبكرة والفلسفة الوضعية(٤٤) . فهذه الفكرة القائمة على امكانية التغلب على التاريخ عبر تكشف المجتمع البرجوازي وتطوره كانت أخر المطاف جزءاً من برنامج التنوير جرى التعبير عنه بقدر مفرط من الوضوح في ألمانيا بفكرة «من أجل تاريخ كوني ذي عزيمة كوزموبوليتية» (١٧٨٤)(٤٥) لدى ايمانويل كانت . وحسب هذا التصور ، فإن المجتمع البرجوازي المتطور ، بعد أن أدت فترة طويلة من الصراعات العسكرية الى قيام الدول المؤسسة تاريخياً بتمزيق بعضها وصولاً الى تحييد بعضها حتى باتت قابلة للادارة ، سوف «يحافظ على نفسه بصورة آلية» (als wie ein automat) . لذا فإن مفهوم «مابعد التاريخ» ، في القرن الثامن عشر (إذا كان قد وُجِدَ أصلاً) لم يكن ينطوي على خيبة النزعة التشاؤمية الثقافية ، بل على الأمل في أن فوضى التاريخ وطغيان النزعة التاريخية يمكن التغلب عليهما أخيراً .

وهكذا نستطيع أن نعيد صياغة سؤال ما إذا كان التاريخ قد انتهى ، ونطرح بدلاً منه سؤالاً حول ما إذا كانت نبوءات عصر التنوير ، برأي رهط معاصر من فرسان اليمين واليسار ، قد بدأت تتحقق . ونستطيع بعد ذلك أن نتقدم خطوة اضافية ونعاين كيف ولماذا أصبحت رؤى القرن التاسع عشر البرنامجية وأحلامه صوراً مُرْعِبة في النصف الثاني من القرن العشرين .

٤٤ـ يفكر المرء بسان سيمون وكونت قبل غيرهما ، وبالتصورات الأبعد مدى لماركس وانجلز لعملية انتقالية من سيطرة الناس على الناس الى ادارة الأشياء ـ الأمر الذي سيتطلب ، بالطبع ، تغييرات جذرية ولن يستغني قط عن المزيد من الثورات كما في التراث الوضعي .

٤٥ـ في «السلام الأبدي ومقالات أخرى في السياسة والتاريخ والأخلاق» لايمانويل كانت ، ترجمة تيد همفري ، انديانا بوليس ١٩٨٣ .

ولكننا قبل أن نحاول تعقب الطريق الواصل من مستقبل الماضي الى الحنين الماضوي (النوستالجيا) في الزمن الحاضر ، لابد لنا من اقرار النظائر أو الاحداثيات الرئيسة ، أي ما فهمه كورنو من التاريخ والمدنية ، وكيف تجب ترجمة تمييزاته الى لغة الفكر التاريخي المعاصر .

من جهة ، رأى كورنو التاريخ السابق كله ، في المقام الأول ، من منطلق شخصيات عظيمة وأحداث كبرى وبالاستناد الى مقولة الحرية (على الرغم من أنه في أماكن أخرى من خطاباته ظن بان أشكالاً من الانتظام يمكن أيضاً تلمسها في تعاقب الأديان والثقافات والامبراطوريات)(٤٦) . ومن جهة ثانية رأى موجة المدنية صاعدة لا تقاوم لتصبح متمتعة باليد العليا : صحيح أن حركاتها وضروراتها قد تبقى في الغالب كامنة في الخفاء ، ولكنها ظلت تدفع الى الأمام عبر مراكمة الخبرة والتخطيط العقلاني ، فرضت شجب الغرائز داخل سيرورة الجتمعة أو التدجين الاجتماعي وحددت ، في اللحظة الأخيرة ، الحياة الاقتصادية للمجتمع .

تبدو الصياغة الأخيرة ، خصوصاً ، كما لو كانت صياغة ماركسية أوقفت ثانية على قدميها . ولكن الصورة البيانية الشهيرة لخلية النحل الهندسية تشي بمفهوم من بُنى اجتماعية ليست محددة بوضوح ولا هي عقلانية دونما لبس ، بُنى اجتماعية تتمخض . كما قال نوربيرت الياس Norbert Elias في تحليله «حول مسيرة المدنية» . عن «تشكيلات» لا تقوم التراتبات الهرمية المستندة الى السلطة ، الى تقسيم العمل والتسوية ، بالغاء بعضها البعض . إن ما قام كورنو بصياغته لم يكن برنامجاً ديمقراطياً ، بل تشخيصاً تكنوقراطياً .

٤٦ـ كورنو ، "Considerations sur la marche des idee et des événement dans les temps modernes" الجزء الرابع ، المؤلفات الكاملة ، "Matérialisme, Vitalisme, Rationalisme" الجزء الخامس ، المؤلفات الكاملة .

في سلسلة من الملاحظات غير المحددة حول تطور العلاقات الانسانية ، توقع كورنو للقرن العشرين أن يلقي بظله على تاريخ الأحداث عبر تاريخ بنيوي . وهكذا فإن امتناع الرواد الفرنسيين لهذا التحول . من عرفوا بأتباع مدرسة الحوليات .(٤٧) . عن تركيز اهتمامهم بالدرجة الأولى على عمليات التحديث في المدنية العالمية ومحاولتهم سرد التاريخ الروائي للاقطاع والنظام القديم وربطه بالمستويات البنيوية لكل من الاقتصاد والمدنية المادية والعقليات mentalités لم يكن خالياً من قَدْر معين من السخرية . وبعبارة أخرى فان مارآه كورنو سمة مميزة من سمات المستقبل ، حاول هؤلاء الرواد اقراره بوصفه العنصر المحدِّد للماضي . أما سيرورات التحديث الاجتماعي المصحوبة بالتصنيع فلم تصبح أطروحة طاغية لمدرسة أعادت تحديد ذاتها بوصفها مدرسة «علوم اجتماعية تاريخية»(٤٨) ولم يتم استنباط نماذج «هندسية» كونية عالمية من مجتمعات ديناميكية باعتبارها معايير تقويم لسائر البلدان الأخرى ،(٤٩) إلا من خلال موجة ثانية ، جاءت من الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن . إن فكرة وجود هدف أحادي الخط التي تقدمت على كل من التجربة والعقل ، حددت ما كان قد دار في رأس كورنو حين راودته صورة خلية النحل ولكن هذا الوعد تبدى ، خلال تحققه منطوياً على قدر متزايد من الحظ . وعداً بتاريخ بلا بدائل ،

٤٧ـ انظر كلوديا هونيفر (ناشرة) ، "Schrift und Materie der Geschichte" فرانكفورت ١٩٧٧ .

٤٨ـ انظر هانس ـ اورليخ فيهلر ، "Geschichte als Historiche Sozialwissenschaft" فرانكفورت ١٩٧٣ ، مع الكتاب التقديمي اللاحق بعنوان : Geschichte und Gesellschaft .

٤٩ـ انظر تقرير فيهلر البحثي النقدي في : Modernisierungs, theorie und Gesellschaft" غوتنغن ١٩٧٥ .

وبدون امكانية تأسيس تلك المستويات من الحرية في البحث التاريخي وهي مستويات الحرية التي تهدد بالتلاشي في التجربة المعاصرة القائمة على جملة من الاشتراطات المنهجية بالغة الجبروت .

غير أن التطبيق المباشر لمفهوم التاريخ لدى كورنو يبدو اشكالياً الى حد ما في العالم المعاصر ، على الأقل بوصفه دليل طريق عبر الممرات المتعرجة لتاريخ الأفكار . لقد أصبحنا عاجزين عن رؤية الهدف : فبدلاً من البقاء مع مابعد تاريخ غيهلن الذي ولّى زمانه ، اخترنا الغوص في بحر علْمٍ اجتماعي تاريخي ، وفي حداثة بُنى عملية مجهولة الهوية تَعِدُ بالحرية التي حددها هيغل بوصفها معرفة الضرورة . وبالفعل يمكن أن نستخلص ، من منطلق المحتوى المعرفي ، أن التحديث أو الحداثة وما بعد التاريخ ليسا بعيدين أحدهما عن الآخر كما قد نفترض استناداً الى اللهجة المؤكدة أو المحبطة التي يستخدمها روادها . غير أننا مازلنا غير قادرين على فهم السبب الكامن وراء التهليل للأول بوصفه توجهاً للمجتمع البرجوازي ، وتسجيل الثاني في خانة الخيبة والاحباط . لذا فإن علينا أن نشدد من إمعان النظر في اللهجات المصاحبة إذا أردنا ألا نثقل كواهلنا بالتاريخ الثقافي للسنوات المئة الماضية ، فقد يكون من المفيد عزل نوايا كورنو الأساسية والتعرف على المسلسلات والمواقف المرافقة خلال الفترة الممتدة منذ ذلك الحين . لابد من التركيز على ثلاثة مجالات محددة لتحقيق أغراضنا ؛ وهذه المجالات هي :

١. تطلع كورنو الى التغلب على النزعة التاريخية الطاغية في عصره ،

٢ـ استهدافه لعلم اجتماعي مستند الى قوانين والى امكانية التنبؤ ، يكون قادراً على «روز الجماهير» ،

. واستخدامه لصور بيانية اجتماعية . انضباط خلية النحل ، تحويل النهر الى شبكة قنوات ري ، الاقتراب من حالة نهائية . كتلميح الى أن الطبيعة والتكنولوجيا زوّدتاه بالأفكار اللازمة لتطور نماذج وأدوات اجتماعية .

من « الحالة الأخيرة » الى « نزعة الابادة » :

حول بعض العبارات المجازية المربية المستخدمة في تشخيص القرن العشرين

الفصل الثالث

آ ـ حوار الأرواح أو الأشباح

فيما كان كورنو مايزاك على قيد الحياة ، قام نيتشه ـ أحد أرباب كتابات مابعد الحداثة الأخيرة(١) ـ بكتابة تشخيصه لـ «العلة التاريخية» التي ابتُلي بها عصره(٢) . كابوس عتيق على شكل معرفة بلا معنى ، نسبية ، بُنى وهمية لمعنى ، حواجز مصطنعة أمام الحضور المعاصر للعبقرية من الماضي ـ هذه كلها قابعة كحَجَر الرَّحى على الحيوية الفردية وتهدد بأن تكون «بالغة الأذى ومميتة آخر المطاف للوجود الحي» . «فالناس التاريخيون» بنظر

١ـ جاء الدليل الواضح على ذلك في الرد الأول الذي أطلقه يورغن هابرماس بعد تعرضه لهجوم رواد مابعد الحداثة الفرنسيين (خصوصاً في كتاب ليوتار بعنوان «حالة ما بعد الحداثة» : The Postmodern Condition ، مينيابوليس ، ١٩٨٤) على أنه أستاذ كبير من المدرسة الهيغلية . كان الرد عَرْضاً مفعماً بالشجب لمؤلفات نيتشه طُبع للمرة الأولى تحت عنوان «الدخول الى مابعد الحداثة» ، (ميركور ٤٢١/١٩٨٣) حيث تحاشى مؤقتاً مجابهة خصومه مجابهة مباشرة . وفي تحليل نقدي لهذا النص ، قام رولف غونتر ، بعد ذلك ، بتطوير نموذجه التأويلي لـ «كوكبة مابعد حداثية» محددة جمالياً لا تاريخياً استخدمها لغزو التاريخ الفكري للأزمان الحديثة Die Postmoderne Konstellation ، فرايبوغ ١٩٨٨ .

٢ـ فريدريك نيتشه «حول فوائد التاريخ ومضاره بالنسبة للحياة» (١٨٧٣ ـ ١٨٧٤) ، في كتاب «تأملات في غير زمانها» ، كامبرج ١٩٨٣ .

نيتشه ، مرتبطون بسيرورة تاريخية تقودهم إلى الايمان بسعادة مقبلة هم محرومون منها في الزمن الحاضر ، فكانت «الغريزة القوية» تنهار لدى ظهور الضرورة الداعية الى النسيان أو التذكر : «فاللاتاريخي والتاريخي ضروريان ضرورة متساوية لعافية أي فرد ، لصحة أي شعب ، ولسلامة أية ثقافة» .

«ولكن لابد للعالم من أن ينهض ، وتلك الحالة المثالية سوف لن يتم خلقها بالحلم ، لابد من النضال والكفاح في سبيلها ، والطريق المفضي الى الخلاص من تلك الجدية اليومية لا يكمن إلا في عوالم الفرح(٣) . سيأتي الزمن الذي سيجعل المرء يتصف بحصافة العزوف عن سائر بُنى السيرورة العالمية بل وعن تاريخ الانسان ؛ الزمن الذي سيبادر فيه المرء الى النظر لا الى الجماهير بل إلى الأفراد الذين يشكلون نوعاً من الجسر عبر النهر الصاخب للصيرورة . وهؤلاء الأفراد لا يدفعون الى الأمام أي نوع من السيرورة بل يعيشون حياة عصرية ومعاصرة بعضهم مع البعض الآخر ؛ شكراً للتاريخ الذي يتيح مثل هذا التجمع ! إنهم يعيشون كجمهورية العبقرية تلك التي تحدث عنها شوبنهاور ذات مرة ، عملاق ينادي آخر عبر فترات صحراوية من الزمن ، دون أن تكتشفهما الأقزام المثرثرة المذهولة الزاحفة تحت أقدامهما ، حيث يستمر حوار الأرواح الرفيع . من واجبات التاريخ أن يقوم بدور الوسيط بينهما ويلهم مرة بعد أخرى مانحاً القوة المؤهلة لانتاج الانسان العظيم .

لا ، لا يمكن لهدف الانسانية أن يكون كامناً في نهايتها ، بل هو كامن في أسمى نماذجها فقط(٤)» .

٣ـ تلميح إلى ملاحظة هيغل حول أن بومة مينرفا (التي تجسد فلسفة التاريخ) لم تكن تحلّق إلا مع حلول الغسق .

٤ـ نيتشه ، المصدر السابق .

ظلت مـثل هذه الأسطر ، بتَـوقـهـا الى الحـيـاة وتأليـهـهـا للتـمـاهي المنطوي على العبقرية ، حافـزاً قوياً لأوهام العظمة المدغدغة لأحلام الجيل الأكثر شباباً من الطبقة الوسطى المتعلمة . كان هؤلاء يجدون معنى التاريخ في التجربة الحالية ويجعلون الآمال المؤجلة في المستقبل مثيرة للسخرية مثلها مثل الحاجز التاريخي النقدي أمام التواصل مع أشياء موروثة من الماضي . وبصرف النظر عن التوظيف السياسي لنيتشه أو نبذه وادانته في القرن العشرين ، فإن طرحه للذاتية والعظمة والمباشرة ضَمِنَ له أن يبقى مُبْهِراً لدى انهيار التماهي مع جملة الأطر الفلسفية التاريخية العظيمة في مواجهة الواقع .

في طبعة القـرن التاسع عشر للنزعـة التاريخية كان الحنين الى التقدم قد شكل نقيضاً لمفهوم أحقاب تاريخية متكشفة بصورة متتابعة وصولاً الى تطور تراكمي(٥) وحيد ، ولكن أوزفالد شبنغلر هو الذي كـان قد قام ، قـبيل الحرب العالمية الأولى بالتنظير لما سيشكل القطيعة الأشد بروزاً والأعلى صدى في الاستمرارية الصاعدة لفلسفة التاريخ في عصر التنوير . إن نَشْر الجزء الأول من كتابه «انحطاط الغرب» ضَمِنَ للكتاب ، ولو من خلال سوء فهم واعد ، أن يحتل صدر قائمة مبيعات الكتب .(٦) انخرط شبنغلر ، ضارباً عرض الحائط بالمنظور القائم على المركزية الأوربية للصعود التاريخي ، في دراسة مقارنة لمسار الثقافات المتقدمة ، وانتهى الى تشخيص يقول

٥- كارل هينريشس ،«رانكه وكيشيشتس ثيولوجي دير غوتس تسايت»غوتينجن١٩٧٤

٦- اوزفالد شبنغلر ، دير أونترغانغ ديس آبندلاندس» ، جزءان ، ميونيخ ١٩٧٣ ؛ عن النواحي التي نوقشت هنا انظر أيضاً كتاب ديتليف فيلكن : «أوزفالد شبنغلر : مفكر محافظ بين القيصرية والدكتاتورية» ، ميونيخ ١٩٨٨ ؛ ومقال جاك بوفريس بعنوان : شبنغلرس راخه» في كتاب بيتر سلوترديك : «كريتيك دير زينيشن فيرنوفت» ، فرانكفورت / ماين ١٩٨٧ .

بانتهاء المدنية العربية وزوالها . حتى بالنسبة للقراء المعاصرين ميلي التذوق للشحنة الايديولوجية المحافظة الكامنة في نقد شبنغلر(٧) ، باتت نظريته القائمة على الدورات الثقافية سبيلاً للتحرر من قبضة النزعة التاريخية والفلسفة التطورية للتاريخ ، التي قام شبنغلر بقطع «دودتها الشريطية» بقَدْرٍ استثنائي من التصميم والعزم «في سبيل ادراك جملة الأجزاء المنفردة بوصفها كيانات كلية مغلقة(٨) . وهكذا فإن النظرة العامة للتاريخ باتت ، لا بالنسبة للمختصين بمقدار ماهو بالنسبة لاهتمام الجمهور قصير الأمد بالموضوع ، تتركز على الأشكال الطبيعية لعمليتي الازدهار والتلاشي أو الموت . ومن هنا فإن التاريخ أصبح مفتوحاً على أبواب انتقائية من شأنها ، نظراً لوجود الاهتمامات الذاتية القائمة على الملاحظة ، أن تختزل تسلسله المتعاقب وتقتطع الأشكال التطورية للثقافات . وبهذه الطريقة غدا حوار نيتشه بين عبقريات عابرة للتاريخ مدعماً بملاحظة منفصلة للقيود الثقافية المُعَيَّنَة المفروضة على تلك العبقريات ، التي كان مدى تعقيدها يتطلب ، بالطبع ، طرح جملة استثنائية من وجهات النظر المرشحة لأن يعتبرها التاريخ ذات مصداقية .

إن دعوة نيتشه الى حوار أرواح عبر الزمن أو خارجه والتاريخ العالمي النباتي لدى شبنغلر أصبحا أقل ندرة بصورة مضطردة نتيجة الاتصالات الجماهيرية وامكانية إعادة انتاج سائر التقاليد الثقافية . وهكذا فإن تركيز التاريخ قد تحول عما حدث في زمن معين ، وعن إعادة بناء نسق تطوري

٧ـ انظر مثلاً مقال تيودور أدورنو بعنوان «شنبغلر بعد الانحطاط» (١٩٣٨) في بريزمز ، كامبرج ، ماسو ، ١٩٨١ ، الذي يلقي بظلاله على بعض الأفكار التي يطورها لاحقاً في نقده الديالكتيكي للتنوير . «يرى شبنغلر شيئاً في الطابع الثنائي للتنوير في عصر السيطرة الشاملة .» ص : ٥٧ .

٨ـ زايدل ، ص : ١٩٩ .

شامل ، الى خزانٍ لما كان موجوداً ذات يوم هو في متناول اليد بصورة عشوائية . وبالتالي فإن الفرد بات متغرباً عن الجذور في التراث وعن الارتباطات التي أقامتها فلسفة التاريخ ، وقد تغضنا كلاهما ، وتجمدا في روايات كبيرة (أو جليلة) ، بلا أية قوة ملزمة(٩) . لم يكن انتصاب آلة الزمن التي تلغي المسافات الزمانية منها والمكانية على حد سواء ، انتصاباً شامخاً في أدب الخيال العلمي(١٠) مع بداية القرن العشرين ، بلا سبب وجيه .

٩ـ قطع بيتر سلوترديك الشوط الأبعد في تبني هذا التقليد النظري من جديد : «يتكشف التاريخ الجليل لما هو قديم عن أنه ليس إلا استراتيجية تطورية عاجزة عن الظهور في حال بقائها فعالة : إنها خرافة تنويم مغناطيسي نشطة .واليوم تم البوح بهذا السر وصار يستخدم ليمارس تأثيره . لم يكن التاريخ إلا قصة خيالية عن القوة الفظة للواقع ، قصة ظلت مفيدة طوال بقاء امكانية استخدام جماعاتها المستهدفة كي تصبح ذواتاً لفعل القصة الخيالية وتنسج سيرها الشخصية في سفر للتاريخ» من كتاب «التعبئة الكوبرنيكية ونزع السلاح البطليموسي : محاولة جمالية» فرانكفورت ١٩٨٧ ؛ وفي كتاب «ضياع التاريخ» (غوتينجن ١٩٥٩) كان الفريد هويس قد حلل الانقطاع بين جهاز قائم لاعادة بناء الماضي وبين القطع في الانسجام العام للمعنى والهوية الكامن في فهم التاريخ ـ أو ، حسب عبارته هو ، بين التاريخ كعلم وكذاكرة . إن هويس نفسه شعر بالأسى ازاء تعرض جهاز المعرفة التاريخية لفقدان الأهمية ، في حين أن الأمرحظي بقدر غير قليل من التهليل في السنوات الأخيرة لدى المؤرخين باعتباره تحريراً من الخوف من الكارثة ، ومن التوق الى المعنى عند الجمهور . (انظر مثلاً ف .ج . ماير «بومة مينيرفا : الزمن الأخير والتاريخ» في نوي زورخر زايتونغ ، ١٩٨٥/٤/٥) . ثمة آخرون مثل ميكائيل شتومر يرون في هذا الانقطاع فراغاً يحيلنا الى تركيب صور جديدة قومية في هذه الحالة عن التاريخ بوصفه معنى بديلاً دعائياً .

١٠ـ هـ .ج . ويلز ، «آلة الزمن» ، لندن ١٨٩٥ ؛ ميشال ساليفسكي : «روح العصر وآلة الزمن : الخيال العلمي والتاريخ» ، ميونيخ ١٩٨٦ .

يتميز القرن العشرون بواقع أن الفهم المجرد ، أحادي الخط للزمن ، هذا الفهم الذي طبع العلوم الانسانية بطابعه في القرن الثامن عشر ، مثله مثل التصور التاريخي للطبيعة في القرن التاسع عشر ، قد دخل في صلب الحياة اليومية للمجتمع واستثار أكثر فأكثر عمليات البحث عن مخارج أو مهارب فردية من نظامه ذي الخط الأحادي(١١) . وفي نوع من التقهقر الى فكرة الثقافات اللاتاريخية ، فإن من شأن هذا الأمر أن يحدث في الأوهام المترتبة على تعاطي المخدرات أو من خلال قوة الوسائل الالكترونية القادرة على تخزين واستحضار الميراث الثقافي خارج قيود الزمان والمكان .

طوال نصف قرن من الزمن ، كرس ايرنست يونغر حياته على مثل هذه المهارب من الزمن وكتب عنها مقالات في المجلات ودراسات وروايات تتحدث بضمير المتكلم(١٢) . والمؤلَّف الأخير في هذه السلسلة هو عن فك الارتباط مع الزمن والانحطاط الثقافي وماتزال الرواية «مابعد التاريخية» الأكثر تطوراً بين سائر مثيلاتها التي يمكن أن تُقرأ اليوم . ففي رواية يومزفيل Eumeswil وهي مَسْرَحة تكنولوجية عالية لنيتشه ملأى بالاقتباسات ـ يبني المؤلف عيناً مابعد تاريخية لقصته عن «فوضوي» من عرق سيد في «مجتمع فلاحي» . ولدى التقصي تقصياً أكثر بروداً ،

١١ـ وكما في «اكتشاف الزمن» ، لندن ١٩٦٥ لستيفن تولميث وجون غودفيلد ، وفي «تدمير الزمن» ، فرانكفورت ١٩٨٤ ، لهانس فيلي هوهن ، انظركتاب ، «الزمن والثقافة ، تاريخ وعي الزمن في أوربا» الطبعة الثالثة ، أو بلادن ١٩٨٥ لردودولف وبندورف ؛ حول نيتشه وحول تناقضات وعي الزمن المعاصر ، وكتاب : «الزمن الخاص» فرانكفورت ١٩٨٩ لهيلغا نوفوتني .

١٢ـ رواية «عند جدار الزمن» ، شتوتغارت ١٩٥٩ مع روايات أخرى مختلفة بما فيها «نظرة خلفية إلى احدى المدن» ، «على الصخور الرخامية» (١٩٤٩ و ١٩٨٥ على التوالي) للكاتب الروائي ايرنست يونغر .

بالطبع ، نكتشف أن كل الذي يحدث هو أن أحد عملاء أحد الأنظمة الدكتاتورية يعلن نفسه باروناً بموجب فَرَمان صادر عن ارادة ذاتية ، وتسارع آلة أسطورية إلى اسعافه باعظم أرواح سائر العصور ليعقد معها حواراً خارج الزمن . يطلق الراوي على نفسه اسم المؤرخ وهو منهمك في البحث ، بعيداً عن أي اهتمام معرفي ، مستعيناً بجرم سماوي مضيء Luminar ، هو خليط بين آلة الزمن وقاعدة معلومات فيديو شاملة عن كل ما خلفه التاريخ ، يمكن استحضاره فورياً في أي من الأوقات حسب الموضوع والحالة أو الموقف(١٣) .

قد يقع المرء في المبالغة بالاستخفاف بهذه الرواية اذا ما اكتفى بتبيان واقع أن يونغر قد استمد فكرة بطله مع فكرة البنية المعرفية لجرمه السماوي المضيء من كتاب انحطاط الغرب لشبنغلر(١٤) . لعل المناشدة مابعد الحداثية في تصوره كامنة في المدى الفِصامي (الشيزوفريني) لهذا التصور . فالانشغال النموذجي بـ «مابعد التاريخ» هو انشغال المؤرخ الذي يلعب بالمعرفة الشاملة لكل ما حدث من قبل ، من جهة ، ويمارس ، من الجهة الأخرى ، ملاحظة المشارك بوصفه نادلاً ليلياً يتجسس على عاهل إحدى المدن الصغيرة . من قلب التماثل الخطر ، من قلب الأحداث اليومية ، والخوف من «مجتمع الفلاحين»(١٥) ينهض الفرد القائم على المساومة ليرتقي الى

١٣ـ رواية «يومزفيك» ، شتوتغارت ١٩٧٨ ، ايرنست يونغر .

١٤ـ كانت صورة يونغر عن التاريخ مأخوذة من شبنغل في مضمونها الأساسي وتوجهها السياسي . ففي ١٩٣٢ أهدى تفسيره الهيغلي اليميني لمجتمع الجماهير «العامل» «إلى أوزفالد شنبغلر الذي اجترح الأسلحة الجديدة الأولى بعد نزع سلاح المانيا» مقتبسة من فيلكن ، ص : ١١٤ .

١٥ـ هذه هي صورة شبنغلر البيانية عن الثقافة اللاتاريخية للمدن العالمية : «دير اونترغانغ ديس آبندلاندس» ، الجزء الثاني ، ص : ٧٧٩ .

مستوى الوعي العدمي بأنه قادر على القتل عند الضرورة والى مستوى وجوده الخيالي كـ «فوضوي» . إننا ازاء ملك بدون مملكة ، ملك يتجرد من الأخلاق بدون أن يضطلع بأية مسؤولية ـ صورة ذاتية للعظمة ، تم اكتسابها عن طريق الاقتراح الذاتي ، وهي تمكّن صاحبها من عقد الحوار مع الأرواح . وبعد أن تكون الحركة الاجتماعية ذات المعنى قد توقفت ، أو ما عادت قابلة للادراك على الأقل ، فإن الثقافة ما بعد التاريخية تلعب بالتاريخ باعتباره ترسانة تقنية لسلسلة دائمة التوفر من البدائل والنظائر . إذا كانت الاشارة الى المجتمع عاجزة عن أن تحمل أي ظل لمعنى ما ، فإن الفرد حر في الاستغناء عن هذا المجتمع كما يتعرض للالقاء به ثانية في بحر وجوده المستمر الخاص . وهنا يوصي يونغر بموهبته البيوغرافية الخاصة كعسكري وكعضو في الطبقات المتعلمة ، بسبب الكفاية الذاتية التي توفر تلك الموهبة .

وهكذا فان يونغر يلخص ، بطريقة برجوازية نخبوية متميزة ، جملة معينة من المشكلات الأساسية لثقافة مابعد الحداثة ، وهي جملة المشكلات التي تشي بها نزعة المحافظة الجديدة أيضاً بصورة جزئية(١٦) ، ولكن اختزالها اليها يبقى متعذراً . وتلك الثقافة بدأت حقاً في أمريكا الخمسينيات بثورة ضد مدرسة الفن لأجل الفن النخبوية لدى الطليعة الأدبية ، بوصفها التجسيد الحي للحداثة الواجبة معارضته ، مثلاً ، بالتنوع الواسع والكبير لثقافة البوب (الثقافة الشعبية POP Culture) . ومنذ الستينيات اتسم هذا التحول ضد جمود وأحادية التراث الأوربي الحديث ، ليشمل قطاعات ثقافية أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية . واكتسبت

١٦ـ انظر بيتر كوسلوفسكي وآخرين (ناشرين) : مودرن اودربوستمودرن ؟» فاينهايم ١٩٨٦ ، وتقرير كوسلوفسكي المقدم إلى مكتب مستشار المانيا الغربية بعنوان : «ثقافة مابعد الحداثة» ، ميونيخ ١٩٨٧ .

المعارضة العامة لما هو معروف هناك باسم الأسلوب الأممي ، ذلك الأسلوب المستنبط من تراث مهاجري باوهاوس ، وصولاً الى النزعة الوظيفية والى الأخلاق الاونطولوجية القائمة على «انصاف المادة» في هندسة العمارة ، شهرة استثنائية . أدى الأمر الى تأليه أشكال التقدم في الشكل . وهو ما هدد ، بالتحالف مع الثقافة الرأسمالية وصناعات الانشاءات ، بأن يفضي الى تجميد الثقافة وتجريدها من زُبْدتِها ، والى التأبيد البديل للاستخدام الشعبي لجملة الامكانيات التقنية والاقتباس من أشكال تاريخية سابقة كاسلوب لنفخ روح جديدة .(١٧)

وفيما بعد التقط تيار فلسفي فرنسي من عقد السبعينيات هذا الدافع . وكان ذلك التيار هو التيار الذي طور نقداً لفكرة التقدم الاجتماعي ذاتية الأساس ، وأكد على الطابع التاريخي لمقدماتها الابستمولوجية (المعرفية) . ففي أعقاب تصفية الستالينية وأحداث أيار ١٩٦٨ - حين ابتعد المثقفون الفرنسيون عن الحزب الشيوعي الذي كانوا متعاطفين معه الى حد كبير خلال فترة ما بعد الحرب - فَقَدَتْ فلسفة التاريخ المنبثقة من ماركس وهيغل هيمنتها أخيراً ، وشُجبت هذه الفلسفة على مزاعمها بوصفها لعبة لغوية متسلطة ابتكرها عدد من كبار المفكرين(١٨) .

١٧- يمكن العثور على مجموعة غنية من المقالات عن تاريخ ما بعد الحداثة في كتاب «مابعد الحداثة : علامة تحول ثقافي» . راينبيك ١٩٨٦ لمحرريه أندرياس هولسين وكلاوس ر . شيربه . وعن المظهر الآسر للعيون لهندسة مابعد الحداثة المعمارية انظر كتاب : لغة هندسة مابعد الحداثة ، لندن ١٩٦٤ ، لمؤلفه تشارلز جينكس ، و «الحداثة ومابعد الحداثة : هندسة الحاضر» ١٩٦٠ - ١٩٨٠ فسبادن ١٩٨٤ ، لمؤلفه هاينريش كلوتز ، «رؤى مما بعد الحداثة» نيويورك ١٩٨٥ ، تحرير هاينريش كلوتز أيضاً .

١٨- توفر مجموعتا المقابلات الألمانية مقدمة لما بعد البنيويين الفرنسيين : بيتر انجلمان (محرراً) فيلوسوفين ، غراز - فينا١٩٨٥ ، فلورين روتزر ، «فرانسوزيشه ـــ

انطوت هذه النزعات بالدرجة الأولى ، على الصعيد السياسي ، على نوع من إعادة التجميع داخل اليسار ؛ عدد قليل فقط من الكتاب قلبوا الصفحة بحماس المرتدين . وهذه النزعات مابعد الحداثية ، لم تبدأ ، إلا في وقت متاخر تاخراً معقولاً ، بالتأثير على الثقافة في الجمهورية الاتحادية ، حيث تزامنت مع «التحول» المقلد نحو النزعة المحافظة الجديدة الأنجلو-أمريكية ومع التنظيم السياسي للمشاهد البديلة . وأدى هذا الى وقوع السلطات الثقافية والفكرية لليسار الراسخ في خطأ تفسير مثل هذه النزعات بوصفها القناع الثقافي واليافطة الثقافية لموجة جديدة من المحافظة السياسية والمحورية والمبادرة بالتالي الى شن حرب ضروس ضدها . وبالفعل فان من الممكن فهم رد فعل هذه السلطات على أنها تعبير عن خيبة أولئك الذين كانوا ، في عقود ما بعد الحرب ، قد دعوا إلى اعادة اكتشاف وإعادة استيراد الجزء التقدمي من الثقافة الألمانية ، ذلك الجزء الذي كبته النازيون وطردوه ، والذي شكل الخميرة الأساسية لثقافة الحداثة على الصعيد الدولي .(١٩)

ـ فيلوسوفن اوند كيشبريش» ميونيخ ١٩٨٦ . انظر أيضاً تحليلات نصية في كتاب بورغ التويغ وأورير شميث : «فرانسو زيشه دنكن دير كيكن فارت» ، ميونيخ ١٩٨٧ ، والاستعراض الشامل لغونتر شيفي بعنوان : «بوستستر اكتوراليزموس اند نوي فيلو سوفن» ، راينبيك ١٩٨٥ . كان كتاب «دي ماستر ثينكرز» (نيويورك ١٩٨٠) لاندريه غلوكسمان أحد المؤلفات المؤثرة في هذه الفترة . أما كتاب لوك فيري والين رينو «الفلسفة الفرنسية في الستينيات مقالة عن معاداة النزعة الانسانية» . (ماسو ١٩٩٠) فيوجه نقداً حاداً الى استقبال الفلسفة الألمانية من قبل رواد الفكر الجديد الذين قامت مؤلفاتهم بتشكيل اللوحة حوالي ١٩٦٨ .

(١٩) انظر يورغن هابرماس ، الفوضى الجديدة ، فرانكفورت ، ١٩٨٥ ، خطاب الحداثة الفلسفي ، كامبرج ١٩٨٧ ؛ ثمة موقف مماثل في حقل الدراسات التاريخية لدى هانس اورليخ فيهلر «بروسيا عادت موضة رائجة...» ، فرانكفورت ١٩٨٣ ؛ أما ما هو أقل ـ

غير أن المشكلات الفعلية لثقافة مابعد الحداثة يتعذر اقحامها في إطار العلاقة بين اليمين واليسار ، كما لا يمكن تفسيرها جزئياً إلا عبر نوع من التغيرات القومية المذكورة هنا . ويستحيل أيضاً تجنب مثل هذه المشكلات عبر نوع بسيط من إعادة تأكيد المُثُل الموروثة لآداب الحداثة وهندساتها المعمارية ، أو الفرضيات الأساسية للمدرسة الهيغلية في فلسفة التاريخ ، وخصوصاً لأن هذه تبدو بأكثريتها منحدرة الى نوع من التعقيم الجمالي أو الفلسفي ضد بُنى مصلحية مشوهة منهجياً في صلب المجتمع الصناعي . ونرى ، بالأحرى ، أن المشكلات كامنة في الطبيعة التعسفية للبدائل التي تغدو ، جراء التقنية ذات التوجه الاستهلاكي للحوار النخبوي بين الأرواح ، مَخْزَنَ خدمة ذاتية في السوق الثقافية لمجتمع الجمهور . تقوم الوسائل الحديثة بالغاء المسافات المكانية والزمانية بين الثقافات وتنزع الى فرض استحالة التمييز بين المقتبسات الموروثة ، الواقع المعاش ، والخيال . فهذه الوسائل ، حين تكثّف من ضغطها على الأفراد لاكتشاف ما ينطوون عليه من معان ، إنما تحفز آليات الدفاع عن احترامهم لذواتهم ضد طوفان التعسف المباشر ، بما يفضي الى المزيد من تشويش مستويي الخيال والواقع . إن التناظر مابعد التاريخي الذي يعقده يونغر بين الوجود كعميل من جهة وبين الخيال أو الوهم كبارون من جهة ثانية ، ليس إذن إلا مثالاً واحداً بين العديد من الأمثلة - مثالاً يبين ، في جمعه بين احتقار الجماهير والهيام المرضي بالعظمة ، أيضاً ما خلفته الثقافة البرجوازية لحقبة ما بعد الحداثة لدى المجتمع البرجوازي نفسه .

- مرجعية وغنى بالمعلومات ، ولكنه مشحون بقدر كبير من الحرارة فنجده متمثلاً بكتاب : «مابعد الحداثة : استراتيجية النسيان» دار مشتادت ١٩٨٦ ، لمؤلفه بورغهارت شميدت . ثمة نقاش واسع النطاق لما تنطوي عليه التغيرات الاجتماعية في كتاب : - «الحداثة : الاستمراريات والانقطاعات» ، لجوهانس بيرغر (محرراً) (سوزيال فيلت ، عدد خاص ، ٤) غوتنجن ١٩٨٦ .

وعند هذا المنعطف ثمة أمر أو اثنان نجدهما في مؤلفات السوسيولوجي والمختص بالعلوم الجرمانية الفرنسي جان بودريار Jean Baudrillard ، وهو مثقف شيوعي سابق ومترجم لمؤلفات ماركس وبريخت وفايس أصبح بعد ١٩٦٨ عالم سيميولوجيا من مدرسة البنيوي العضو في الحزب الشيوعي الفرنسي التوسير ، وظل منذ أواسط السبعينيات نشيطاً ككاتب مقالات حول المشهد الأدبي البديل(٢٠) . يكتب بودريار بلغة متداعية عن فيض متدفق من الصور ، أو النظائر الشبيهة ، كما يقول هو ، حيث يتم وصف المجتمع والتاريخ بصفات مجازية مادية تستمد نسغ حياتها من المصداقية المجردة . سنعاين بقَدْر أكبر من التفصيل ، فيما بعد ، مغزى التشبيهات المأخوذة من العلوم الطبيعية والتكنولوجيا . غير أن علينا أن نشير هنا إلى أن الوقائع لا يمكن ادراكها على مايبدو ، بالنسبة لبودريار ، إلا في صيغ مادية من الحدس ، تتجدد فيها المعلومات عن المجتمع المحصلة بالتجربة اليومية بعد ذلك على شكل اقتباسات . ففي ذيل راديكالي لنقد وسائل الاعلام الأمريكية(٢١) ، يقول بودريار إن الواقع الاجتماعي «ومحاكاته الزائفة» في وسائل الاعلام لم يعد يمكن تمييز أحدهما عن الأخرى من منطلق حقيقتيهما : و «الواقعية المفرطة» المنقولة عبر وسائل الاعلام تظلّل التجربة الأولية كلها وتلغي قدرتها على ممارسة دورها كرقيب أو ضابط .

٢٠ـ إن كتاب بودريار الأساس هو «التبادل الرمزي والموت» ، باريس ١٩٧٦ انظر أيضاً مجموعتي «انتقام البلور» و «استراتيجيات قاتلة» ، لندن ١٩٩٠ ، وانطباعات رحلة بعنوان : «امريكا» ، لندن ١٩٨٩ .

٢١ـ انظر مارشال ماك لوهان وكونتين فوار ، «الوسيلة هي الرسالة» ، نيويورك ١٩٨٧ ؛ ثمة تقويم حديث في : «الاختفاء التدريجي للواقع ، الطبعة الثانية ، ميونيخ ١٩٨٥ ، تأليف هارتموت ف . هينتيغ .

لا يتكهن بودريار في «لقد حل عام ٢٠٠٠ وانتهى[٢٢]» ، وهذا نص يسخر من برنامج التحديث التكنولوجي للحكومة الاشتراكية في فرنسا ، بالانهيار المادي للعالم في المستقبل القريب ، بل ، بالأحرى ، بالخلخلة الاجتماعية لـ «التاريخ» وبالتالي ، بامكانية التعرف على فترة مقبلة من الزمن أو تمييزها . فعملية «الخروج من التاريخ» ليست نهاية بل رتابة أبدية ، وليس ما يقدمه «لحظة لليأس على الاطلاق» ، بل ، بالأحرى ، فرصة لذلك الفرح الذي سبق لنيتشه أن امتدحه وأطراه بوصفه الطريق المفضي الى الخلاص . فمن شان اليأس أن يفترض مسبقاً نوعاً معيناً من التناغم التاريخي للمعنى أو نوعاً من الهدف الذي قد يتعذر بلوغه ـ ولكن فرسان مابعد البنيوية يسعون ، تحديداً ، الى حلحلة مثل هذه التحديدات المحتومة للمعاني التي تتجلى في الروايات الخرقاء لكبار مفكري فلسفة التاريخ[٢٣] .

يرد هذا التعسف «مابعد التاريخي» في مقال بودريار في معرض التحول المتبادل للكلمات الملغزة الاجتماعية ـ الفلسفية من جهة والتكنيكية ـ العلمية من الجهة الثانية ، في نوع من «الحرب بالكلمات في الزمن الخارجي» . أما خلخلة التاريخ فمستمدة من ثلاثة «تشبيهات» (analogies) هي :

١ ـ إن عمليات التبادل التي تشكل أساس التحرر الاقتصادي والسياسي والجنسي قد اتسعت وتسارعت حتى باتت تشبه قمراً اصطناعياً صار قادراً على «الطيران الحر» بعيداً عن مداره ومتحرراً من الواقع والمعنى والتاريخ ، متشظياً الى جزيئات منفصلة .

٢٢ـ ظهرت طبعة انجليزية بعنوان «عام ٢٠٠٠ حل وانتهى ، في كتاب «كتل غازية : الغريزة الجنسية وحال مابعد الحداثة ، لندن ١٩٨٨ لكل من أ . و م . كروكر .

٢٣ـ انظر ليوتار أو جاك دريدا «عن لحن رؤيوي تم تبنيه حديثاً في الفلسفة» ، في سيميا ٢٣ (١٩٨٢) .

٢ ـ أما الاتجاه المعاكس المتمثل بالركود فصحيح عن «الكتلة أو الجمهور العريض» (The mass) . فعلى سطح الأجسام الكثيفة يتوقف الزمن . ثمة «كتلة عاطلة» نشأت عن التكثف المفرط لسيرورات الدوران الاجتماعية ـ إنها كتلة بلا معنى تقوم ، بوصفها من «مخلفات التاريخ» أو «طاقة معكوسة» ، بابتلاع أية استراتيجية تتطلع الى ما بعدها . «وعملية التحول الى كتلة» بالتالي هي عملية غير قابلة للارتداد ، عملية ترمز الى نوع من «تباطؤ التاريخ لدى ملامسته لجرم» الأكثرية الصامتة الوهمي»(٢٤) .

٣ـ أخيراً ، في سيرورة شبيهة بسيرورة اختفاء صوت الموسيقا لدى الاتمام المفرط لمنظومة رباعية الأصوات ، يصل التاريخ الى «نقطة زوال أو تلاشي» جراء التخمة بالمعلومات عن الأحداث التي تكون بالغة الكثرة وبالغة القُرْب ، ومن خلال تفكك الروابط الاجتماعية الداخلية في البحوث التحليلية الدقيقة (microanalytic research) فكل حدث يغوص «مع مصاحبة موسيقية» في الخزان اللازماني للأعداد اللانهائية من الأحداث ، في عملية تكاثر للذاكرة بلا تجربة .

وقبل أن ينهار المرجع نفسه فيغرق في نوبات الهذيان الناجمة عن هذه الألحان المرتجلة المجازية ، يحسن به أن ينتشل ذاته منها . غير أنه يحس ، بدلاً من ذلك ، بأنه مضطر لأن يقدم تقريراً عن قطعة صغيرة من الحنين الماضوي ، من النوستالجيا ، خارجاً من التطورات الاضافية الحاصلة في هذا الاتجاه : كان أيار ٦٨ حدثاً من هذا النوع : حدثاً مضحكاً ، غريباً ، وغير تاريخي في الجوهر ، غير أنه ، بقوته القائمة على انعدام المعنى ، كان أثراً

٢٤ـ «عام ٢٠٠٠...» في كتاب «في ظل الأكثريات الصامتة» ، نيويورك ١٩٨٣ ، تاليف ج . دريدا .

خالصاً لنوع مفاجئ من التبلور (٢٥) بلا أية عواقب ذات شأن أو جديرة بالملاحظة (اذا استثنينا عملية التباطؤ التي انطوى عليها الحدث بالنسبة للاشتراكية) . ولكن الأمر ، بقضه وقضيضه ، كان انعطافاً حاداً للأحداث ، انعطافاً تم في الوقت المناسب ، بلونية خاصة من الإيقاع(٢٦) .

ب ـ الآلة العملاقة

في بداية الحقبة البرجوازية كانت الأخطار التي ينطوي عليها مَثَلُها الأعلى للعظمة قد استُحْضِرت في كل من فاوست وفرانكنشتاين . ففي المانيا كانت الثورة الصناعية ماتزال بعيدة حوالي عام ١٨٠٠ وبالتالي فان العبقرية المنتجة للذهب والانسان في فاوست كان من الممكن انقاذها مع الزمن . أما في انجلترا فان المقدمات المادية للديناميكة المستقبلية للمجتمع البرجوازي كانت قد تحققت وترسخت . هنا لانجد القزم في أنبوب الاختبار ، بل ، بالأحرى ، نجد قيام جوهر الابداع الانساني ، في فرانكنشتاين ، بانجاب غول يتحرر من خالقه ويهدد بتطوير قوة فوق انسانية خبيثة .(٢٧)

٢٥ـ إنه تعبير غيهلن المفضل للدلالة على تحدد وتكلس بُنى أساسية ـ الأمر الذي يمكن وصفه أيضاً بـ «اضفاء الصفة العقلية» طالما أنه يتم عن طريق الذكاء . أما لدى كتاب سابقين مثل بنيامين فان مقدمة المسرح احتلتها الناحية الايجابية للانتاج الموروفولوجي داخل مسار ضيق .

٢٦ـ «عام ٢٠٠٠...» موازنة بودريار المتزامنة لماضيه في الحزب الشيوعي الفرنسي وفي ١٩٦٨ تكملها معلومات مثيرة وردت في «خداع المحاكاة» ميركور ٤٠ (١٩٨٦) . للوتار باير .

٢٧ـ زد على ذلك أن الصورة المتقدمة هي صورة امرأة : ماري فولستونكرافت شيلي ـ

وبعد مئة سنة لحقت ألمانيا بالركب وغدت الدولة الصناعية الأكثر ديناميكية في اوربا . وفي هذه الفترة تقريباً تكلم ماكس فيبر ـ الكاتب الكلاسيكي الذي يشير إليه أشد المؤلفين اختلافاً ـ بلغة العلم الاجتماعي والسياسة الليبرالية عن التناقضات بين الشخصية وبين النزعات في المجتمع الحديث . أخذ من نيتشه عبادة العظماء الأفراد الذين كانت قيمهم ، انتاجيتهم ، وسلطتهم الظواهر الابداعية الحقيقية الوحيدة في التاريخ ، وأحس بالمثل ملزماً بانتاج عمل (Oeuvre) على درجة مسرفة من العملقة مما جعله يوشك على فقدان جزء من عقله . غير أن فيبر ، خلافاً لحال نيتشه ، أصبح قادراً على العودة الى العمل ، وعلى الخضوع لقواعد العالم الأكاديمي ، بل وشق طريقه الصاعد فأصبح أحد أساطين هذا العالَم الأكثر تشدداً . وعلى الرغم من شخصيته ذات الجوانب العديدة والسياسية حتى العظم ، فإن فيبر اختزل علمه الى عقلانية غائية ، التزم بممارسة الزُهد الأكاديمي فيما يخص أحكام القيم ، ونظَّر للنظام القائم على الاضطراد والتناغم . استمد مراجعه من مسار التاريخ العالمي كله وأقام بنيان هذا المسارنظرياً ، كما ركّز تركيزاً كبيراً حول «زوال سحر العالم الحديث» جراء الهيمنة القائمة على الحساب :

لذا فإن العقلنة المتزايدة لا تشي بمعرفة اضافية وعامة بالظروف التي يعيش الانسان في ظلها . إنها تعني شيئاً آخر ، تعني المعرفة أو الإيمان بأن الانسان يستطيع ، شرط أن يريد ، أن يتعلم ذلك في أي وقت . وبالتالي ليس ثمة ، مبدئياً ، أية قوة غريبة يتعذر حسابها ، تمارس أدواراً ، بل بالأحرى ، يستطيع المرء ، من حيث المبدأ ، أن يسيطر على الأشياء كلها

ـ فرانكنشتاين أم بروميثوس الحديث ، لندن ١٨١٨ . كان نفوذ هذه الصور بالغ القوة في كساد الثلاثينيات . انظر ، مثلاً كتاب موريس وورمزر عن التمركز الاقتصادي بعنوان «فرانكنشتاين ، مندمجاً» ، نيويورك ١٩٣١ .

عن طريق الحساب . وهذا يعني أن العالم ليس مسحوراً . لم يعد المرء بحاجة لأن يلوذ بأية وسائل سحرية في سبيل التحكم بالأرواح أو التماسها والتوسل إليها كما كان يفعل المتوحش الذي كانت مثل تلك القوى الغريبة موجودة بالنسبة له . إن الوسائل التقنية والحسابات تؤدي المهمة . ذلك هو ما تعنيه العقلنة قبل أي شيء آخر(٢٨) .

دافع فيبر عن هذا التحديد للعلم بحدود العقلانية المفيدة بوصفه سبيلاً للأمانة الفكرية ، بمايمنح ، من حيث المبدأ ، فرصة امتلاك الهيمنة الكاملة على الطبيعة عبر التكنولوجيا والحساب . ولكن هذا التحديد الذاتي تركز ، في الوقت نفسه ، على ابقاء المجال السياسي للقرارات والمبادئ القيمية لدى الأفراد ، متحرراً من النزعات البنيوية للعقلنة والبقرطة (اشاعة البيرقراطية) . رأى فيبر في الشخصيات العظمى القوى المحركة فعلاً والبانية للتاريخ ؛ ولا يتعين على رجل العلم بعد ذلك إلا مساعدتهم في أن يبقوا صادقين مع أنفسهم وأن يقوّموا النتائج المترتبة على افعالهم(٢٩) . فقد علّمَتْه محاولاته الرامية إلى ادراك التاريخ بوصفه إطاراً نظرياً أن يفهم العالم ، أساساً ، كصراع بين دوافع وجودية من جهة ونزعات اجتماعية من جهة ثانية(٣٠) . فمن جهة هناك جملة القوى والقيم غير القابلة للاختزال للدين والشخصية ، يشكل تدخلها في المجتمع العنصرَ

٢٨- ماكس فيبر «العلم كرسالة» في «مقالات في السوسيولوجيا» ، لندن ١٩٧٠ ص : ١٣٩ .

٢٩- يدين التفسير التالي بالعديد من نقاطه المفتاحية للمؤلَّف متعدد الوجوه لأفضل من كتب عن ماكس فيبر : «ماكس فيبر» فرانكفورت ١٩٧٤ ، وولفغانغ مومزن ، وخصوصاً فصل «الفكر التاريخي الكوني والفكر السياسي» . انظر أيضاً «آخر البشر» ملاحظات حول نقد الثقافة عند ماكس فيبر ، لديتليف بوكرت .

٣٠- فيبر ، «الاقتصاد والمجتمع» ، توبينجن ١٩٢٢ .

الابداعي الأساس . ومن جهة ثانية ثمة نزعات منطوية على عقلنة الثقافة واشاعة البيروقراطية في عملية الهيمنة الاجتماعية ، اعتبرها النزعات الحاسمة لدى العالم الحديث . وهكذا فإن فيبر قد قام بتطوير نظرة بروسية قديمة حتى العظم عن «جهازي» الدولة العسكري والمدني بوصفهما أداتين من أدوات العقلنة في الصميم :

لدى تطوره الكامل ، يندرج الجهاز البيروقراطي هو الآخر ، بمعنى محدد ، تحت مبدأ Sine ira et studio . فطبيعته المحددة ، ألتي ترحب الرأسمالية بها ، تتطور بقَدْر أكبر من الكمال كلما غدت البيروقراطية «مجردة من الانسانية» ، كلما زادت من استكمال نجاحها في تطهير العمل الرسمي من الحب ، من الكراهية ، من جميع العناصر الشخصية البحتة وغير العقلانية والعاطفية الخالصة المستعصية على الحساب . تلك هي الطبيعة المحددة للبيروقراطية ويتم إطراؤها بوصفها ميزتها الفضلى الخاصة . فكلما أصبحت الثقافة الحديثة أشد تعقيداً وأكثر تخصصاً ، صار جهازها الخارجي الداعم متطلباً للخبير «الموضوعي» بصرامة المحايد على الصعيد الشخصي ، بديلاً عن سيّد البُنى الاجتماعية الأقدم الذي كان شديد التأثر بالتعاطف الشخصي ، بالانحياز أو المحاباة ، بالشكر والعرفان بالجميل .(٣١)

عدا الطبيعة المجردة من الانسانية لمفهوم العقلانية هذا ، فان تماهيه مع جهاز مؤلَّف من البشر ، أثبت قلة جدواه لأنه عاجز عن مجابهة التوسع الهائل للأجهزة البيرقراطية في القرن العشرين بكل ماتنطوي عليه من عسف وعشوائية ، من عجز وانعدام كفاءة ، ومن استحالة إدارة أو تنظيم

٣١ـ مصدر سابق .

وفساد(٣٢) . قد يكون ذلك موضوعاً للنقاش غير أن نزعات الحداثة (٣٣) بدت ، على أية حال ، في نظر فيبر ، منطوية على ديناميكية لا تقاوَم ، وملأته بالخوف أكثر من أن توحي له بالإعجاب ، لأن ميلها لتشكيل المزيد والمزيد من البُنى الأكثر جموداً أدى الى سجن الفرد في «قفص من الفولاذ» .

> لا أحد يعرف بَعْدُ منذا الذي سيعيش في ذلك القفص في المستقبل ، وما إذا كان أنبياء جدد أو انبعاث قوى لأفكار ومُثُل عليا قديمة سينتصبون عند نهاية هذا التطور المرعب - أم - في حال غياب الاحتمالين - سيكون ثمة تحجر ممكنن ، مقنَّم بنوع مسعور أو محموم من الاعتداد بالذات . وفي تلك الحال فإن الكلمة يمكنها أن تصبح حقيقة بالنسبة لـ «الجيل الأخير» من هذا التطور الثقافي ، جيل «الخبراء» بلا روح ، جيل الشهوانيين بلا قلب . وهذه التفاهة تتوهم أنها قد ارتقت الى مستوى من الانسانية لم يسبق لأحد أن بلغه من قبل .(٣٤)

وبغية تجنب هذا التهديد بالتحجر مابعد التاريخي ، دعا فيبر خلال الحرب العالمية الأولى إلى دستور يستند الى الديمقراطية التمثيلية - بوصفها الأداة الأقوى احتمالاً لتأكيد حِنْكة الشخصيات التاريخية وحمايتها من الابتذال العقيم لسيادتها في بيرقراطيات متعاقبة . ولدى رؤيته لساسة

٣٢- للاطلاع على التحليلات النقدية من استمرار تطور البيرقراطية انظر أرنوبامه وآخرين...» ماشينن ، مينشن ، مينشن ماشينن غروندريسه اينس سوتسيالن بيزيهونغ» رايَنبيك ١٩٨٣ .

٣٣- التبعات العلمانية للطُهرية في تحديد معايير الحركة الرأسمالية ، مثلاً . انظر ماكس فيبر : «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» ، لندن ١٩٣٠ .

٣٤- فيبر ، «مجموعة مقالات حول علم اجتماع الدين» ، الجزء الأول ، توبينجن ١٩٢٠ .

فايمار المحترفين الذين كانوا مفتقرين إلى أي نوع حقيقي من «الحِنْكة» فإن فيبر تحول ، على أية حال ، وراح ينظر ، على المدى الطويل ، الى نوع من ديمقراطية الزعيم المكرَّس عن طريق الاستفتاء العام بوصفه الأسلوب الوحيد لتوجيه العنف الثوري نحو اقتحام البُنى المكبِّلة لكل من السوق والبيرقراطية بالقوة(٣٥) .

جاء تاريخ القرن العشرين ليلحم ما قام فيبر بفصله على الصعيد النظري . فلأن العلم فرض الزهد السياسي تحديداً ، يمكن لاساءة استعماله أن تنطوي على إسباغ صفة الشرعية على السياسة عن طريق بُنى عقلية ، وبالتالي فقد أصبح العلم أكثر نفوذاً بما لا يقاس كأداة للعقلنة ، وأشد قابلية للاستغلال بما لا يقاس أيضاً من جانب فرسان السيطرة الكاريزمية ، مما جعله ، آخر الأمر ، يقوم بوظيفة الوكيل الملزم . وعلى النقيض من ذلك ، فإن إشاعة البيرقراطية أثبتت أنها عاجزة عن توفير الحماية من اللاعقلانية لدى النظام ككل من ناحية ولدى البيرقراطيين الأفراد من ناحية ثانية .

قام عدد من الكتاب بتحليل هذا الجمع العشوائي بين السلطة السياسية والعسكرية وبين اقتصاديات السوق والبيرقراطية والتقنية العلمية ـ هذا الجمع الذي أطلق عليه لويس مامفورد اسم : الآلة العملاقة» mega ma-chine عاكساً العلاقة الغائية القائمة بين الانسان والآلة (٣٦)ـ تحليلاً نقدياً . من وجهة النظر هذه شكلت فترة الحرب العالمية الثانية نقطة انعطاف كبرى ، حيث تزاوجت التحليقات الصاعدة للقوة والعقلنة مع منظومات ديناميكية باتت متكأ وحيداً للأفراد الذين أصبحت طبائعهم ذاتها متكيفة مع تلك المنظومات .

٣٥ـ مومزن ، مصدر سابق ؛ فيبر «المقالات» ، الجزء ١٥ ، توبينجن ١٩٨٤ .

٣٦ـ حول المفهوم وتاريخه انظر لويس ممفورد ، «أسطورة الآلة» الجزء الأول ، «التقنيات وتطور الانسان» ، نيويورك ٦٦ـ ١٩٦٧ ، الجزء الثاني «بنتاغون السلطة» .

جاءت روايتا هذه الفترة الشهيرتان : عالم جديد شجاع Bravc New Iorld (١٩٣١) لالدوس هوكسلي و ١٩٨٤ Nineteen Eighty Four (١٩٤٩) لجورج أورويل لتلخصا الخَطَر الذي تشكله التكنوقراطيا والنظم الشمولية على المجتمع المدني . ولدى النظر الى الوراء نرى أن خيال أمثال هؤلاء النقاد للعصر بدا متخلفاً عن الحركة الفعلية للمجتمع . فهوكسلي عاد في ١٩٥٩ الى تصوره لمستقبل تكنوقراطي في القرون المقبلة ، واستخلص أن الواقع ، خلال حياته هو ـ كان قد لحق بذلك التصور(٣٧) . ولدى حلول عام ١٩٨٤ فعلاً ، كان الهم الأول لوسائل الاعلام هو أن تقنع الجمهور بأن رواية أورويل لم تسبق زمنها بخمسة وثلاثين عاماً لتصف حالة مستقبلية للمجتمع الغربي ، بل لم تكن ، ببساطة ، إلا نقْداً للنظام الشمولي المعاصر (وخصوصاً بصيغته الستالينية) . بلغ الخوف أوجه من أن يقع القراء في الخطأ لدى حُكْمِهم على هذا الجنس الأدبي .

في فورة إعادة البناء والتحديث التي عاشتها أوربا الغربية خلال العقدين اللذين جاءا بعد الحرب ، نادراً ما جرى تناول اشكالية «الألة العملاقة» مرة أخرى ، على الرغم من أن الأصوات المحذرة من أن الاندفاع وراء العقلنة الاجتماعية لم يجد ما يوازيه في جوهرالنزعة الفردية(٣٨) ، لم تكن قليلة . فالتركة المهاجرة لمدرسة فرانكفورت التي أدت مناقشتها لكل من الفاشية

٣٧ـ الدوس هوكسلي : «عودة الى عالم جديد جريء» ، لندن ١٩٨٥ .

٣٨ـ الفريد فيبر الذي كان ، مثلاً ، قد كتب في ١٩٣٥ نقداً معادياً للنازية للعالم الرسمي ، «كومت دير فيرته مينشن ؟» ، بادر الآن الى توسيع هذا النقد ليشمل الخط العام ، القادم من الشرق ، والمتمثل بالغاء الشخصية الذي يشكل مؤشر العيش فيما بعد التاريخ . «الانسان الثالث أو الرابع» ، ميونيخ ١٩٥٣ . وحتى جون فوراستيه ، أكثر دعاة الانتاجية والتنمية في أوربا تشدداً ، بدأ لاحقاً بتقديم منظور متقدم لتكاليفها البشرية مع ولوج القرن الحادي والعشرين : «الساعات الأربعون ألفاً» ، باريس ١٩٦٥ .

والستالينية والصناعة الأمريكية للثقافة الى إسباغ الصفة السلبية على مفهوم التنوير للتقدم كجزء من سيرورة شاملة قائمة على الهيمنة على الطبيعة الإنسانية الخارجية والداخلية ، لم تلفت الأنظار بشكل كبير جداً في البداية(٣٩) . فشهادة فالتر بنيامين الأخيرة بقيت مجهولة في تلك الأيام. وهي نص ، وإن كان قريباً من ادورنو في ادانته للتقدم ، ذو أهمية أكبر بالنسبة لنا هنا لأن صورته البيانية غير القابلة للامّحاء تشي بتوير أساسي عميق بين «الركام المتراكم» للتقدم وبين حلم فعّال بخلاص المظلومين المقموعين هنا على الأرض(٤٠) . إن تأملات بنيامين شدت الأنظار بادئ ذي بدء في ألمانيا الغربية لدى إعادة اكتشاف التراث الماركسي المكبوت والتعرف على حدود هذا التراث فيما بعد .

غير أن تشخيصات «مابعد التاريخ» لدى السوسيولوجيين الذين مارسوا نفوذاً أساسياً أو تأثروا به في ظل الرايخ الثالث ـ من أمثال هانس فرير Hans Freyer وهلموت تشلسكي Helmut Schelsky على التوالي(٤١) ـ تركوا قدراً أكبر من التأثير في عهد اديناور . ففي كتابات أقل اتساماً باليأس من كتابات الهيغليين اليساريين في المنفى ، ظل الهيغليون اليمينيون المتطهرون من النازية بعيدين وبحثوا عن عناصر استمرار مدنية من شأنها أن تتمتع بما يكفي من القوة لتفسير الإخفاق التاريخي للذاتية القومية (أو الشعبية Volkish بصورة أدق) وللتحذير من

٣٩ـ انظر ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو ، «ديالكتيك التنوير» لندن ١٩٧٩ .

٤٠ـ «موضوعات حول فلسفة التاريخ» ، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

٤١ـ هانس فرير ، «نظريةالعصور الحديثة» ، شتوتغارت ١٩٥٥ (عن امكانية اكتمال التاريخ ،) حول «نظم ثانوية» . وهيلموت تشيلسكي ، الانسان في المدنية العلمية ، كولونيا ١٩٦١ . يقدم ليبنيس تقويماً مفيداً لفرير في «بين الأدب والعلم : صعود السوسيولوجيا» ، كامبرج ١٩٨٨ .

المبالغة في تقديم هامش المناورة المتاح لديمقراطية دولة الرفاه(٤٢) Welfare_ state . تحدثوا عن المدنية العلمية ـ التكنولوجية ، بلغة نظرية ، على أنها «منظومة ثانية» يتحرر الانسان في ظلها من الزام الطبيعة ويخلق عالماً من صنعه هو بقيود بنيوية وعملية متوالدة ذاتياً . وهكذا فإن أطروحة «الانسان كانسان» لم تكن نمطاً نموذجياً انتروبولوجياً : بل ناشئة عن مواجهة الانسان لذاته ومسؤوليته عنها ، في تلك البنى التي باتت موضوعية ، طالما ظلت وبالتحديد ، تسائل معنى الفرد وهامش

٤٢ـ ثمة أوجه للشبه ـ لا من حيث الحجة بمقدار ماهو من حيث الحساسية والملامح التفسيرية وأسلوب ترسيخ الاستمرارية ، مع التشخيص القائل بأن الثقافات الأوربية القائمة على الدول تغوص في حقبة من «الحرب الأهلية العالمية» ، التي تكمن مراكزها في الهيمنات الثورية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، والتي يمكن لـ «عوامل ثالثة» أن تلعب دوراً مرة أخرى رغم ذلك . ومن هذه الناحية يشكل كتاب «البنية التاريخية للتناقض العالمي بين الشرق والغرب» ، فرانكفورت ١٩٥٥ ، تأليف كارل سميث نوعاً من المفارقة . وانظر تقويم سميث لفرير في «كريست اوند فيلت» ، تموز ١٩٥٧ . وفي مؤلفات مساعد غيهلن السابق هانو كيستينغ أصبح ذلك هو الموضوع العام لأحد المواقف التفسيرية من التاريخ الفلسفي للقرنين التاسع عشر والعشرين ، انظر : فلسفة التاريخ والحرب الأهلية العالمية ، هايدلبرغ ١٩٥٩ . في ذلك الحين تبنى مثقف اشتراكي قومي أقل بروزاً هو ايروي هولزله مُنْطَلَقاً مماثلاً لمتابعة نشر مثل هذه الأفكار ، انظر «تاريخ العالم المشطور الى شطرين» راينبيك ١٩٦١ . ومثل هذا الترسيخ لنوع من الاستمرارية القومية من منطلق تقاليد الثورة المحافظة كان إحدى سمات فترة الحرب الباردة ، حين كان مرتبطاً بنقد عميق للتكنولوجيا في مؤلفات شميت وخصوصاً هايدغر . ومنذ أواسط السبعينيات تمت إعادة تنشيط العملية على يد إيرنست نولته بوصفها برنامجاً تاريخياً مثيراً ذي «المانيا والحرب الباردة» ، ميونيخ ١٩٧٤ ، و « الحرب الأهلية الأوربية» برلين الغربية ١٩٨٧ .

مناورته[٤٣] . وفي هذا التحليل تلاشت فسحة السياسة وانهار جوهر الديمقراطية ، لان القيود العملية لضابط المنظومة التقني جعلت المواطنين معتمدين على مدراء سياسيين وهؤلاء بدورهم معتمدين على «النصائح» العلمية . وعند هذا المستوى من بنى السلطة صار التشخيص أكثر رسوخاً وثباتاً ، في حين أن العلاج المطروح ، فيما يتعلق بالمعنى صار منطوياً على نوع مستمر من التامل التاريخي أو الميتافيزيقي . أما العقلانية الغائية بوصفها رأس المال المقيم لـ «الألة العملاقة» فبقيت على حالها .

حيث أخفقت قيود الماضي في ربط العقول ربطاً محكماً بالأرض بل تركت التفكير بالبعدين العلمي والانتربولوجي معاً طليقاً ، تمخضت معانيه العملية الذاتية ، لإسباغ الصفة الموضوعية على الروح الانسانية ، عن آفاق أرحب بكثير لنوع أساسي وكامل الايجابية من التغيير في وجود الانسان . ففي سنوات ما بعد الحرب رأى عالم المستحاثات اليسوعي المقروء كثيراً بيير تايهارد دو شاردان Pierre Teilhard de Chardin الأرض ملفوفة بنوع من الأجواء الروحية . وهذه الأجواء بدت في الأساس مؤلفة من سلسلة من شباك الإبداع الاجتماعي والتقني (من النوسفير) ـ كما يمكن أن يقال اليوم ، موشكة على انجاب انسان جديد[٤٤] . أما أحد مقاتلي المقاومة بيير بيرتو Pierre Bertaux ، الذي أصبح ، بعد التحرير رئيساً للسوريته Sûreté وأستاذاً للغة الألمانية فيما بعد ، وقد تنبأ بانتهاء التاريخ السابق

٤٣ـ بل ويشير تشيلسكي الى وجهة نظر جاك ايلول : «لا تكنيك أو لانجو دوسييكل» ، باريس ١٩٥٤) التي تقول بأن «أسطورة الانسان» ليست إلا «افرازاً طبيعياً من افرازات التقدم التقني» .

٤٤ـ بيير تايار دوشاردات ، «تشكل الفوسفير» (١٩٤٧) في «مكان الانسان في الطبيعة» ، لندن ١٩٦٦ . ومن مقالاته الأخرى ذات العلاقة «مما قبل الانسان الى ما بعد الانسان» (١٩٥٠) و «نهاية الجنس أو النوع» (١٩٥٢) .

كله لان النمو السكاني والاجهاز على المواد الخام يحتّمان «تحول الانسان»(٤٥) . كما أن المستقبلي الأمريكي رودريك زايدنبرغ Roderick Seidenberg عبَّر عن توقعات مماثلة(٤٦) ، وإن كانت أقرب الى كورنو وبدون احتقار الجماهير الشائع بين المثقفين الأوربيين في ذلك الوقت . منذ السنوات الأولى التي أعقبت الحرب حيث باتت المطالبة بتنظيم المجتمع تنظيماً ذكياً مسموعة ، لاحظ زايدنبرغ أن عملية نضوج تمايز عميق بين المَلَكَتين الانسانيتين المتصارعتين : الغريزة والعقل ، لابد لها ، حسب رأيه ، من تفضيل الثاني أي العقل بشكله الذي بات موضوعياً ومتمثلاً بـ «التنظيم الشامل» . استمد زايدنبرغ هذا المنظور من ماض تطور فيه الانسان من تناغم الغرائز الحيوانية عبر الصراع بين الغريزة والعقل ـ «على امتداد مَعْبَر بالغ الخطورة مفعم بجملة من التراكيب (السينتيزات) غير المستقرة (،) ذلك المعبر هو التاريخ»(٤٧) . غير أن محاولات إسباغ صفة الموضوعية على الذكاء الانساني (في الصناعة مثلاً) كانت تصاعدية ـ

٤٥ـ بيتر بيرتو ، «تحول البشرية» ، فرانكفورت ١٩٦٣ : «نهاية التاريخ» .

وفي طبعة لاحقة أبرز كلاً من نيتشه ودو شاردان بوصفهما اثنين من المنابع الروحية لتكهنه بانسان جديد وقيم جديدة ، بتحول الفرد الى حيوان قطيع (هومو دومستيكوس) داخل نوع من أنواع مجتمعات النمل الأبيض باقامة مجتمع سيتحدد أساساً بوقت الفراغ ، باللعب (بدلاً من العمل) وبنظريات اللعب .

٤٦ـ رودريك زايدنبيرغ ، «انسان مابعد التاريخ : مسألة» ، تشابل هيل ان .سي . ١٩٥٠ . انظر أيضاً كتابه : «تشريح المستقبل» ، ١٩٦١ . كان زايدنبيرغ (١٨٩٠ـ ١٩٧٣) مهندساً معمارياً في نيويورك عاد الى الأرض في ١٩٣٧ ، دويلستاون ، بنسلفانيا . حيث قام باصلاح بيوت قديمة وألّف تشخيصيه كان على علاقة صداقة مع لويس د مفورد .

٤٧ـ «انسان مابعد التاريخ» ص : ٢١ .

النقطة المفتاحية الغائبة عن نظرية الدورات عند شبنغلر(٤٨) ـ . وحققت الحرية ازاء الطبيعة . ومن جهة أخرى ، مارست قوة متنامية لصالح النظام المتجه نحو الاشباع عبر التنظيم الشامل . كان زايدنبرغ مدركاً لحقيقة أن على هذا أن يعني تغييراً واسعاً تستحيل العودة عنه فيما كان سابقاً يُعْرَف باسم الطبيعة الانسانية . أضف الى ذلك أن زايدنبرغ هذا قد يبدو أول من قام بصياغة عبارة «انسان مابعد التاريخ» بالفعل ـ في تعارض ، كما لدى كورنو ، مع الشكلين ما قبل التاريخي والتاريخي الانتقاليين كليهما ـ وهي العبارة التي أشاعها مامفورد بعد ذلك وانتقدها بوصفها «حلماً ذرياً محلقاً في الأوج . . تحت رحمة مخطط طفولي للحياة»(٤٩) .

وفي تطور تأثر في المقام الأول بتجربة المنفى واضطهاد اليهود ، في الثقافة الناطقة باللغة الألمانية في الوقت نفسه ، قامت سلسلة نصوص عرضية ولكنها فعالة صحفياً بتحليل العلاقة بين الآلة والانسان ليس عبر اقرار عقلانية جهاز متأصلة أو التسليم بها ببساطة ، بل من خلال الوقوف على الديناميكية الكارثية لمثل هذه العقلانية بعد أوشفيتز وهيروشيما . كان هذا النقد مايزال ، بطبيعة الحال ، أكثر اتزاناً من مساهمات مدرسة فرانكفورت أو من الكتابات المستقبلية في بلدان أخرى ، ولكنه كان نتاج مقاومة شخصية في الحركة المعادية للسلام النووي ، مما جعله ، كما في حال بنيامين ، منطوياً على شجاعة متولدة عن فقدان الأمل .

٤٨ـ المصدر السابق ، ص٨٨ ؛ يشكل رفض زايدنبيرغ لصورة مستعمرة النمل مابعد التاريخية على أساس أن التنظيم الذكي الشامل لا يمكن التقاطه بالصور من البيولوجيا الاجتماعية للحشرات سمة نموذجية لوجهة نظره التطورية .

٤٩ـ لويس ممفورد «تحولات الانسان» ، لندن ١٩٥٧ ، ص : ١٢٣ . تابع ممفورد رسم خط سلالة الأجداد وصولاً إلى «الانسان المصنوع بالآلة» وتصور تلاشي جملة من «الأنماط غير القابلة للتكيف مثل الفنان والشاعر ، مثل القديس والفلاح» (ص : ١٢١) .

أشار غونتر أندرس Günther Anders إلى حقيقة أن التكنوقراطيا مقيدة بتغيرات اجتماعية تجعلها ، الى حد كبير ، منيعة على أية ثورات ضد الامكانية الحقيقية لقيام الانسان بتدمير ذاته(٥٠) . وقد رأى هذه الامكانية كامنة في توقع التقدم اللانهائي ذي الجذور العميقة ، في اجلاء الموت عن السياق التجريبي للمدنية الحديثة ، في التضارب بين الأفق العادي للمسؤولية وبين ساحة فعل التكنولوجيا ، وفي قَوْلَبة الانسان من قِبَل وسائل الإعلام ، قبل كل شيء آخر . أما بهذه الأخيرة ، أي وسائل الإعلام ، فقد عنى أندرس تلك الصورة غير المباشرة الممزقة والمفبركة التي تقدمها بدون أية مسؤولية واضحة(٥١) . ونتيجة لـ ـ وفي تناقض جزئي مع ـ التزامه العملي بحركة السلام ومعارضته للحرب في فيتنام ، صار تشخيص أندرس بالغ الجذرية والثورية حتى بات يعتبر التكنولوجيا الذات الجديدة للتاريخ . لم يعد الناس الآن ، في أحسن الأحوال ، إلا «مخلوقات تاريخية» أيضاً ـ أي كيانات مقاومة أو منفعلة ـ مثلهم مثل البروليتاريا في تاريخ من صنع الأعضاء الذكور في الطبقة الحاكمة . فمع ظهور التكنوقراطيا شهدت «طبيعة» الانسان تغيراً عميقاً ، وصارت العلاقة بين الطرفين «نهائية وغير قابلة للالغاء» . لم يكن الأمر متوقفاً على موعد قيام القوى المدمرة للتكنوقراطيا بانجاز «نهاية الزمن» لأن «الزمن الأخير» موجود معنا

٥٠ـ «اهتراء الانسان» ، الجزء الأول ، ميونيخ ١٩٦٥ وخصوصاً فصل «الجذور التاريخية لعمى نهاية العالم» ص٢٧٦ .

٥١ـ المصدر السابق ص : ٢٨٦ . مثل شريكته السابقة حنا أرندت («أيخمان في القدس» ، نيويورك ١٩٦٤) ، أشار هنا الى دهشة المدافعين في محاكمات الكارثة بأنهم كاشخاص ، خلافاً لحال الجهاز الذي كانوا يخدمونه ، كان يُنتظر منهم أن يتحملوا المسؤولية . إنهم لم يمارسوا ذواتهم كذوات فردية لأنهم ظلوا قِطَعاً في آلة .

بما يمكّننا من الحديث باللغة التقليدية لعملية «جعل التاريخ شيئاً عتيقاً ومهجوراً(٥٢)» .

تميزت السبعينيات تميزاً قوياً بفيض من النقاشات حول حدود النمو ، حول تلويث البيئة ، حول قابلية الانسان لتحمل الضغوط ، حول امكانية ادارة النظام ، حول مجيء المجتمع مابعد الصناعي ، وحول شبح الكارثة النووية . ومع صيرورة الانطباع بأن الآلة العملاقة نفسها بدأت تخرج عن السيطرة أكثر انتشاراً ، بدأت وجهات النظر الشبيهة بوجهة نظر آندرس تحدث أصداء اوسع بات التدقيق العلمي للعلم موضوعاً على جدول الأعمال ، وأصبح تأمل تشيلسكي الميتافيزيقي المستمر لافتاً لأنظار العلماء في الحدود الدنيا ، في عملهم الاختصاصي ، وفي معارضتهم العلنية للاستخدام غير المقيد لما ينتجونه ، على حد سواء . وفي الوقت نفسه ، على أية حال ، تكشفت «البحوث والتنمية» عن كونها العامل الأساس في الانتاج والنمو وهدفاً للتشجيع والطلب على الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية بشكل لم يسبق له مثيل .

(كان روبرت اوبنهايمر R. Oppenheimer قد برر دوره كمنسق فيزيائي في البرنامج الأول لانتاج القنبلة الذرية ، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع عناصر الجيش ، بكل طاقته ، بالكلمات التالية : «إنها عذبة تقنياً!») .

٥٢- «الزمن الأخير وآخر الأزمان (نُشر أولاً عام ١٩٧٢) في «اهتراء الانسان» ، الجزء الثاني (١٩٦٥) . مستخدماً مثال ماي لاي (مذبحة ماي لاي في فيتنام) حاول آندرز أن يبين أنه كانت ثمة مسابقة في الوقت نفسه بين الانسان في الآلة العسكرية وبين القوة التدميرية الأكبر للأجزاء الممكننة أكثر للآلة نفسها ، مسابقة انقلبت في حالتها القصوى ضد أولئك المحرومين كلياً من اي دفاع .

ومع التحول إلى «مجتمع مابعد صناعي» متسم أولاً بتطور التكنولوجيات ووسائل الاعلام ومحاصرتهما ، وصولاً إلى استكمال «منظومات ثانوية(٥٣)» ، تعرضت سلسلة كاملة من الوقائع والتصورات الاجتماعية الموروثة التي بدت ذات يوم واضحة ذاتياً ، أخيراً ، للتمزق أشلاء . وما يُعرف باسم انهيار التضامن النقابي قد يكون المثال الأبرز والأشد صُراخاً . فتفكك البُنى القاعدية للمجتمع الصناعي يشير ليس إلى انهيار النظام بل إلى أشكال جديدة ، أكثر مرونة ، من المعارضة تستمد نَسْغَ حياتها من تجارب وجودية وثقافية قلما تتوفر امكانية إخضاعها لسيطرة الديمقراطية التمثيلية . وهذه الأشكال لم تعد اليوم ، بالطبع ، قطاعات خاصة مثل الثقافات الطبقية التي كان المجتمع البرجوازي ذات يوم مؤلفاً منها والتي بدت مشرئبة إلى ماوراء بنيته ؛ لقد باتت اليوم «النظام» نفسه ببساطة .

إن المسألة التي دأب فيبر أو بنيامين على تقليبها في عقله باتت الآن مطروحة بإلحاح واضطراد ، إنها مسألة ما إذا كانت امكانية إيقاف العقلنة القائمة على السَّجْن في القفص الفولاذي أو «التقدم» الكارثي للتاريخ مازالت متوفرة ، وماهي البدائل التي يمكن استنفارها للوقوف في وجههما . من منا مازال اليوم مقتنعاً بامكانية إدارة البنى المصلحية المتداخلة والمتشابكة منهجياً بما يتفق مع وجهة نظر أعلى ؟ ولكن وقفها عن النشاط أمر مستحيل . إذا لم تعد الآلة العملاقة أداة ، فهل مايزال التأثير على أنماط عملها ، أو إيقافها عن العمل عند الضرورة من الأمور الممكنة ؟ وإذا كانت الثقة ببدائل المستقبل المحددة تاريخياً قد تلاشت فأية قوى

٥٣- حول النقاش الذي أطلقه كتاب دانييل بيل «مجيء المجتمع مابعد الصناعي» (نيويورك ١٩٧٣) ، انظر لوسيان كيرن (محرراً) «مشكلة المجتمع ما بعد الصناعي» ، كونيغشتاين ١٩٨٤ .

ستكون متمتعة بالارادة والقدرة اللازمتين للارتقاء الى مستواها ؟ وبما أن أجوبة هذه الأسئلة ليست واضحة وتشير الى جملة متباينة من التمايزات الممكنة أكثر مما تشير الى بدائل أو خيارات(٥٤) ، فإن فكرة الكارثة المتولدة ذاتياً قد طرحت نفسها ولو بصيغة تقدم لانهائي .

ج ـ الطبيعة والموت

تنطلق سلسلتنا الثالثة من التداعيات المأخوذة من الصور البيانية الطبيعية والتكنولوجية لبنية المجتمع وحركته لدى كورنو : صورة خلية النحل وصورة النهر المتلاشي في شبكة الري مثلاً ، أو صورة «الحالة الأخيرة» . وهذه الصور تكتسب مغزاها على خلفية مؤلفاته بوصفه أحد منظري الاحتمالات الرياضية ـ الاقتصادية وسعيه إلى انتاج نظرية فلسفية موسوعية في التاريخ والطبيعة والعلوم الاجتماعية معاً . في العلوم الانسانية وخصوصاً التاريخ ، نادراً ما كان ثمة أي أساس في اطار الثقافة الغليومية ، لمثل هذا التركيب (السينتيز) ؛ فالنزعة التاريخية كانت في مرحلة ازدهارها الأخيرة ، وكانت محاولات معينة تبذل للتمييز الدقيق بين مناهج العلوم الطبيعية ونظيرتها الانسانية . كما أن مثل هذا الربط كان في الثقافات الأخرى أيضاً متروكاً لشخصيات على هامش العالم الأكاديمي .

بين المؤرخين كان هنري أدامز H. Adams أكثر الغرباء بروزاً ، وهو محرر ناجح وباحث مجد مستقل أوجد نفسه بنفسه ، أحس بالاخفاق لأنه لم يستطع بلوغ مستوى أسلافه . فأبو جده كان أحد قادة الثورة الأمريكية

٥٤ـ انظر أولريخ بيك ، «مجتمع المجازفة : في الطريق الى حداثة أخرى» ، فرانكفورت ١٩٨٦ ؛ وكلاوس أوفه «يوتوبيا الخيار الصفري» في كتاب «الحداثة» لجوهانس بيرغر .

ورئيس الجمهورية الثاني للولايات المتحدة - ذلك المنصب الذي عاد جد آدامز إلى شغله مرة أخرى فيما بعد . كما أن أباه كان قد أصبح أحد أبرز رجال السلك الدبلوماسي في الولايات المتحدة الأمريكية(٥٥) . قد يشي ذلك بالسبب الكامن وراء اهتمام مؤلفات آدامز النظرية الأكثر أهمية ، رغم كتابتها خلال طفرة بداية القرن ، بسقوط المدنية ، ولماذا قامت روايته الأولى بنقد انهيار الديمقراطية الأمريكية(٥٦) . واضافة الى نشاطه كمحرر ، وسفراته السنوية إلى أوربا أو حول العالم ، ودراساته القروسطية المتضمنة منصب أستاذ في هارفارد ، ملأ الرجل رفاً شبه كامل بكتابات عن الديمقراطية الأمريكية المبكرة وشغل منصب رئيس الرابطة التاريخية الأمريكية . أخيراً ، حين كان في الخامسة والستين من العمر ، بدأ بمقاربة مشكلة الاهتداء الى نظرية في التاريخ ستكون معتمدة برنامجياً على العلوم الطبيعية وتلحق بها عبر اجترام قوانين إجتماعية معينة وتشخيصات قائمة على أسس علمية(٥٧) .

تناول آدامز موضوعين كانا ملحاحين آنذاك ومايزالان كذلك - موضوع الاستخدام الاجتماعي المتزايد للطاقة وموضوع تاريخية الطبيعة - وجمعهما في تشخيص عن تسارع التاريخ ، وعن خطر انتهاء المدنية في ١٩٢١(٥٨).

٥٥- انظر سيرة هنري آدامز الذاتية المكتوبة عام ١٩٠٦ والمنشورة بعد موته بعنوان «تعليم هنري آدامز» ، نيويورك ١٩١٨ . إن الأسلوب والحساسية اللذين اتسم بهما توصُّله الى ملاحظاته النظرية موصوفان من الفصل ٢٥ فصاعداً . انظر مقال كورت هوفمان بعنوان «هنري آدامز : صورة فوضوي محافظ ، ميركور ٢١٨ (١٩٦٦) .

٥٦- هنري آدامز ، «الديمقراطية : رواية أمريكية» ، نُشر بلا اسم مؤلف في ١٨٨٠ .

٥٧- «هنري آدامز : مؤرخ علمي» - نيوهافن ١٩٥٢ ، تأليف وليم هـ . جوردي .

٥٨- انظر مجموعة الكتابات النظرية لادامز التي نُشرت بعد موته بعنوان : «انحطاط دوغما الديمقراطية» ، نيويورك ١٩١٩ ، وخصوصاً «رسالة الى معلمي التاريخ الأمريكان» .

بلهجة أخلاقيـة... ساخـرة . تركـز هدفه آنذاك على تحـرير نفـسه من المظاهر الخـارجي للثـورة الصناعـيـة وعلى اجـراء حسـابات مـعـينة من الاسـتـخدام الاجـتمـاعي للطاقـة . توصل أدامز الـى استنتـاج يقـول بأن هذا الانعطاف في منحنى الطـاقـة... قد حصل لا في أوائل القـرن التـاسع عـشر بل حـوالي عـام ١٦٠٠ ، وبأن التسارع في النمـو منذ ذلك التاريخ كـان قد أصبح أكثـر بروزاً بصورة مضطردة . لم يكن التـصنيم سـوى مرحلة واحدة في اطـار سيـرورة تسارعية طويـلة الأمد ، كـانت فتراتـها(٥٩) تصـبح أقصر فـأقصر ولم تكن تنقل العـالم الى هَضَبـة جديـدة من هضـاب المجتـمع المدني بل ترهـقه في دينامية من الحُمَّى المتصاعدة . و «قـانون التسارع الاجتمـاعي» المأخوذ من معطيات تـجريبية (عبـر كل ماعدا القيـاسات الصارمة) هذا ، تم إدماجه بعد ذلك بإحدى صيغ القـانون الثاني القـائم على الديناميكيات الحراريـة وصولاً الى صـورة بيانيـة اجـتمـاعيـة . أمـا الصيـاغـة العامـة لهذا الـقانون فـقد جرى تحـقيـقـها قـبيـل ذلك عبـر أشكال من التـقدم في نـظريات الاحصـاء . انطوت الأطروحات المتـعلقة بقياس الطاقـة الضائعة في نظرية الحرارة عـلى أهمية أسـاسـيـة بالنسـبـة لكل من الفـيـزيـاء الذرية وعلم الفلك الحـديث وعـمليـة تطوير فـهم اجـتـمـاعـي جـديد للطبـيـعـة يقـوم على إلغـاء ودحض الأفكار الميكانيكية الجامدة حول انتظام الطبيعة وانضباطها .

في نظريـة الحرارة التي تنطلق من بَدَهيّة عدم تغير الطاقة خلال الزمن في المنظومـة المـغلقـة ، يقـوم مـعـيار الطاقـة الضـائعـة (الانتـروبيـا) بِرَوْز الطاقة المفـقودة لدى قلب الحرارة إلى أشكال أخرى من الطاقـة . وقد تـمخض

٥٩ـ قد يقـال إنه كان يلمح هنا إلى «قـانون المراحل» الذي ولى زمـانه لعالم الفـيزياء ج . ديلارد جيبز الذي كان يُعـتَبـر أبرز علماء الطبيعة في أمريكا .كـان أدامز يـميز بين حقـبة دينية وثانية ميكانيكية وثالثة كهربائية ورابعة أثيرية وخامسة ذَرِّيـة ،ويضم حقبته هو نفسه في المرحلة الانتقالية من الثالثة الى الرابعة .

هذا عن الرؤيا الأساس القائلة بأن عالَمَنا محدود ، له نهاية وبأن سيروراته غير قابلة للارتداد ، وبالتالي فإن الاختلافات في درجة الحرارة التي هي الشرط المسبق للحياة كلها ، تتوازن آخر الأمر وتؤدي إلى «الموت الحراري» . أما في نظرية جزيئات العناصر فإن معيار الطاقة الضائعة (الانتروبيا) تتم صياغته على النحو التالي : (يمكن تحويل الحركة المنظمة كلياً الى حركة غير منظمة ، أما الحركة غير المنظمة فيستحيل تحويلها كلياً الى حركة منظمة(٦٠)» . وبالنسبة لعقل مولع بالمجاز ، عقل دائب على الاهتداء إلى متكأ قوي في قوانين الطبيعة لاسناد احساسه بالانحطاط أو التدهور déc-adence فلابد لهذا من أن يكون قد عزز الفكرة التي تقول بأن النظام ، أيَّ نظام ، يستند إلى اللامساواة ، يميل ، في المجتمع أيضاً الى التفكك والتحلل وبأن التسوية (فرض المساواة) عِلَّةٌ قاتلة .

يتسم الاعتراض بما يكفي من الوضوح : فالبعد الزماني لتاريخ الأرض ليس موازياً لنظيره في التشكيلة الطبقية للمجتمع البرجوازي ؛ تستحيل مقارنة الانسان بجزيئات العناصر ، والفروق في درجات الحرارة بالتمايزات الطبقية والخ . . وبالتالي فإن انتروبيا آدامز الاجتماعية يمكن رفضها بوصفهاروابة الخيال العلمي المبكرة عن التفسخ البرجوازي لولا سلسلة من العناصر المزعجة التي تجعل مثل هذه الأحكام تبدو مفرطة الاستعجال أو التسرع . أولاً : جمع آدامز نظرة «علمية طبيعية» باللغة الانتاجية (ملاحظة التسارع على أساس تحولات الطاقة) مع اجراء مجازي مشكوك فيه ولكنه

٦٠ـ كارل ف . فون فايتزاكر : تاريخ الطبيعة ، غوتينجن ١٩٤٨ ، ص : ٣٩ ، مع مقدمة للمعرفة العلمية حول محدودية الطبيعة زمانياً . ثمة تمييزات أحدث في مقال بيرنر- اولاف كوبرز : «الانتروبيا ، التطور وبنية الزمن» في كتاب «الزمن الميت» ، دار مشتادت ١٩٨٧ لايتمار كامبر وكريستوف وولف (محررين) .

شديد الراهنية مع ذلك (نقل قانون الانتروبيا الى تاريخ المجتمع(٦١) .
ثانياً : على الرغم من هذا الجمع توصل آدامز الى رؤى تشخيصية متقدمة كثيراً على أحكام أصحاب الخبرة فيما يتعلق بتحويل الفيزياء الذرية الى تكنولوجيا ، على سبيل المثال :

ببطء شديد تمخضت فرضية الوحدة ، التي شكلت سمة الفكر الانساني في العصور الوسطى ، عن البراهين المؤكدة للتعقيد . وذهول العلم أمام الراديوم ليس إلا برهاناً على ذلك . غير أنه من المؤكد مع ذلك ، حسب جملة المعادلات والمنحنيات الموجودة عندي ، أن انقلاب الفكر راساً على عقب لن يتطلب ، جراء الوتيرة المتسارعة للتقدم منذ ١٦٠٠ ، قرناً أو نصف قرن آخر . وفي تلك الحال فان القانون بوصفه نظرية أو مبدأ مسلماً به ، سيختفي وسيترك مكانه للقوة . ستنقلب الأخلاق الى جهاز بوليس ، ستصل المتفجرات الى

٦١ـ عن رواج ولا نقدية استخدام مثل هذه الصور البيانية ، انظر مثلاً مجموعة مؤلفة من عشرين دراسة للأدب : تحرير غونتر غريم وآخرين «أبوكاليبس (القيامة) : .....» فرانكفورت ١٩٨٦ . يتوصل المحررون الى استنتاج يقول بأن «للوعي الحديث للزمن الأخير ، ثلاث ميزات بنيوية هي : الكلية ، الانتروبيا (الطاقة الضائعة) ، واستحالة الارتداد أو العودة» .وعن الكلية انظر الملاحظات السابقة عن توسم «الآلة العملاقة» . وفيما عدا ذلك فإن التحديدات واضحة تماماً . «تعني الانتروبيا تحلل جميع نظم السيطرة والنظام» . والفساد أو الانحلال لا يتهدد النظام السياسي والإجتماعي بل والعادات والأخلاق أيضاً ، الدين ووجهات النظر العالمية ، بما يُفقِد سائر القوانين الفكرية والأخلاقية والدينية مصداقيتها . أما مقولة استحالة الارتداد أو العودة ... فليست إلا سمة بائسة من سمات الوضع العالمي المعاصر . «وخلافاً لسيرورات الانحطاط السابقة لم يعد إيقاف الآلة التي تم اطلاقهاالآن أمراً ممكناً .»

امتلاك طاقة عُنف كونية . سيقوم التحلُّل والتفكُّك بالتغلب على الوحدة والتماسك(٦٢) .

دعا آدامز الى الاعتراف بالتحدي الأخلاقي للقوى المنطلقة حديثاً قبل فوات الأوان . فبدلاً من النظم الضابطة القديمة للأخلاق الاجتماعية المستندة الى أشكال الحظر والحرمان لابد من تطوير ضوابط مؤسساتية هيكلية لضبط النمو المعياري للطاقة .

ثالثاً : تعرضت صورتنا عن العالم لقدر كبير وأساسي من التحول خلال القرن العشرين جراء نظرية التطور وقانون الانتروبيا ، جنباً الى جنب مع نظريات الدورات التاريخية ، نظرية المنظومات والسوسيولوجيا التي أوضحت امكانية الدمج بين مقولات أساسية للعلوم الطبيعية ونظيرتها الاجتماعية(٦٣) . أخيراً : قام آدامز وآخرون (لا يتميز هو عنهم إلا بطرح المشكلات) بالتقاط موضوعة عدم قابلية الطبيعة للارتداد وتلاشي المدنية المتسعة أو تدميرها لذاتها ، من النزعة التفاؤلية القائمة على التقدم .

بعد وقت غير طويل من حصول هذه المحاولات الرامية إلى الإمساك بالعالم الواسع (الماكرو) بالافادة من أدوات أقرب إلى الفجاجة ، كان

٦٢ـ في رسالة إلى هنري أو . تايلور ، أوردها ممفورد في «أسطورة الآلة» الجزء الثاني ، ص : ٢٣٢ ، مع ملاحظة مفعمة بالتقدير . ثمة تقويم أكثر اتصافاً بالشك لمكانة آدامز في التاريخ الأمريكي ، في كتاب «الحقيقة في التاريخ» ، كامبرج ، ماسو ١٩٧٩ ، تأليف أوسكار هاندلين .

٦٣ـ المناقشات التي تناولت فترة مابين الحربين مُقَوَّمة من جديد في كتاب زايدنبيرغ «انسان مابعد التاريخ» . ففي معارضة نظريات شبنغلر وتوينبي العضوية عن الدورات الثقافية ـ الحضارية ، يسير زايدنبيرغ على نهج آدامز في التركيز على اتساع البنى العلمية ـ التكنولوجية في العالم الحديث ، وفي تناول المشكلات القيمية المرتبطة بخنق الحرية في النظم لصالح ضبط ذكاء الانسان .

سيغموند فرويد دائباً على بذل جهود متصفة بالقدر نفسه من التجريبية والتأملية لحل ألغاز المستوى الضيق (المايكرو) . ففي خروج حاد على التصورات الطبية النفسية للمرض العقلي كخلل فيزيائي - جسدي في الدماغ أو الأعصاب ، كانت نظرية التحليل النفسي عنده قد شددت من التركيز على التأثير الثقافي طويل الأمد لكبت الدوافع الحيوية (الجنسية) (في تجربة الأطفال داخل الأسرة في المقام الأول)(٦٤) بوصفه السبب الأكبر . غير أن فرويد أعطى للموت والعدوان ، بعد الحرب العالمية الأولى ، دوراً جديداً ، ولاسيما في نص مازال يثير حتى اليوم قدراً غير قليل من الجدل بين أتباعه أو يتعرض للإنكار من قِبَلِهم (٦٥) . وفي ورقة الحساب الموقتة هذه للتحليل النفسي ، وهي التي كتبها بوضوحه وحبه للاستطلاع المميزين ، حاول فرويد بناء تصور بيولوجي للذاكرة على أساس مؤلفاته حول ماهو متذكر وماهو مكبوت . وهذا النموذج الذي مايزال يقحم البحث الفيزيولوجي في الذاكرة ، بمنطلقاته الأساسية ، قاده إلى فرضية تم التعبير عنها بحَذَر ولكنها بعيدة المدى ، حول أحد الدافعين الانسانيين

٦٤- هناك مقدمة مفيدة للتحليل النفسي في كتاب الكسندر ميتشرليخ : «الصراع من أجل الذاكرة» ، الطبعة الثانية ، ميونيخ ١٩٨٤ . أما تاريخ نشوء التحليل النفسي ومضاعفاته بالنسبة للنظرية الثقافية فنجدهما في «الانتاج الاجتماعي للجهل» فرانكفورت ١٩٨٢ تأليف ماريو ايردهايم .

٦٥- سيغموند فرويد «مابعد مبدأ اللذة» (١٩٢٠) ، لندن ١٩٦١ . إن الطابع الطموح ، على تردده ، لهذه المناقشة معبَّر عنه في المقتبس المرفق المأخوذ من روكرت : «ما لا نستطيع بلوغه ونحن طائرون يجب أن نصل إليه ونحن مترنحون» (ص : ٥٨) ، وفالتر بنيامين ، خصوصاً ، أفاد لاحقاً من هذا النص للتمييز بين الذاكرة والتجربة في نظرية التلقي والتاريخ ، وهذا - جنباً الى جنب مع صعود التاريخ الشفوي - يشكل أحد الأسباب الكامنة وراء إعادة مناقشة الأمر على نطاق واسع اليوم .

الأساسيين : غريزة الموت (والثانية هي الغريزة الجنسية ، الليبيدو) . تقوم كتابات فرويد في سنواته الأخيرة ، في الفترة مابين الحربين ، بالدرجة الأولى ، باقحام الرؤى التي امتلكها أساساً عبر تحليل الأفراد في عالم التشخيص الثقافي ، وهي مطبوعة بنوع عميق من الشك حول أية امال أحادية الجانب في التقدم وفي قدرة المجتمعات ككل على العيش في ظل السلام (٦٦) .

وهذه العناصر الموجودة في نظرية فرويد اللاحقة عن الغرائز ، التي سببت قدراً كبيراً من الاحراج لأتباعه ، تنطوي على أهمية استثنائية بالنسبة لعملية التقصي والمعاينة التي تقوم بها : أعني التخلي عن فكرة امكانية تحقق الكمال البشري والترابط بين الاكتشافات الثقافية والعقلية للتحليل النفسي وبين نموذج بيوكيميائي لافتراضاته المسبقة الطبيعية . إن مسار النقاش الذي أطلقته مشكلات التكرار والالزام بوصفها الوسيلة الحاسمة للعلاج القائم على التحليل النفسي ، وتحدي مصائب الحرب ، يتعذر تدقيقه هنا بصورة سليمة . لن أشير إلا إلى ملاحظتين نجمتا عنه . أولاً : على الرغم من أن فرويد يبدأ مقاله باعلان عدم وجود أية علاقة بين نظرية الليبيدو عنده وبين التراث الفلسفي لعصر التنوير ، فإنه ينهي المقال بالتحقق الذي يكاد أن يكون مفعماً بالخوف من أننا «دون أن ندري» انزلقنا بمسارنا إلى مرفأ فلسفة شوبنهاور . فالموت ، برأيه ، هو «النتيجة الحقيقية ، وهو هدف الحياة ، في حين ليست الغريزة الجنسية إلا تجسيداً لارادة الحياة(٦٧)» . يبدو كما لو أن المؤلف قد وجد نفسه منقولاً ، جراء نوع من التقييد العملي لبحثه هو ، من تراث التنوير الى تراث النقد الثقافي البرجوازي .

٦٦ـ خصوصاً رسالة «لماذا الحرب ؟» الموجهة الى البرت اينشتاين ، ايلول ١٩٣٢ ، في «ستاندارد ايديشن أوف كومبليت سايكولوجيكال وركس» ، الجزء ٢٢ ، لندن ١٩٦٤ .

٦٧ـ «مابعد مبدأ اللذة» ، ص : ٤٣ ـ ٤٤ .

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بفكرة مرتبطة بصورة الانتروبيا المجازية ، فكرة يعول عليها فرويد لترجمة «الطبيعة المحافظة» للغرائز بوصفها تفريغاً جسدياً - ضيقاً (مايكرو) للطاقة ، بما يمكّن الغريزة الجنسية أو غريزة الحياة من أن تقود إلى حفز قصير الأمد لتوترات طاقة حيوية فتوقف ، بالتالي ، عملية النزوع نحو تكيف هذا التوتر الكامن في الإيغو (الأنا ego) ، أو غريزة الموت . إن النص المقتبس الذي سنورده بعد قليل وهو نص يشكل جسراً بين مقطعين منفصلين ، يبين وجهة نظر فرويد عن الحياة بوصفها رحلة عكسية باتجاه الموت ، عودة ما هو عضوي الى ما ليس عضوياً ، عودة تزداد «تعقيداً» أكثر فاكثر عبر مسيرة التطور . كان هذا الجانب الذي أخذه من نظريته بعضُ رواد مفهوم مابعد التاريخ من أمثال أرنولد غيهلن وايرنست يونغر ، في الصورة البيانية لـ «اشاعة التسوية أو المساواة» بوصفها الخطوة الأولى نحو «التبلور» (التحجر مابعد الحيوي للثقافة) على مستوى المجتمع(٦٨) .

إذا كان علينا أن نسلِّم بحقيقة ، لا تعرف معنى الاستثناء ، أن كل حي يموت بأسباب داخلية ، يصبح غير عضوي مرة أخرى - فإننا مضطرون لأن نقول بأن «هدف الحياة كلها هو الموت» ؛ ولدى النظر الى الوراء ، نُقِرُّ بـ «أن الأشياء غير الحية كانت موجودة قبل الأشياء الحية» . فسمات الحياة استحضرت ، في وقت من الأوقات ،ودخلت في المادة غير الحية بفعل قوة لا نستطيع تكوين صورة عن شكلها... والتوتر الذي نشأ عندئذ فيما كان جوهراً لا حياة فيه حتى ذلك التاريخ حاول أن يلغي نفسه... ربما ، لفترة طويلة من الزمن ، كان الجوهر الحي يخلق من جديد بصورة مضطردة ويموت بسهولة ، حتى أتت تأثيرات خارجية حاسمة فاحدثت تغييراً أجبر الجوهر الباقي على قيد الحياة على التحول أبعد فابعد عن مساره الحياتي الأصلي وعلى

٦٨- انظر : «الانقاض في مابعد التاريخ» ، ميركور ٤٠٦ (١٩٨٢) ، هـ . بوهرينغر .

القيام برحلات عودة أو رجوع أكثر تعقيداً بصورة متزايدة قبل وصوله الى غايته المتمثلة بالموت... في هذا الضوء تتعرض الأهمية النظرية لغرائز الحفاظ على الذات ، تأكيد الذات والسيادة ، لقدر كبير من التضاؤل . ليست هذه إلا غرائز مكونة تنحصر وظيفتها بتأكيد حقيقة أن العضوية محكومة باتباع مسارها إلى الموت ، وبتجنب أية طرق ممكنة للعودة إلى أي وجود غير عضوي عدا تلك المتأصلة في صلب العضوية نفسها . ماعدنا مضطرين للاهتمام بالتصميم المدهش للعضوية (وهو تصميم يتعذر إقحامه في أي اطار) على إدامة وجودها في مواجهة العوائق والعقبات كلها . ما يبقى معنا هو واقع أن العضوية لا ترغب في الموت إلا بطريقتها الخاصة . وبالتالي فإن حماة الحياة هؤلاء لم يكونوا ، أيضاً ، إلا مرؤوسي إله الموت الذين يطيعون سيدّهم طاعة عمياء ، في الأصل(٦٩) .

يعارض فرويد ذلك بتأثير الالتحام الجنسي :

ولكن كيف يمكن لالتحام اثنتين من الخلايا التي لا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا اختلافاً طفيفاً أن يُحْدِث مثل هذا التجديد للحياة ؟ إن التجربة التي تستبدل مزاوجة وحيدة الخلية بإحداث حوافز كيميائية بل وحتى ميكانيكية ، تمكّننا من أن نقدم جواباً نهائياً ، دون شك ، عن هذا السؤال . فالنتيجة تتأتى من تدفق كميات جديدة من الحَفْز . وهذا يتطابق تطابقاً جيداً مع الأطروحة التي تقول بأن سيرورة حياة الفرد تقود ، لأسباب داخلية ، الى نوع من الغاء التوترات الكيميائية ، أي الى الموت ، في حين يؤدي التوحد مع الجوهر الحي لفرد آخر الى زيادة تلك التوترات ، بما يفضي الى ما يمكن وصفه بـ «خلافات حيوية» جديدة لابد من عيشها الى النهاية . . إن الميل المسيطر للحياة

٦٩ـ «مابعد مبدأ اللذة» ، ص : ٣٢ـ ٣٣ .

العقلية ، وربما الحياة العصبية عموماً ، هو الجهد المبذول لاختزال ، لإدامة ، أو لإزاحة التوتر الداخلي الناجم عن الحوافز («مبدأ النيرفانا») - وهو ميل يتم التعبير عنه بمبدأ المتعة ، واعترافنا بتلك الحقيقة يشكل أحد أقوى الأسباب الكامنة وراء إيماننا بوجود غرائز الموت(٧٠) .

التمس فرويد في الوعي الشخصي والثقافي المتنامي أملاً في التحكم بالطاقة المدمرة لغريزة الموت والعدوان ، مع تأثيراتها الاجتماعية الكارثية . ولكنه ، رغم أنه كان يعتبر نفسه من دعاة السلام ، ظل مقتنعاً بأن من غير المحتمل أن يتحقق ، في المستقبل المنظور ، «مجتمع أناس أخضعوا حياتهم الغريزية لدكتاتورية العقل» ، أناس يمكن أن يكونوا بالتالي قادرين على التمتع بالسلام . كان مَثَلُ فرويد الأعلى قائماً على برنامج كانت Kant القديم عن مجتمع مدني يحكمه القانون ويشمل العالم كله ، لأنه كان هو الآخر ، يعتبر الانسان - بكلمة كانت Kant «وحشاً لابد له من سيّد ، حيواناً لابد له من صاحب» ، ولكنه لم يعتبر أياً من الأفراد مناسباً للدور . غير أن عقيدة التنوير كانت قد شاخت ، وعلى الرغم من أن فرويد كان يرى ما يدعو الى الكفاح من أجلها ، فإن هبّة الرياح الأخيرة للتاريخ بدت له موجودة بصورة ملموسة . «ثمة صورة غير سارة تراود مخيلة المرء عن طواحين تطحن ببطء شديد بما قد يجعل الناس يموتون جوعاً قبل أن يحصلوا على حصتهم من الدقيق»(٧١) . ويضيف بسخرية تكاد أن تكون يائسة :

تنقلب غريزة الموت الى غريزة تدمير حين يتم ، بمساعدة أعضاء خاصة ، توجيهها الى الخارج ، إلى أشياء معينة . فالعضوية تحافظ

٧٠- المصدر نفسه ص : ٤٩ - ٥٠ .

٧١- «لماذا الحرب ؟» ص : ٢١٣ .

على حياتها ، فيما يبدو عبر قيامها بتدمير عضوية خارجية . غير أن جزءاً معيناً من غريزة التدمير يبقى فعالاً داخل العضوية وقد حاولنا تعقب جملة واسعة من الظواهر الطبيعية والمرضية بعملية استبطان غريزة التدمير هذه . بل وقد كنا متهمين بهرطقة ارجاع أصل الضمير الى هذا الانحراف للنزعة العدوانية باتجاه الداخل . سوف تلاحظون أن الأمر ليس تافهاً لا شأن له إذا ما جرت المبالغة في هذه السيرورة : إنه غير صحي بصورة إيجابية . أما إذا ما تم توجيه هذه القوى بالمقابل ، نحو التدمير في العالم الخارجي ، فإن العضوية ستنفرج ولابد للحصيلة من أن تكون مفيدة . ومن شأن هذا أن يشكل تبريراً بيولوجياً لجملة الدوافع البشعة والخطرة التي نناضل ضدها . لابد من الاعتراف بأنها أقرب الى الطبيعة من مقاومتنا لها ، الأمر الذي يجب أن نهتدي الى تفسير له . قد يبدو لكم كما لو كانت نظرياتنا نوعاً من الخرافة ، الأسطورة (الميثولوجيا) بل وحتى غير ملائمة ، في الحالة الراهنة . ولكن السؤال هو : ألا يعود كل من العلوم في النهاية نوعاً شبيهاً بهذا من الميثولوجيا ، من الاسطورة أو الخرافة ؟ ألا يمكن قول الكلام نفسه عن فيزيائك أنت بالذات اليوم(٧٢) ؟

كان السؤال موجهاً في رسالة مفتوحة ، إلى البرت آينشتاين الذي شكلت نظرياته العلمية والتزامه بمناهضة الفاشية مقدمات بارزة لصنع القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية . فهذه الحرب أطلقت قوة تدمير تكنولوجية وبيرقراطية لم يسبق لأحد أن تصور مثيلاً لها من قبل ، قوة تدمير بهذا القدر من البرمجة لطاقة العنف الكامنة حتى باتت رؤية عدوان الانسان الفرد في إطار أداتها بالغة الصعوبة . بالأحرى ، ساعدت التجربة على

٧٢ـ المصدر نفسه ، ص : ٢١١ .

استحضار صورة «آلة عملاقة» تكون البُنى والآليات الاجتماعية فيها قد تشيأت ، وأعادت الأفراد الى ذواتهم . فمنذ اللحظة وصاعداً ، بعد أوشفيتز وهيروشيما ، لابد للانسان من أن يبدو مخلوقاً «بالياً ، عتيقاً ، ولّى زمانه» .

في مواجهة الأزمة العميقة التي كانت قد جرَّتْ أوربا الى حربين عالميتين أصبحت الولايات المتحدة القوة الأكثر جبروتاً والنموذج الأكثر نفاذاً لعملية التحديث ، مشكِّلة امبراطورية عالمية تصنع التاريخ ، بدا جبروتها ، التي كثيراً ما شُبهت بجبروت روما ، مفتقرة الى اللاوحدة الداخلية للمجتمع البرجوازي الأوربي في الحقبة الامبريالية ، وخصوصاً منذ أن بات البديل الاشتراكي ـ الذي كان قد جرى تنظيمه على نطاق واسع خلال الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات ـ يتعرض للملاحقة بوصفه تجسيداً لـ «نشاطات لا أمريكية» في أجواء مفعمة بمعاداة الأجانب والخوف منهم خوفاً مرضياً من التنافس مع الاتحاد السوفييتي والنضال ضد هرطقات العديد من المثقفين الذين طردهم هتلر من أوربا . وعلى طريق التحول الى قوة عظمى كانت أكثرية الشريحة الحاكمة الأمريكية قادرة على الاحتفاظ براحة الضمير التي كانت قد اجترحتها في عملية التغلب على سياستها القائمة على الحياد ازاء المحور ـ والتي أكدت الآن ذاتها على خلفية التوتاليتارية الجديدة في تشكيل عالم على صورة «الأمة الجديدة الأولى» .

في حين أدى العقدان الأولان من حقبة ما بعد الحرب في أوربا إلى ارساء أساس النمو والتحديث في هذا الاطار ، فإن السنوات نفسها اتسمت في الولايات المتحدة الأمريكية بسمات فترة مابين الحربين . وفي الوقت نفسه ، اتخذت معارضة فكرية عميقة شكلاً محدداً عبر نقد السلطة وأخطارها متعددة الوجوه ، ثم حققت نفوذاً واسع النطاق في الحركة المناهضة للحرب في فيتنام ونشوء ثقافة شبابية بديلة . لم يلعب تراث البدائل الاشتراكية في أوربا إلا دوراً ثانوياً في هذا . فالسلطة الجديدة وضميرها المعادي للتوتاليتارية كانا يدعوان الى نقد مستند إلى جملة متميزة من

الأطروحات . تركّزَ هذا النقد الديمقراطي ـ البيئي (الايكولوجي) بالدرجة الأولى ، جنباً إلى جنب مع مسائل العنصرية والفقر والحقوق المدنية ، على سلسلة السلطة والتكنولوجيا (على «الآلة العملاقة») ، مستفيداً من الطاقة المتفجرة للرؤى التحليلية ـ النفسية في عمق الثقافة والتاريخ لفضح قدرة الواسب (WASP) الكامنة على القمع ورفعه الى مستوى روح الشعب أومزاجه القائم على العمل والسيطرة . ومثل هذه التيارات الجديدة التي انحرفت أحياناً لتغوص في ممارسات حياتية صوفية غريبة ، تآلفت حول كتاب «الحياة ضد الموت Life against death» الذي أصبح انجيلاً في أواخر الخمسينات والذي ألفه اللغوي الكلاسيكي نورمان أوبراون Norman O. Brown . مرت ترجمة هذا الكتاب الى اللغة الألمانية عند نهاية فترة حكم اديناور تحت العنوان البريء «المستقبل تحت شارة ايروس» The Future Under the Sign of Eros مروراً لم يكد يلفت أية أنظار(٧٣) . غير أن الكتاب انطوى في الولايات المتحدة على تأثير بالغ القوة تواصل في الكتابات الروائية الأولى لتوماس بينشون Thomas Pynchon مع تقاليد الانتروبيا المنبثقة من كتابات هنري آدامز(٧٤) .

٧٣ـ نورمان أو . براون : «الحياة ضد الموت : المعنى التحليلي النفسي للتاريخ» الطبعة الثانية ، ميدل تاون ، كون . ١٩٨٥ .

٧٤ـ في مؤلفاته الأولى قام بينتشون (ولد عام ١٩٣٨) بنقل أطروحات ت .س . اليوت في «الأرض اليباب» الى امريكا ، وبعد ذلك تبنى عبر «الانتروبيا» في ١٩٦٠ صورة آدامز البيانية عن التاريخ وهي مستمدة من العلوم الطبيعية . (انظر جوزيف سليد «الانتروبيا» و «كوارث أخرى» في إ .مندلسون (محرراً) بينتشون ، انجلوود كليفس ١٩٧٨) . حقق ضربته الموفقة مع « في ٧٠ (V.70) (نيويورك ١٩٦٣) . واكتسب شهرة عالمية بفضل «قوس قزح الجاذبية» (نيويورك ١٩٧٣) .

كان اهتمام براون بالتحليل النفسي قد بدأ عام ١٩٥٣ وهو في الأربعين من العمر ، حين غدا استبدال مُثُل الصفقة الجيدة الليبرالية العليا بـ «السياسة القائمة على الخطيئة والكلبية واليأس» أمراً لا يطاق بالنسبة له(٧٥) . وفي معارضته لعمل فرويد المتأخر عن غريزة الموت والتحليل الثقافي مع النزعة التكيفية المبتذلة لدى آلة العلاج الأمريكية ، قام براون هذا باعادة قراءة التحليل النفسي في ضوء نيتشه وجاكوب بوهمه J. Bohme ورأى في امتداده التاريخي والانتروبولوجي :

مخرجاً من كابوس «التقدم» اللانهائي ، وعدم الرضى الفاوستي الذي لا حدود له ، مخرجاً من العُصاب الانساني ، مخرجاً من التاريخ... إذا كان الوعي التاريخي يتحول ، آخر المطاف إلى وعي تحليلي - نفسي ، فإن قبضة اليد الميتة للماضي على الحياة في الحاضر سوف تخف . وسيكون الانسان مستعداً لأن يعيش بدلاً من أن يصنع التاريخ ، لأن يستمتع بدلاً من تسديد فواتير قديمة وديون سابقة ، ولأن يدخل في حالة الوجود التي كانت هدف الصيرورة تلك(٧٦) .

كانت نظرة براون الى التاريخ والثقافة بوصفها درجة متصاعدة أبداً من العُصاب متناقضة مع كل من النظرة المتفائلة في عصر التنوير والماركسية على حد سواء ، عوضت عن افتقارها إلى يوتوبيا الحب والسلام بتحليق بيولوجي للحاجات ، وبقيت أسيرة شبكة الكَبْت والتصعيد المصاحبة لعملية الاجبار على العمل(٧٧) . انطوى تنظير براون بالذات على تأكيد غريزة الموت بوصفها سعياً إلى الانفصال ، جنباً الى جنب مع غريزة الحياة مع سعيها الى الوحدة . من هذه الناحية ، وفي محاولته للجمع بين البُعْد

٧٥- الحياة ضد الموت ، ص : ١٧ .

٧٦- المصدر نفسه ، ص : ١٩ .

٧٧- المصدر نفسه ، ص ١٤ ف ف . .

الرمزي والافتراضات المسبقة البيولوجية للتحليل النفسي ، بقي براون وفياً لفرويد . غير أنه كان مؤمناً بأن الصراع بين الليبيدو (الجنس) وبين غريزة الموت كان قد أفضي الى بناء التشاؤم العميق لدى فرويد الشيخ (العجوز) حول آفاق الثقافة الانسانية ، فحاول أن يتجاوز هذا الصراع ، مثله مثل الثقافة نفسها ، بفوضاها الاجبارية القائمة على التقدم وعدم الرضا .

توصل براون الى هذا الحل عبر مايبدو انعطافاً ثانوياً صغيراً . فبمساعدة كل من كوجييف ونيتشه وهيغل ، قام براون باعادة ترجمة الاستقطاب الغريزي - الذي كان فرويد قد رآه بحذر في ضوء نوع تفسيروي من الثنائية - كعلاقة جدلية (ديالكتيكية) . ومن خلال قيامه ، بعد ذلك ، بالجمع بين تاريخ الحياة لدى فرويد وبين فلسفة التاريخ عند هيغل ، فتح أفقاً برنامجياً واسعاً أمام وقف التقدم وهزيمة التاريخ[٧٨] . وهذه المؤازاة بين ديالكتيك غريزي قائم على تاريخ فردي نفسي جسدي من جهة وتطور ديالكتيكي يرتكز الى الثقافة والسيطرة البشريتين من جهة ثانية ، بدت وكأنها تقدم مفتاحاً للمستقبل ، مما قد يؤدي إلى إحداث تغيير معين في حياة الفرد - ولاسيما الغاء الكَبْت ، تحرير الجنس والعودة الى الطبيعة أيضاً ، إلى وقف المزيد من دفع الديالكتيك التاريخي . وحسب رأي براون فإن طاقة السيطرة الفاوستية كلها أعاقت عملية بلوغ الانسان السلم ، الوجود ، المتعة والموت الجليل بالتالي ، كما منعت تحلُّل الزمن التاريخي في رضى أبدي من

٧٨- المصدر نفسه وخصوصاً ص : ٧٧ ف ف . «الازدواجية الغريزية والديالكتيك الغريزي» . لقد تعرض طمس توسطات الواقع الاجتماعي في هذا الديالكتيك المجرد للطبيعة ، مما مهد الطريق لشعار «مارس الحب لا الحرب!» ولسائر الطوائف الصوفية ولوهم سلطة الزهور المثير للعواطف - تعرض للنقد من جانب هيربرت ماركوز في خاتمة لكتاب براون اللاحق بعنوان «جسد الحب» (نيويورك ١٩٦٦) ، الذي هو نص خلاصي مؤلف كلياً من اقتباسات تأملية .

شانه أيضاً أن يجعل قبول الموت أمراً ممكناً . ما من شيء ، سوى استعادة «حيوانية» الفرد ، قادر على شطب تلك الطاقة ، وهي الناجمة عن كَبْت الموت . وفي نهاية هذا الرأي الديالكتيكي الذي يشير بأن التاريخ نفسه يمكن التغلب عليه وهزيمته ، وهو رأي حاول أن يوضحه أكثر عبر نقد داخلي لنوع أستي من الثبات في الثقافة البروتستانتية والرأسمالية(٧٩) ، اهتدى براون إلى نوع صوفي من «انبعاث الجسد» يكون مستعصياً على الكبت والتاريخ والزمن .

زاد التأثير القوي لهذا الكتاب في حركة الاحتجاج بالولايات المتحدة الأميركية حِدَّةً جراء تبني بينشتون لنظرية الكبت الديالكتيكية الواردة فيه ، بالترابط مع منظور واسع مستند الى الانتروبيا قام بتوسيعه ، على غرار آدامز ، متجاوزاً الطبيعة ليصبح شاملاً تفسيرَ تاريخية المجتمع(٨٠) . وفيما كانت أشكال حركة الاحتجاج تُقَلَّد في العالم كله وتجري الافادة منها بوصفها الأداة المعبرة عن برامج محلية ، فإن أوربا لم تطلع على جذورها في نقد ثقافي سام إلى التغلب على قمع الموت ، وبالتالي على الفَرْض المتكرر للعنف المميت ـ عبر نوع من العودة إلى حيوانية الطبيعة إلا مع قَدْر غير قليل من الاندهاش في أحسن الأحوال . هنا أيضاً ، فيما كانت روايات بينشتون تُنْشَر وتُقرَأ خلال العقدين التاليين ، غدا العالم الخيالي القائم على نوع من الهروب من التاريخ ، مفعماً بالصور البيانية المأخوذة من الطبيعة والموت ، أكثر بروزاً ، بعد أن تحرر ومنذ وقت طويل من الحركة الوجودية

٧٩ـ «دراسات في النزعة الأستية» ، في كتاب «الحياة ضد الموت» ص : ١٧٩ ف ف .

٨٠ـ انظر المجموعة التي حررها هانز ايكتشادت : «النظام والانتروبيا ، حول المؤلفات الروائية لتوماس بينتشون» ، راينبيك ١٩٨١ ، وخصوصاً ترجمة لورنس سي ، وولفلاي : قوس قزح الكبت : حضور نورمان أو . براون في رواية بنيتشون الكبيرة» ، أعمال الرابطة اللغوية الحديثة ٩٢ ، ١٩٧٧ ، ص : ٨٧٣ـ ٨٨٩ .

للاحتجاج الفكري ـ الثقافي على ثقافة الحرب الباردة البروتستانتية ـ الرأسمالية لدى القوة العظمى الجديدة . أما في أوربا فإن الساعة كانت مربوطة بصورة مختلفة .

عندما بدأ الاتحاد السوفييتي بانتاج قنبلته الهيدروجينية في الخمسينات وتم تجريد حَمْلة نضالية في ألمانيا الغربية ضد اعادة التسليح النووية للبوندسفير لم تلتفت الأنظار إلا قليلاً إلى تشخيصات غونترغراس وآخرين حول آلة الموت التي باتت تُقحم البشرية في آلية قائمة على الكارثة(٨١) . ففي ذلك الوقت كان صوت كصوت كارل ياسبرز C. Jaspers هو الذي حظي بقدر أكبر من الاهتمام والآذان الصاغية بتأكيده على المسؤولية الانسانية وأشكال شجبه للتأملات «الروحية» غير القابلة للاجازة لدى أنبياء ما بعد التاريخ(٨٢) . ولكنْ منذ أواخر السبعينيات وصاعداً ، ومع تسارع سباق التسلح وتكشف أزمتي الطاقة والبيئة على نطاق واسع ، ظهرت أيضاً لهجة نبوئية بين العلماء وغيرهم في أوربا طبعت التصورات الفكرية ـ الثقافية للمستقبل بصور بيانية واستعارات وآراء مستمدة من العلوم الطبيعية(٨٣) .

استحضرت هذه التنبوءات نزوعاً منظماً تنظيماً منهجياً إلى الموت في المجتمع العالمي ـ سواء على شكل إبادة مباشرة («للنزعة الاعدامية») أم عبر تبديد الموارد غير القابلة للتعويض ونهبها من الأجيال المقبلة .

٨١ـ انظر الجزء (ب) من هذا الفصل .

٨٢ـ كارل ياسبرز ، «القنبلة الذرية ومستقبل الانسان» ، شيكاغو ١٩٦٣ ، ص : ٢٨٩ .

٨٣ـ طبع هذا أيضاً البنية التفسيرية لأولئك الذين انقلبوا ضد «تلك اللهجة المبشرة بقيام الساعة التي جرى تبنيها مؤخراً في عالم الفلسفة» ، من أمثال جاك دريدا في نص ورد ذكره من قبل تحت هذا العنوان . وعن اللهجة الموازية في الأدب انظر كتاب غونترا . غريم وآخرين .

وهكذا فإننا نجد مرة أخرى كلمة «الانتروبيا» المفتاحية وقد تم التعبير عنها في رؤى برنامجية حيث هامش المناورة بالغ المحدودية . ومثل هذه الرؤى مازالت تتمسك بمسؤولية الأفراد ، عبر مناشدة قابليتهم لأن يفكروا مرة أخرى ، لأن يعدّلوا من سلوكهم ، لأن يلتحقوا بآخرين في ممارسة المقاومة . غير أن العنصر المميز هو أن مثل هذه المسؤولية قلما يمكن توقعها من أولئك الذين هم «مسؤولون» فعلاً . فالسياسة والبيرقراطية والصناعة والجيش ليست ، في أحسن الأحوال ، إلا براغي في «الآلة العملاقة» التي لا تستطيع أن توجهها بصورة مختلفة حتى لو أرادت . إن سباق الأجهزة المتكلسة نحو الكارثة يجب إيقافه عبر مقاومة خارجية ومن خلال سحب الولاء ، بما يجعل أيَّ هامش يتم كسبه بهذه الطريقة قابلاً لأن يُستخدَم في سبيل ممارسة براكسيس جديد جذرياً .

عند نهاية هذه السلاسل من التداعيات يمكننا انتقاء ثلاث نبوءات مأخوذة من خلفيات متباينة تماماً ، ظهرت قبل عقد من الزمن أو حوله في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرانسا فتُرجمت منذ ذلك الحين الى اللغة الألمانية(٨٤) . وهذا سوف يتيح لنا فرصة الامساك بالدور

٨٤ـ كلمة «مترجمة : Translated» مقصودة بمعناها الحرفي في المقام الأول ، غير أنها صحيحة أيضاً عن الأفكار نفسها . انظر مثلاً الى الدور المركزي لمفاهيم «نزعة الابادة» و «الآلة العملاقة» في كتابات رودولف باهرو ما بعد الماركسية والبيئية الداعية للسلام : «الجنون !! منهجي»برلين الغربية ١٩٨٢ ، وخصوصاً : منطق الانقاذ : من يستطيع أن يمنع القيامة ؟ شتوتغارت ١٩٨٧ . منطلقاً من موقف أن «التاريخ آلية نفسية» ، يركز باهرو نقده على «المنطق الذكوري» المندفع نحو الموت عبر الأبوة ، عبر العلوم الطبيعية ، عبر النظام الرأسمالي ، عبر الآلة الصناعية العملاقة ، وعبر نزعة الابادة المرتكزة الى سباق التسلح وتدمير البيئة . أما آماله فمتركزة على كنيسة شاملة للعالم ، غير مرئية : للانسانية الموحدة ، كنيسة يحددها عبر العودة الى مفهوم غرامشي عن «نظام جديد» ـ محاولة لمجابهة تفكير السوق الايكولوجي عبر انجاب «أمير للمنعطف البيئي» يبقى قريباً من القواعد والجذور .

المركزي للصور البيانية المجترحة بصورة منهجية من الطبيعة والتكنولوجيا في تأمل نزعات الموت لدى المجتمع المعاصر أو تجنبها .

أولاً- في كتاب تَصَدَّر قائمة مبيعات الكتب ، كُتِبَ أساساً لصالح معهد أمريكي لتيارات اقتصادية ، قام جيريمي ريفكين Jeremy Rifkin بتطوير «صورة» جديدة لتفكك المدنية العالمية : «الانتروبيا»(٨٥) . فعلى غرار آدامز ، رغم الاقلال من استخدام الصور البيانية في البداية ، جعل ريفكين القانون الثاني لديناميات الحرارة أساساً لنظرية ديناميكية عن المجتمع . لم يتكهن بالموت الفيزيائي للحرارة ولا بالموت الثقافي الناجم عن التسوية الاجتماعية ، بل انطلق لبناء نوع من المادية التاريخية - التكنولوجية التي افترضت قابلية استهلاك القاعدة الطاقية أو المادية لأية تشكيلة اجتماعية . وكلما صارت الموارد أندر ، بات إجبار المجتمع على التحول إلى شكل آخر مختلف من استخدام الطاقة ، وبالتالي الى بنية اقتصادية جديدة مع ما تصاحبها من أشكال وقيم اجتماعية . استخدم ريفكين عبارة «منعطف الانتروبيا» للدلالة على هذه التحولات المحددة سلبياً . إن منعطفاً كهذا كان موجوداً بصورة مباشرة بالنسبة للمجتمع العالمي لأن وقود المستحاثات ومواد خام أخرى مفتاحية كانت تنفد ، واقتصاد النمو (بما فيه الزيادات السكانية) الذي هو سمة التشكيلة الماضية ، يستحيل انقاذه عبر الطاقة النووية لأن هذه ليست آمنة ولا عملية على مستوى عالمي . ليس أمام العصر الشمسي المقبل سوى خيار واضح : إما أن يتكيف المجتمع مع إيقاع تجدد الطبيعة بما ينطوي عليه ذلك من اختزال كبير لسكان العالم ، من عودة الى الزراعة ، ومن اعتماد التنظيم

٨٥- جيرمي ريفكين ، «الانتروبيا : نظرة عالمية جديدة» ، لندن ١٩٨٥ .

في إطار جماعات صغيرة مكتفية ذاتياً ؛(٨٦) أو محاولة الحفاظ على بُنى النمو الاجتماعي ـ الاقتصادي عبر تسريع التجديد البيولوجي القائم على هندسة الجينات (علم الوراثة وتقنيات هندسة المورثات الجينية)(٨٧) . ولدى الاختيار بين الجَنَّة البيئية (الايكوتوبيا) وبين كابوس عصر شمسي مصمَّم وراثياً (جينياً) ، لاذ ريفكين بنوع من الاستخدام «التأملي» للقانون الثاني الخاص بالديناميك الحراري(٨٨) . إذا كانت كرتنا الأرضية محدودة «في النهاية» وسوف تتحول إلى رماد بعد أن تبرد الشمس ، فإن لحظة الموت الانتروبية هذه تساعدنا على فهم حقيقة أن علينا أن نسلِّم بأن الحياة وبالتالي أية عودة إلى الأساليب الزراعية منتهية وغير مجدية ، لأن أية مدنية متركزة على الأشياء والنمو محكومة بالاخفاق .

ثانياً : يصل تحليل ادوارد تومبسون E. Thompson المطول والمعقول بالقَدْر نفسه لـ «نزعة الابادة» (exterminism) ، حيث يبدو سباق التسلح القوة المحركة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على حد سواء ، يصل أيضاً إلى عُقْدة في دارة قصيرة بين الطبيعة والمجتمع(٨٩) . فتومبسون الذي ترك الحزب الشيوعي في ١٩٥٦ وأصبح شخصية قيادية في اليسار الجديد ، والتزم بعد ذلك بحركة نزع

٨٦ـ ايرنست كالنباخ ، «الايكوتوبيا» بيركلي ١٩٧٥ .

٨٧ـ يقوم ريفكين بالتحذير من هذا بشكل خاص في «من سيتولى مهمة أداء دور الله ؟» ، نيويورك ١٩٧٧ .

٨٨ـ «الانتروبيا» ، ص : ٢٨١ .

٨٩ـ ادوارد تومبسون ، «ملاحظات عن نزعة الابادة ، المرحلة الأخيرة للمدنية» في نيو لفت ريفيو : نزعة الابادة والحرب الباردة ، لندن ١٩٨٢ . يشكل العنوان استخداماً ساخراً لعنوان كتاب لينين : الامبريالية : أعلى مراحل الرأسمالية» .

السلاح النووي الأوربية وحاول اقناع اليسار بضرورة عدم الانزلاق الى معاداة أمريكا عبر استخدام مفاهيم معاداة الامبريالية التقليدية - لأن الخطر يأتي بالتساوي من الاتحاد السوفييتي أيضاً . حتى وإن كان الأمر هناك مستنداً إلى عوامل سياسية هيكلية وايديولوجية ، بدلاً من الاعتماد على المجمَّع العسكري - الصناعي كما في العالم الغربي ، فإن الزيادة الحاصلة في انتاج الأسلحة تُمَيِّز النظامين كليهما ولابد من ارجاعها ، تحليلياً ، إلى جذورها . فالحرب الباردة التي دامت طويلاً قد طمست الفروق بين النظامين ، بما يلغي امكانية توقع أي تغيير أساسي عميق يأتي من الداخل على الطرفين كليهما .

لاشك أننا سنتوصل ذات يوم إلى تحليل شامل لجذور الحرب الباردة ، حيث تبدو دوافع الأطراف معقولة . غير أن الحرب الباردة تلك انقلبت ، منذ أمد طويل ، الى شرط متولد ذاتياً من شروط الحرب الباردة (نزعة الإبادة) ، حيث الدوافع المحركة وردود الأفعال والنوايا الخاصة بالحرب الباردة مازالت تؤدي أدوارها ، ولكن في اطار حالة عطالة عامة : وهي الحالة (وهنا أطرح سؤالاً آمل أن يجري دحضه) التي باتت مستحيلة القلب كاتجاه... فالاندفاع القائم على العطالة نحو الحرب (أو الصدام) ينشأ من قواعد متأصلة بجذور عميقة في صلب القوتين المتعارضتين . نميل إلى استبعاد مثل هذا الاستنتاج باستخدام مفاهيم تحدد المشكلة : نتحدث (كما فعلت أنا) عن «المجمَّع العسكري - الصناعي» ، أو «القطاع العسكري» ، أو «المصالح العسكرية» أو «لوبي السلاح» وهذا يشي بأن الشر محصور بمكان معروف ومحدود : قد يهدد بالانطلاق ، ولكنه خاضع لامكانية التقييد : فالشوائب لا تحيط بالجسد المجتمعي كله . غير أن المفهوم الأكثر معارضة ، ذلك الذي يجري استخدامه من قبل بعض الباحثين في موضوع السلام هو مفهوم التشاكل أو التبالر (التماثل في البنية

التبلرية) : «خاصية التبلور في الأشكال نفسها أو أشكال قريبة جداً .»... ومن وجهة النظر هذه لا تمتلك الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي اثنين من المجمعات العسكرية الصناعية : إنهما مجمعان عسكريان ـ صناعيان... والصدى التشاكلي جلي على المستويات كلها : في الحياة الثقافية ، والسياسية ، والايديولوجية قبل كل شيء... استخدم غريغوري بيتسون G. Bateson وهو متخصص بالعلوم الاجتماعية ، صورة مأخوذة من الأجهزة البيولوجية . «يتحقق الردع قصير الأمد على حساب تغيير تراكمي طويل الأمد... وحقيقة التغيير التراكمي من عنصر تهديد معين الى الآخر هذه هي التي تضفي على الجهاز صفة الادمان» . فالعدوان المحبَط «يرتد» حتى يطغى على ثقافات بكاملها ـ وعملية ادمان «نزعة الابادة» لا تتقطر إلا في اطار الايديولوجيا(٩٠) .

يحتوي هذا المقتطف المختصر ترسانة كاملة من الصور البيانية المستقاة من الطبيعة : صورة استحالة القلب التي باتت مألوفة لدينا من نظرية الحرارة ، وأخرى أبسط مثل التلوث ، الجسد المجتمعي ، التبلور ، الادمان أو التقطير . حتى «الدوافع» الماركسية تبدو هنا خادمة طيعة لغريزة الموت ـ أو للشر . فمفهوم التبالر المركزي ، وهو مأخوذ من الكيمياء ، يشير الى شكل من أشكال التبلور : «ظهور أشكال بلورية ذات زوايا بسيطة متشابهة ، في بلورات ذات تركيب كيميائي مختلف» . (قاموس بروكهاوس Brockhaus) . يضيف القاموس : «إن التبالر يشكل ظاهرة شديدة الانتشار» ـ ظاهرة شائعة وعامة مثلها مثل ظاهرة انتاج الأسلحة من قبل القوى العظمى . والخطر الغامض الذي تنطوي عليه هذه الظاهرة يذكّر بسلسلة مرعبة من الأمراض وانعدام الحياة اللاعضوي . ولكن السؤال يبقى :

٩٠ـ المصدر السابق ص : ٢١ـ ٢٢ .

إذا تم اخلاء الفضاء الاجتماعي بهذه الصورة في النبوءة ، أفلا تتعرض مناشداتها الداعية الى التغيير الاجتماعي والتدخل في شؤون المجتمع لاحتمال أن تذهب أدراج الرياح ؟

ثالثاً : لقد طرح ميشيل سير Michel Serre ، وهو عالم رياضيات يدرس تاريخ العلوم في السوربون بباريس ، سلسلة كاملة من المساهمات متعددة المدارس والاختصاصات كأساس لدور بنّاء تضطلع به الفلسفة في مجتمع المستقبل ، غير أن دوراً كهذا لا يمكن ، حسب رأيه ، أن يترسخ إلا إذا انسحبت العلوم من ميدان السياسة ؛ وإلا فإنها ستَنْجَرُّ حتماً الى قلب نظام «حكم الموت» (التاناتوكراسيا Thanatocracy) . يجري استحضار ترجمة سبر لنظام «حكم الموت» هذا في نص مطوّل مفعم بالصور الملحمية الطروب - فجميع القادة السياسيين قلدوا هتلر في تعاملهم مع وسائل التدمير الشامل . وفي نقطة المركز من هذا النظام يقف اندماج السيطرة والعلوم في آلية «المجمّع العسكري - الصناعي» الذي حذر منه في الخمسينيات شخصية مرموقة مثل شخصية الرئيس ايزنهاور .

في الأحوال كلها تقريباً نجد اليوم أن واضع البرامج هو الذي يمسك بزمام الأمور في وزارة الموت . لذا فإن لتاريخ العلوم اتجاهاً ، توجهاً ، غاية وحيدة . يمكن اثبات ذلك بالبرهان . لم يعد ثمة أي تاريخ للعلوم لأن مسارها بات الآن محدداً ومحتوماً إلى أقصى الحدود . لقد ترك العلمُ التاريخَ وراءه . لقد دخل العلم حقبة تنتمي الى مابعد التاريخ . باتت العلوم أسيرة في قبضة غريزة الموت . . قامت قوة الموت باختطاف المعرفة واغتصابها . تتم إعادة النظر بالأسباب الاقتصادية الاستراتيجية أو السياسية العارضة ؛ تجري دعوة الماضي الأقرب ، دراسة الصراع ، قوالب اللعبة ، سلوك الفئران بغية فحصها من جديد... لا تنوع عبر البلدان والأنظمة : فسلسلة الصناعة والعلوم

والاستراتيجيا حيثما وكيفما اتخذت شكلاً لها ، تسارع الى الانتشار بالانبثاث وتغزو الفضاء ـ الفضاء الاقتصادي ، الفضاء السياسي ، الفضاء باختصار . إنها سلسلة النظرية المحمية بأفضل الأشكال والاجراءات الأشد فعالية لصالح الأهداف التسلطية والامبريالية الأقوى الزاماً . أو بعبارة أدق : إنه التحالف المحكم بين العقل النظري والعقل العملي والعقل الغائي القائم على الحسابات والتنبوءات . يجري اختزال أشكال العقل كلها إلى العقل . إن الثلاثي الأقوى جبروتاً والأكثر انتاجية الذي سبق للتاريخ أن اجترحه منذ بدايته... إن المحرك المقيت للتاريخ الجديد ، هذا المحرك الذي ينتج ذاته من خلال ابتلاع كل الأشياء لصالح نموها القياسي . . هو ثلاثي : التجديد النظري ، خطوط الانتاج الصناعية ، المباراة الاستراتيجية . كل منها يعيش على الآخر . وهذا المثلث لا يتغير على الاطلاق لأنه يشكل النسيج المطلوب لجملة معينة من المنتوجات . أما أولئك الذين يملكون المنتوج ـ الصاروخ العابر للقارات ، القنبلة الحرارية ـ النووية ، السلاح الذي يدور في الفلك ـ فيتعين عليهم بالضرورة ترسيخ المثلث في قلب البنية التحتية(٩١) .

مرة أخرى نجدنا أمام لوحة الصور متعددة المدارس والاختصاصات الجريئة التي تستمد مرجعيتها من الملامح النبوئية لفرانكنشتاين الذي تحدى الفوك(٩٢) . فالنظام هنا يتحرر من سائر الحاجات والقيم والتأثيرات

---

٩١ ـ ميشال سير «لاتاناتوكراسي» (نظام حكم الموت) ، هيرمز ٣ لاترادوكسيون ، باريس ١٩٧٤ .

٩٢ـ هذه الملامح الملحة التي تبدو لعالم الطبيعة الملتزم بالجمهور قد أصبحت سمة مميزة في العالم كله ، يمثلها في ألمانيا علماء فيزياء أو فلاسفة مثل روبرت هافيمان (غداً : المجتمع الصناعي عند مفترق طرق» فرانكفورت ١٩٨٢) ؛ سي . ف . فون فايتزاكر «الزمن يلح» ، ميونيخ ١٩٨٧ ؛ وكلاوس ميشيل ماير ابيش (دروب تفضي الى التصالح مع الطبيعة ، ميونيخ ١٩٨٦) .

الانسانية كلها ؛ إنه المحرك الذي لابد لقلبه المتسارع أبداً للطاقة من أن يفضي إلى الانهيار المدمر للأشياء كلها أو الى الاستنزاف النهائي أو الأخير . فغريزة الموت التي طورها فرويد كأطروحة جينية (وراثية) مرتبطة بغرائز الأنا ، اتخذت لنفسها شكل المرض الوبائي الذي «يلوِّث» الأنا العليا الثنائية القائمة على السلطة والمعرفة .

وفي تأمل مجازي اضافي آخر - أعني أن المحركات تستطيع أن تكون في الأماكن كلها ولكنها عاجزة عن أن تكون الأشياء كلها - يفتح هامشاً صغيراً للمناورة . فايروس الحياة البسيطة جنباً الى جنب مع فضول أولي مضبوط علمياً في الحوار ، من شأنه أن يوفر امكانية القفز من الآلة الغاضبة ، لامكانية عدم تلبية حاجتها العلمية الى الطاقة ، ولاعادة إطالة أمد الحياة بوصفها رحلة عودة على الطريق إلى الموت . إنها مقاومة الطاقة الحيوية التي عارض بها لوثر ، عند بداية الحقبة البرجوازية ، العقيدة الألفية لزمانه قائلاً : «حتى لو علمتُ أن العالم سينتهي غداً ، فانني سابقى مصراً على غرس شجرة التفاح الصغيرة التي أملكها اليوم!(٩٣)»

٩٣ـ لدى اشتراك الجمهورية الاتحادية بالمعرض العالمي الأول ، ذلك الذي أقيم في بروكسل عام ١٩٥٧ تحت نموذج عملاق لذرة (اتوميوم Atomium) ، نظمت جناحها تحت شعار لوثر هذا . كما أن هذا الشعار كان هو الرمز ، وقد أوحى بعنوان الأثر القيامي (نسبة الى يوم القيامة) لعالم البيئة هويمار ف . ديتفورث «دعونا نزرع شجرة تفاح ، لقد حان الوقت!» ، هامبورغ ١٩٨٥ - والفصل الأخير من المؤلَّف يحمل عنوان : «نهاية التاريخ» .

تلخيص لما سبق

ليتني أدري ماقد يعنيه
أن أكون بالغ الحُزْن
في أعماق قلبي !
قصةٌ تنتمي الى أزمان
سحيقة في القدم
ترفضُ بعناد
أن تغادر رأسي(١) .

هنريش هاينه

بدأت هذا الكتاب بدعوة الى تعقب روح العصر ، وبات من المحتمل الآن أن يشعر القارئ بالاضطراب أو الارتباك نتيجة حركتنا الرائحة الغادية الى خلف والى أمام . كورنو ، نيتشه ، فيبر ، فرويد ، هل هؤلاء هم العالم المعاصر حقاً ؟ تعالوا ، إذن ، نستعرض بإيجاز ، سائر الطرق ، العريضة منها والضيقة الفرعية ، التي اتبعَتْها رحلتنا . انطلقنا من القفزة من أقصى يمين الطيف الثقافي ـ الفكري الى أقصى يساره التي أنجزها مفهوم «مابعد التاريخ» في الجمهورية الاتحادية بعد «الخريف الألماني» . ثم تلمسنا أهمية وجذور تشخيص للعالم المعاصر بات يقض مضاجع الكثيرين بمن فيهم المؤرخون ألا وهو : أن التاريخ قد انتهى ، وراح يتلاشى في اتساق أو تماثل مستقبلي حدده غيهلن عام ١٩٧٢ على أنه «امكانية الحركة على قاعدة ثابتة» .

١ـ هاينه ، «دي هايمكيمر» ، المؤلفات ، برلين الغربية ١٩٦٣ ، ص : ٨٣ .

قادتنا الاشارات المألوفة للأدبيات الى كورنو ، ولكننا لم نجد عنده أياً من المفهوم كمفهوم أو مزاج اليأس الذي ظلله في فترة ما بعد الحرب . فكورنو ، على النقيض من ذلك ، تنبأ بتحديث للمجتمع من كبت الغرائز على يد العقل ، بما يفضي الى توفير امكانية التغلب على المدى الخطر للصدفة في التاريخ السابق . لا مستقبل لتثبيت التاريخ واعتقاله ، وقد بات النظام العلمي الآن قادراً على التطور لموازنة الجماهير . إن بُنى مستقرة سوف تتبلور في مجتمع عالمي يمكن تحديد معالمه عبر صور مجازية مستمدة من الطبيعة والتكنولوجيا . بدأنا رحلة العودة الى الحاضر بهذه الاشارات الثلاث - وفي تحليق حداثي رائع إلى أمام ، أشبه بتحليق فوضوي يونغر - استطعنا ملاحظة أشكال نموذجية عن هذه الجوانب المحددة .

اذا عاينا سلاسل التداعيات الثلاث هذه وهي مخزونة في الذاكرة الثقافية - الفكرية - أجزاء كثيرة منها مازالت (أو عادت ثانية) بالغة التأثير بصرف النظر عن أصلها التاريخي . فإننا ، عندئذ ، نستطيع أن نطرح عدداً من الملاحظات الأعم . كانت المداخلات التي جاءت خلال الفترة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية بالغة الوضوح والاثارة[٣] . فمما يميز المجموعة الأولى من المؤلفين هو أنهم ينطلقون من مواقف أو اكتشافات فردية ثم

٢- أرنولد غيهلن «نهاية التاريخ» في أنيبليكه ، فرانكفورت ١٩٧٥ ، ص : ١٢٢ .

٣- كان التركيز الرئيس هنا على المساهمات الأوربية . أما المؤلفون الأمريكان من عقد الخمسينيات مثل زايدنبرغ ومموفورد وبراون فهم متأخرون ومبكرون في وقت معاً ، بالمقارنة : أي يلتحقون بركب النقاشات الأوربية في أوائل القرن العشرين وأواخره على خلفية صعود الولايات المتحدة كقوة عظمى وكنموذج ثقافي عالمي . وعملية الخروج من التاريخ بالنسبة لهم ، لا تبدو كتجربة ضياع لدى فئات نخبوية مثقفة بمقدار ما تبدو برنامجاً نقدياً لثقافة بديلة .

يطورون وجهات نظر وأفاقاً بعيدة المدى وجذرية . أما الرابطة بينهم فلا تكمن في مستويات الرأي أو المعلومات ، بل في وجهات النظر والتحايثات الثقافية ـ الفكرية التي تظهر عبر عدد معين من الرموز وكلمات الشيفرة : مثل الاشارات الى تراث نيتشه وشوبنهاور بوصفه نقيضاً للتنوير وفي قلب هذه الرؤى نجد نوعاً غامضاً من الانبهار بالعقلنة العلمية ، مدفوعة بالحاح الى أمام ومصَوَّرة على أنها خطر يتهدد قوى حياة الفرد في الوقت نفسه . إن عملية اسباغ صفتي الديناميكية والتسوية على المجتمع تنزع الى افراز الزام بنيوي بلا حياة والى وَصْم التقدم على أنه انحطاط وهلاك . واذا ساق هؤلاء المؤلفون شيئاً ضد مثل هذه النزعات ، فإن ذلك الشيء متجسد في الآمال (اليائسة غالباً) المعقودة على القوى الحيوية للفرد ، على العبقرية ، على الكاريزما أو الايروس مع أخلاق قائمة على المسؤولية . باستثناء حال فرويد ، كانت العوامل المؤهلة لتحقيق مثل هذه الآمال كامنة لا في صفات وسمات كل فرد في الجمهور ، بل في مواصفات فرد عظيم ، ربما جماعة أو طليعة سياسية أو ثقافية ـ يبرز من قلب الجمهور ثم يقوده أو يتحكم به . وهؤلاء المؤلفون ، بلا استثناء ، هم مثقفون برجوازيون متشددون غزيرو الانتاج ، يعتبرون أنفسهم ، بحق ، من هذا النوع من الأفراد أو الجماعات القيادية . ففي نهاية الحرب العالمية الأولى طرح توماس مان نفسه نموذجاً لمثل هذا العضو الارستقراطي في الطبقات المثقفة ، مستخدماً معادلة : «الأخلاق ، العقلية البرجوازية ، الانحطاط ، تنتمي إلى أصل واحد ؛ إنها واحدة»(٤) .

٤ـ توماس مان ، «تأملات انسان غير سياسي» (كُتبِ عام ١٩١٧ ، نيويورك ١٩٣٠ ، ص : ٧٤ . في هذا الفصل عن «العقلية البرجوازية أو المدينية» (Bürgerlichkeit) ، تكون الصورة الذاتية لهذه الطبقة ـ بما فيها خصوصاً التشكيل الألماني مع إشاراته الى شوبنهاور ، فاغنر ونيتشه ـ متركزة كما في المرآة الحارقة .

أما المداخلات المنتمية الى العقود الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية فتبدو أكثر تنوعاً بما لا يقاس من حيث الخلفية السياسية والحياتية . فمرجعياتها الفكرية المتباينة كثيراً ، وهي مرجعيات تشير في المقام الأول ، وبصورة علنية أكثر أو أقل ، إلى كل من هيغل ونيتشه ، ولكنها تشير أيضاً إلى كانت Kant وماركس وشبنغلر وهايدغر ومدرسة فرانكفورت والخ . . . لا تبدو منطوية إلا على أهمية نسبية ، بل وحتى عشوائية متعسفة الى حدود معينة(٥) . أما ماهو حاسم فعلاً فنجده متمثلاً بعاملين اثنين :

أولاً : يرى هؤلاء المؤلفون أنفسهم في مواجهة سيرورات بنيوية مجهولة الهوية يحس الأفراد ازاءها أنهم عاجزون تماماً مما يجعلهم يُضْفون عليها صفة الجبروت ، كما يسبغون عليها ، دون مناقشات تفصيلية ، صفة الشرعية عبر شبكة من التلميحات والاستعارات . فهذه السيرورات تكتسب جملة من المواصفات والميزات مثل الاستقلالية ، البروز ، الديناميكية ، استحالة الارتداد والقدرة على تفكيك القيم الثقافية وحلها في بوتقة لازمانية من العشوائية . وهكذا تصبح البُنى المستقلة الآن لـ «الأنظمة الثانوية» (فرير) أبدية - وهذا خروج على كلٍ من مفاهيم الزمن الأخير العائد الى ماقبل الحرب والأطروحة المعاصرة القائمة على امكانية الاعدام الذاتي للجنس البشري أو بيئته(٦) . هكذا فان الذاتية والمصادفة والواقع القابل للادراك تغدو متلاشية .

٥- يبدو لي أن فَضْلَ كتاب هنري لوفيفر «نهاية التاريخ» باريس ١٩٧٠ ، الذي لم يجر تناوله بالنقاش ، في المانيا على الأقل - كان متمثلاً في أنه بعد ١٩٦٨ قام بتحديد التلميحات الباهتة الى فلسفة التاريخ لدى كل من هيغل وماركس ونيتشه ، وبتمهيد الطريق أمام فهم تاريخية الحياة اليومية .

٦- من المثير أن البُنى الاجرائية تبدو ، في معظم الحالات - مع استثناء أندرس وميشيل -

ثانياً : أما العامل الثاني فهو شكل من أشكال المزاج أو الموقف السوداوي الميلانخولي الذي اعتبره وولف ليبينيز الكونتراباص الفردي في تاريخ المجتمع البرجوازي(٧) . تبدو خصوصيتها متمثلة باللحن الحاد الذي رافق الكساد الى السوق منذ الحرب العالمية الثانية - إما بجملة امبراطورية الرفض من الملامح أو مع فيض من الصور المتدفقة من قلب منظومة فكرية متداعية وممزقة . والاحباط الذاتي هنا يمكن أن يتحول الى الخارج ، ويتخذ «طابعاً» فكرياً متميزاً لأنه موقن بأن أجزاء واسعة من جيله قد تجاوزته من حيث حساسيتها . لم يعد معظم المؤلفين المعنيين يرون أية فرصة تمكّن شخصية عظيمة أو طليعة ما من تغيير العلاقات الانسانية ؛ غير أن تلك هي الزاوية التي ينظرون منها الى هذه العلاقات(٨) . إنهم لا يضعون خططاً جديدة للعمل أو

- سير - كاحتلال ثابت ، بلا مقاومة أو اعتراض ، للعالم من جانب البلدان الصناعية . وبعبارة أخرى ، يندر أن يظهر أي بديل في مثل هذا الفكر : سواء تلك المنبثقة من بلدان أخرى في العالم ، أم تلك المنطوية على الابادة الجسدية ، أم تلك التي تعطي الفرد هامشاً ذا شأن للثورة النظرية أو العملية (كما في تأملات بروكنر المذكورة من قبل) . أما المساهمات اليمينية (غيهلن ، يونغر ، ومن لف لفهما) فتفترض أن التقاليد الأوربية القديمة ستبقى رائجة ، حتى بعد حصول كارثة كبرى .

٧- انظر وولف ليبينيز ، «الميلانخوليا والمجتمع» ، فرانكفورت ١٩٦٩ . إنه عمل ينتهي حقاً بنوع من معاينة أفكار غيهلين عما بعد التاريخ ، والتبلور الثقافي . انظر أيضاً مساهمة بعنوان «الباستيل في مابعد التاريخ» في كتاب : علم الجمال والسلطة ، غوترسلوخ ١٩٧٠ ، تحرير مارتن يورغنس وولف ليبينيز .

٨ - في «نهاية التاريخ ؟» (ص : ١١٧) يعبر غيهلين عن هذه الحساسية حين يتكلم عن «كبار مؤرخي» الأزمان القديمة : «عليك أن تقف في مكان مرتفع لترى الأشياء . إن موضوعاتهم هي نهاية الانتصارات العظيمة حقاً ، كلمات تأبينية حول ما ضاع ، وشيء من الرؤيا في أعماق الانحطاط الشامل الطليق» .

التحرك ، بل يكتفون بالنُّواح حزناً على أن القديم بات غير ذي أهمية . يعزف معظمهم عن رَوْز الدور الباقي لذاتية الجماهير في إطار البُنى الجديدة ، لأن ادراك الذات في إطار ذلك الجمهور أمر غير وارد بالنسبة لهم . إنهم عاجزون عن رؤية أي شيء متحركاً حيث لم يعد الفرد أو الطليعة القياديين فاعلين . يعلن أنبياء البرجوازية يميناً ويساراً أن التاريخ قد انتهى .

لابد لهذا من أن يذكرنا بأن الأسئلة التي طرحناها قبل التوجه الى كورنو مازالت حيث هي بدون معالجة . أيُّ تاريخ هو الذي انتهى ؟ وفي جوقة الأصوات التي تحدَّثُنا عن حدود المجتمع البرجوازي في القرن العشرين ، من هم الأنبياء الذين يقولون فعلاً إن «التاريخ» قد انتهى ، وإننا ما عُدْنا نستطيع أن نتوقع حدوث أي شيء ذي أهمية ؟ ما علاقة ذلك كله ، أخيراً ، بالمؤرخين ؟ سوف يتعين تناول هذه الأسئلة والرد عليها في النهاية .

استعداداً لهذه المهمة يجب علينا أولاً أن نعاين الصور المجازية الدارجة الآن في سيرورة تطور مابعد التاريخ بالذات . تعالوا ، إذن ، نأخذ اثنتين من الصور المجازية عن العلاقة بين الفرد والتاريخ : إحداهما من فلسفة التاريخ الكلاسيكية ، والثانية من الأدب المعاصر . ومسارا البحث المتمايزان هذان سوف يتقاطعان حول زمن الحرب العالمية الثانية حيث يتم تجسيدهما في صور لحركة تعتقل الذات الفردية وتدفع بها وتهدد بتطويقها ، أو أخرى تقف في طريق المحاولات الرامية إلى وقفها . ونظراً لنُدْرة الصياغات الجوهرية حول «مابعد التاريخ» فإن من المؤمل أن تُرى هذه الصور متضمنة مادة تفسيرية أكثر تعقيداً . وهذه المرة لن أقوم بانتزاع أية أجزاء أو مُزَق من الأطروحات من إطارها الأوسع ، بل سأحاول ، على النقيض من ذلك ، أن أُرْجِع أجزاء النصوص الأدبية الى سياقاتها (مع ايراد المراجع كلها) .

في الحالة الأولى سنتناول انسان هيغل ممتطياً جواده ـ حدث تاريخي وصورة بيانية عن عملية الاختراق في إحدى فلسفات التاريخ ـ ثم نتابعه

عبر إحدى النسخ الأبرز في القرن العشرين . وهذا التفسير «اليساري» في إطار إحدى المدارس الماركسية أساساً ولكنه متأثر أيضاً بهايدغر ، تعرض بعد ذلك للمساءلة من جانب التاريخ في فترة الحرب العالمية الثانية . أما في الحالة الثانية النقيضة - حالة طريق الغابة لدى ايرنست يونغر ، فإن ملاذاً لحماية الفرد من السلطة سيجري التماسه وتعقُّبُه الى النهاية في الأدب المعاصر وصولاً الى السياق الذي نشأ منه . سنجد أنفسنا مرة ثانية في فترة الحرب العالمية الثانية ، ولكن الأمر الآن سيكون متعلقاً بقراءة «يمينية» للعصر الذي يجري فيه التعامل مع تاريخ الحياة من قِبَل مثقفين بارزين ينتمون الى «الثورة المحافظة» . أخيراً ، سنعاين اثنين من المثقفين الأوربيين في حالة زمانهما المتطابق مع ملاذ «طريق الغابة» والذي قاما بتطوير الفكرة الحديثة القائمة على الخروج من التاريخ في اطاره . كان أحدهما منظِّراً اشتراكياً وسياسياً سابقاً من بلجيكا ، والثاني صحفياً فاشياً سابقاً ومنظِّراً ليبرالياً فيما بعد من فرانسا ، قاما ، كلاهما ، بتغطية المسار المشترك في الأزمة الاقتصادية العالمية وتجارب العمالة وحياة المنفى . وهكذا فإن سلسلة من الاشارات المربكة ستتكشف أمامنا ، غير أننا سنصبح أيضاً واقفين على حقيقة مثقف من نمط خاص يجمع بين العمليين السياسي والنظري ، مثقف يمكن وصفه بشيء من التحفظ والبعد عن التشدد ، بـ «الهيغلي الارادوي» . ومن السمات المميزة للبحث العام عن المعنى في تلك الأيام ، أن هذا النمط خلَّف وراءه تفسيراً عاماً مماثلاً لاخفاقه على أنه خروج من التاريخ بصورة عامة .

كانت ثمة شبكة كثيفة من المجابهات والعلاقات بين المثقفين الألمان ونظرائهم الفرنسيين - منذ أيام الجبهة الشعبية مروراً بسنوات التعاون والعمالة والتحرير وصولاً الى مشروع مارشال . وجميع الشخصيات الرئيسة تقريباً الذين نقوم هنا بمعاينة صورهم المجازية عن التاريخ ، التقوا وبقوا على صلة ، بصرف النظر عن مواقعهم السياسية . كانوا طبقة لذاتها ،

وشكّلوا ، في فترة ما بعد الحرب ، نوعاً من المدرسة السرية المخترِقة للحدود الفئوية(٩) . لذا فان القارئ يُنْصَح بأن يتذكر شَبَكَة الأسماء التي سترد في النص والهوامش بما فيها تلك الواردة في الملاحظات في الفصل السادس عن «ملاك التاريخ» لبنياميت الذي يبرز بروزاً استثنائياً حاداً من نص يدور حول مفهوم التاريخ هو نص بالغ الغنى بالصور عموماً . وهذا النص يجب أيضاً وضعُه على خلفية العلاقات بين المثقفين الفرنسيين ونظرائهم الألمان في ١٩٤٠ ، ولكنه يقدم صورة تخطيطية عن تصور وفهم أو استيعاب للتاريخ مختلفين عن تشخيص ما بعد التاريخ النموذجي . لا ينطوي النص على منظور واسع وطاغ ، بل يركز على المستوى الضيق ، على الفرد وتجربة التذكر أو الاستعادة . ومن شأن النص هذا ، بالتالي ، أن يشير الى درجات من الحرية ليست متاحة في تشخيص مابعد التاريخ ، عدا عن كون تاريخ تأثيره اللاحق ، هذا التأثير الذي لم يتجاوز حلقة بالغة الضيق في أيام الحركة الطالبية ، ظل ، بصورة تكاد لا تُقاوَم ، يقحم معنى النص في قالب ما بعد تاريخي . تماماً كما أن صور النص المجازية تبرهن ، لدى معاينتها بدقة ، على أنها أقل غموضاً من مفسريها ، نرى الكلمات نفسها عصية على قراءات النشطاء الخائبين من المثقفين ؛ تشير بالأحرى ، مرة أخرى ، الى البدائل المتواضعة من التصور والتوجه التاريخيين اللذين ينفتحان أمام أولئك الذين لم يصابوا بالعمى تحت تأثير أخيلة العَظَمة المُبْهِرة .

---

٩ ـ ستكون الأمثلة متمثلة بحلقة كارل ايرباخ شميت في الجمهورية الاتحادية أو بمانقله الكساندر كوجييف عن هيغل وهايدغر الى فرانسا .

التاريخ - المصائر وبعث الإله :

صور مجازية عن تأثير التاريخ

آ ــ انسان هيغل ممتطياً جواده

إن الحاضر هو عَقِب آخيل فلسفة التاريخ . فالأنبياء الذين يتطلّعون الى أمام أو إلى الوراء يتكئون على غموض اشارتهم الى الواقع ، وبالتالي على أفق التفسير المقيد حتماً بتقلص التعبير ذي المعنى . غير أن الحاضر يتضمن إغواء الملموسية . لعل أشهر تعبير عن ذلك نجده عند هيغل الذي هلّل ، وهو في أوج حياته الفكرية ، للدولة البروسية في فترة اتسمت بالرجعية باعتبارها تحققاً للتاريخ ، ولكنه ، وهو في شبابه ، كان متعاطفاً مع الثورة الفرنسية[1] . ونظراً لأن هيغل نجح في الحفاظ على نظامه الديالكتيكي شديد العمومية والمرونة بما أتاح للطرفين في المانيا على الأقل ، فرصة الشعور بأنه معبّر عنه في اطاره ، فإن من شأن تاريخ تأثير هذا النظام أن يكون طويلاً ، ومتعدد الألوان . فيما بين القطبين ، حين كان قد انجز لتوه «فينومينولوجيا العقل» في يينا بوصفه الطرح المنهجي الأول لفلسفته التاريخية ، تعرض هيغل للتأثر الشديد بإغواء الحاضر الملموس . أو ، بعبارة أدق ، مر به هذا الحاضر المبهر ممتطياً جواده متجسداً بنابوليون ، الذي رآه هيغل آنذاك ناشر انجازات الثورة الفرنسية . فعشية معركة يينا

---

١ ـ يفسر هابرماس الدافع العميق لهذه الانتهازية على أنه انحراف تعرضت له فلسفة فردية للوعي لأنه ، هذا الوعي ، ظل مفتقراً الى الديالكتيك التاريخي ، المؤهل لأن يصعّده في شخصية سياسية سامية . «خطابات الحداثة الفلسفية» .

كتب لأستاذه الخاص يقول : «رأيت الامبراطور ، روح العالم هذا ، ممتطياً جواداً عابراً المدينة في رحلة استكشاف ريادية . إنها لتجربة رائعة حقاً أن ترى فرداً كهذا ، متركزاً على نقطة واحدة ، ممتطياً جواداً ، منشوراً على العالم ، متولياً سيادته . وبعد ملاحظة تراجُعِ البروسيين يتابع هيغل ليقول : «إن مثل هذا التقدم من يوم الثلاثاء إلى يوم الاثنين ، ليس ممكناً إلا بالنسبة لهذا الانسان الخارق للعادة ، هذا الانسان الذي يستحيل ألا يثير آيات الاعجاب(٢) .»

ثمة ما يبرر اشتهار هذه الملاحظة عن روح العالم على ظهر الجواد هذه الشهرة الواسعة : فهي لا تكتفي بإظهار اهتمام هيغل وانبهاره السياسي بالسلطة والقوة ، بل تبين أيضاً هوية الشخص الذي اعتبره آنذاك رائداً طليعياً لروح العالم . إذا كان العقل مخلصاً للتاريخ نفسه ، فقد ترتب عليه أن يستبدل جواده بعد واترلو على أبعد تقدير . لذا فإن من غير المفاجئ أن هيغل ، وقد أحسَّ بأن روح العالم باتت واعية لذاتها في أفكاره هو ثم لبست لبوس أوروبا بوصفها «نهاية التاريخ بالتحديد» ـ ظل تواقاً لأن ينتقل من الجنوب إلى مركز النفوذ الصاعد في برلين (بؤرة أعظم أصلاً) وراح يطري واقع هذه السلطة بوصفه واقعاً معقولاً وعقلانياً . من المؤكد أن هذا الانتقال ساهم في واقع بقاء تأثير هيغل محصوراً خارج ألمانيا حتى جرى تدويل ديالكتيكه بطريقة منهجية عبر وساطة الماركسية .

على أية حال ، كانت هذه الوساطة ، جنباً إلى جنب مع الطرفة الدائرة حول روح العالم على ظهر جواد ، ذات أهمية بالنسبة للاهتمام بهيغل الذي تطور ، بادئ الأمر ، في فرانسا في منتصف هذا القرن . بدا هذا الانعطاف مع سلسلة متواضعة من المحاضرات حول كتاب هيغل «فينومينولوجيا

---

٢ ـ «من هيغل الى نيتهامر» ، ١٨٠٦/١٠/١٣ ، في ج .ز .ف . هيغل فيلت تسايت تسفيشت يينا اوند برلين» تحرير هاتموت زينسر ، فرانكفورت ١٩٨٢ ، ص : ٥٨ .

العقل» في مدرسة باريس العملية للدراسات العليا ، استمع اليها في الفترة الممتدة من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩ كوكبة من نجوم المستقبل في الثقافة الفرنسية فيما بعد الحرب(٣) . كان المحاضر روسياً في المنفى هو الكسندر كوجييف (أو كوجيفنيكوف (١٩٠٢ ـ ١٩٦٨) على الأصح ، أحد أولاد أخوة الرسام كاندينسكي) . حاول كوجييف هذا ، لدى تعرضه لقوة نظريات ماركس وهيغل في التاريخ خلال ثورة اكتوبر ، عبثاً ، أن يكتشف المزيد عن هذه النظريات لدى دراسته للفلسفة في ألمانيا في العشرينيات . ولكنه ، بدلاً من ذلك تعلَّم اللغتين السانسكريتية والصينية ونال شهادة الدكتوراه تحت اشراف كارل ياسبرز على دراسة أجراها عن فيلسوف روسي في التاريخ والدين(٤) .

صرح كوجييف فيما بعد قائلاً : «حاولت قراءة هيغل . قرأت فينومينولوجيا العقل أربع مرات من الغلاف إلى الغلاف ، مستغرقاً كلياً فيما قرأت . لم أفهم كلمة واحدة» ، وبعد انتقال كوجييف إلى باريس وفقدانه دعم عمه المالي ، دُعي إلى القاء سلسلة محاضرات عن هيغل . «قَبِلْتُ الدعوة . قرأت فينومينولوجيا العقل مرة أخرى ، حين وصلت الى الفصل

---

٣ ـ بمن فيهم رايموند آرون ، جورج باتاي ، أندري بريتون ، بيتر فيسار ، جاك لاكان ، روبيرت مارجولين ، موريس ميرلو بونتي ورايموند كينو (الذي يبدو مع كل من باتاي ولاكان ، أنه كان الطالب المفضل لدى كوجييف) . بعد الحرب كتبت المحاضرات ونشرت بعنوان «مقدمة محاضرة عن هيغل» ، ترجمها جيمس نيكولز ونشرها آلان بلوم ، ايثاكا ، نيويورك ١٩٦٩ .

٤ ـ عن صلات كوجييف وتاريخه السابق انظر ميشيل س .روث «المعرفة والتاريخ : انبعاث الهيغلية الفرنسية من الثلاثينيات وحتى فترة ما بعد الحرب» ، برينستون ١٩٨٨ ، «الحق الطبيعي ونهاية التاريخ : ليوشتراوس والكسندرو كوجييف» ، ريفيو دوميغافيزيك إي دومورال ٣ (١٩٩١) .

الرابع أدركت أنه يشير إلى نابليون . بدأت محاضراتي . لم أحضِّر أي شيء مسبقاً : كنت أقرأ وأعلق ، ولكن كل ما قاله هيغل بدا لي واضحاً . نعم ، كان هذا يمنحني متعة فكرية غير اعتيادية .(٥)»

يقدم باتاي Bataille وصفاً لجمهور المستمعين الى محاضرات كوجييف فيقول : «كانوا مقطوعي الأنفاس ، مسحورين . . مصعوقين ، ذاهلين ، مسحوقين .(٦)» أما كوجييف فقد كان «راوية موهوباً جداً» حسب

---

٥ ـ مقابلة مع جيل لابوج (أيار ١٩٦٨) حول «هيغل ، نهاية التاريخ ، ونهاية الخطاب الفلسفي» ، الكتاب السنوي الألماني ـ الفرنسي ـ ١ ، فرانكفورت ١٩٨١ .

٦ ـ أوردها جان لوك بينار ـ ليجري «الكسندر كوجييف : حول تلقي هيغل بفرانسا» وبيرند ماتيوس : جورج باتاي : آينه تاناتا غرافي (علم الموت) ، المجلد الأول ميونيخ ١٩٨٤ ، ويضم إحدى الصور النادرة لكوجييف مع ذكريات باتاي عن كلام كوجييف حول جبروت الموت وعجزه (انظرمقال باتاي عن كوجييف في دوكاليون ١٩٥٥/٥) وحول الباقي من هذا الجزء انظر أيضاً «هيغل : استرجاع فكره» ، تأليف ا . فيتشر ، الطبعة الثانية فرانكفورت ١٩٧٥ ، وتروغوث كوينغ «مغامرات الديالكتيك في فرانسا» في الكتاب السنوي الألماني ـ الفرنسي ، اولستن فرايبورغ ١٩٨٠ ، حيث يورد مترجم كوجييف التعليقين على «مابعد التاريخ» اللذين عادا في الطبعة الألمانية ، «سلطة الذات بعد نهاية التاريخ : حول الجدل بين كوجييف وباتاي» ، تأليف بيتر غيبله ، أما عن أهمية كوجييف بالنسبة للاكان فانظر اليزابيت رودينسكو : «جاك لاكان وشركاه : تاريخ التحليل النفسي بفرانسا من ١٩٢٥ الى ١٩٨٥ ، لندن ١٩٩٠ ، ونوبرت بولز «السلام الأبدي كمهزلة : حول أفق ما بعد التاريخ» ، في الكتاب الذي حرره هارغوت شروتر وسابينه غورتلر بعنوان «نهاية التاريخ» ، مونستر ١٩٨٦ . أما مؤلفات كوجييف وتأثيره فنجد مناقشة ذات شأن لهما في كتاب فانسان ديكومب «الفلسفة الفرنسية الحديثة» كامبرج ١٩٨٠ . كما يمكن العثور على أحكام أكثر تحفظاً في «الظواهرية في فرانسا» لمؤلفه بيرنهارد فالدنفيلس ، فرانكفورت ١٩٨٧ .

تقديم أحد مؤرخي الفلسفة الفرنسيين وهو الذي تعقب تقلبات مصائر الديالكتيك في فرانسا وصولاً الى ثورة اكتوبر ، مع هذه السلسلة من المحاضرات . جاء في التعليقات : «تنقلب الفينومينولوجيا الهيغلية الصارمة الى مايشبه رواية فلسفية مسلسلة ، حيث تتعاقب المشاهد الدرامية الواحد بعد الأخر ، شخصيات زاهية الألوان تتقابل ، أشكال انقلاب الأوضاع تحافظ على انشداد الانتباه ، والقارئ الذي يتوق لمعرفة نهاية القصة (نهاية التاريخ La fin de l'historire) يصرخ بأعلى صوته مطالباً بالمزيد .(٧)» أبدى كوجييف حَدْساً سياسياً مثيراً وتنوعاً كبيراً في المواقف . وفي الوقت الذي كان فيه كوجييف يلقي محاضراته كان هنري كوربن يترجم كتاب هايدغر «الوجود والزمن» ويفسره في قاعة المحاضرات المجاورة ، وقد عمل الاثنان معاً لتقديم إحدى ترجمات برنامج هندريك دومان الداعي الى اشتراكية مثالية بعنوان : الفكرة الاشتراكية عن اللغة الألمانية . كان كوجييف نفسه متأثراً بهايدغر ولكنه ـ وهو اللاجئ من روسيا عام ١٩٢٠ كان أيضاً يعتبر نفسه شيوعياً أيام الجبهة الشعبية في فرانسا . فإذا سحر مستمعيه بهذا العمق بمادته الصارمة ، فإن السبب يكمن في أنه أضفى على نص هيغل طابعاً ماركسياً ، اختزالاً انتروبولوجياً مستمداً من هايدغر ، وترهيناً للتاريخ ، وصولاً الى جعل التفسير النهائي جريئاً بمقدار ماهو رشيق وأنيق . لا أستطيع هنا فعل ما هو أكثر من التلميح الى الخطوط العريضة لنظرته(٨) .

---

٧ ـ ديكومب ، ص٢٧ .

٨ ـ يتضمن كتاب كوجييف خلاصتين (ليست الترجمة الانجليزية إلا واحدة ص : ٣١ ـ ٣٠) وهما خلافاً لحال نص هيغل الأصلي ، في متناول القارئ العادي . للاطلاع على الملاحظتين كلتيهما انظر كليمنس ماورر ، «هيغل ونهاية التاريخ» ، شتوتغارت ١٩٦٥ ، ص : ١٣٩٩ ف ف .

انطلق كوجييف من (ب ـ٤ـأ) من الفينومينولوجيا : «استقلالية وتبعية وعي الذات : السيادة والعبودية (علاقة السيد والعبد)» ـ الذي بدا له ذا أهمية استثنائية ، مثله في ذلك مثل ماركس . وإلى هذا النص الذي يعتبر «التعرف» شرطاً مسبقاً لوعي الذات الانساني جلب كوجييف أربع مقدمات فلسفية انتروبولوجية مكتوبة بلغة هايدغرية هي : «الوجود» ، (das Daseiende) يكشف عن ذاته بالكلمات و (٢) الانسان «ينفيه» (يحوزه ويغيره) عبر فعله المسوق بالرغبة ؛ (٣) تكون الرغبات متبادلة حتى الموت أو الخضوع حيث (٤) يترسخ عدم التساوي الانساني طالما ظلت امكانية وجود منتصر ومهزوم متوفرة . وهكذا فإن السيد هو الذي يخاطر بحياته في صراع بين البشر على التميز ، في حين يكون العبد ذلك الذي يستسلم ويخضع خشية الموت مما يضطره للعمل من أجل السيد . وطوال بقاء السيد معترفاً به ، يظل متمتعاً بوعي الذات ويصبح انساناً بالمعنى الحقيقي للكلمة» . ولكنه لا يحقق أكثر من ذلك ، أما نشاط العبد ، الذي ، جراء تعرضه للاجبار على العمل ، يسمو على غرائزه الحيوانية فيصبح انساناً أيضاً ـ فيتوجه نحو الطبيعة ويغيرها عبر اسباغ صفة الموضوعية على كدحه المفروض عنوة .

ومع صيرورة علاقة السيطرة علاقة عامة في العالم القديم ، رام السادة يتخذون الشكل الوسطي أو غير المباشر للمواطنين . غير أن ذلك كاد يطمس الاختلاف عن العبيد ـ الأمر الذي تجلى بوضوح في انتشار ديانة هؤلاء العبيد : المسيحية . تابع المواطنون ، هؤلاء العبيد بلا أسياد ، يعملون لا من أجل سيد معين ولكن ليس من أجل أنفسهم هم أيضاً ، (مما كان سيعني غوصهم في الحيوانية الفريزية) ـ بل في سبيل الدولة والملكية الخاصة بالذات ، في سبيل رأس المال . وهكذا فان سيادة النظام القديم an-cien régime باتت بالية ولّى زمانها فجرى استبدالها بالمجتمع المدني القائم على المنتجين الخاصين ، هذا المجتمع الذي أدى تعميمه على

مستوى الدولة إلى انتاج «روح العالم» . وفي امبراطورية المجتمع المدني العالمية استعاد الفرد ذاته ، وصارت امكانية استرجاع الدين المستبعد أو المغرب عن طريقالروح الفلسفية في صورة الله والانسان متوافرة ، فوصل ديالكتيك المجتمع الى حالة التوقف . وهكذا فان كوجييف قام بربط بداية هذه السلسلة الفكرية مع نهايتها :

والتاريخ الشامل ، تاريخ التفاعل بين الناس وتفاعلهم مع الطبيعة هو تاريخ تفاعل بين سادة مولعين بالحرب وعبيد يكدحون . وبالتالي فإن التاريخ يتوقف لحظة تلاشي الاختلاف ، التعارض ، التناقض بين السيد والعبد . . . والآن ، حسب رأي هيغل ، فإن حروب نابليون ، وخصوصاً معركة يينا هي التي أنجزت عملية اكتمال التاريخ عبر التفوق الديالكتيكي على السيد والعبد كليهما . . . فسماع هيغل أصوات تلك المعركة هو السبب الذي يجعله قادراً على إدراك حقيقة أن التاريخ يتم ،أو قد تم ، استكماله ، وأن تصوره هو للعالم بات ـ بالتالي ـ تصوراً كلياً ، وأن معرفته هي معرفة مطلقة .(٩)

وهذا يعيدنا إلى الروح العالمية ممتطية جواداً ، تتقدم روح العالم . ففي قراءة كوجييف لهيغل كان التاريخ قد وصل الى النهاية مع نابوليون وراحت البشرية منذئذ ، تعيش في وضع مابعد تاريخي حيث تمكنت من انجاز التغيير النوعي بصورة كاملة . وتاريخ فارس هيغل لم ينته بالطبع ، كما يمكن أن نرى من أصداء الجبهة الشعبية في فرانسا ، لحظة كانت محاكم ستالين الصورية تصل ذروتها في الاتحاد السوفييتي . وفي هذه الأثناء ألقى كوجييف الذي كان ، كمارأينا ، يعتبر نفسه شيوعياً محاضرة أمام السوسيولوجيين حول المفاهيم الهيغلية (Les conceptions hege-lienes) تحدث أحد منظمي المحاضرة قائلاً :

---

٩ ـ كوجييف (بالانجليزية) ص ٣٤ ـ ٤٤ .

أسكتتنا هذه المحاضرة جميعاً ، بسبب قوة كوجيف الثقافية من جهة وبسبب الاستنتاج الذي توصل إليه من جهة ثانية . سوف تتذكرون أن هيغل تحدث عن الفارس الذي أعلن نهاية التاريخ والفلسفة (كذا!) وهذا الفارس كان ، برأي هيغل ، هو نابليون . أما كوجييف فقد أبلغنا في ذلك اليوم أن هيغل كان قد رأى شيئاً صحيحاً ولكنه كان قد أخطأ الحساب بقرن من الزمن : ففارس نهاية التاريخ لم يكن نابليون بل ستالين .(١٠)

لاحظوا : ستالين وليست ثورة اكتوبر! ذلك لأن كوجييف أراد أيضاً أن يبقى مخلصاً ووفياً لهيغل بالتأكيد على أن الارهاب وحده يستطيع أن يكون فعالاً في مجتمع لأعضاء متساوين ، مجتمع يتعرف على ذاته في ترسيخ الشمولية ، أي عبر اقامة دولة ترتفع فوق ماهو اجتماعي .(١١) ، وقد ظل كوجييف متمسكاً بهذا التسويغ الروبسبيري قبل عام ١٩٣٧ وبعده .

إن البرجوازي العامل ، المتحول الى ثوري ، بالذات يخلق الوضع الذي يغرس فيه عنصر الموت . ويعود فضل تحقق فكرة التركيب

---

١٠ . مقابلة مع روجيه كالوا ، أوردها غيبله ، ص : ٢٦ . انتقد كالوا كوجييف على كونه ، جراء اسباغ المشروعية على الستالينية ، قد عطل انتقادها المبكر من جانب جماعة «الاشتراكية أو البربرية» (التي كان ليوتارد هو الآخر عضواً فيها) . انظر رواية مواقف هذه الجماعة بقلم مديرها الروحي كورنيليوس كاستورياديس : «سوسياليزموس أودر باربري» ، برلين الغربية - ١٩٨٠ . خلال السنوات الأخيرة من حياته في المنفى كان فالتر بنيامين على صلة بهذه الحلقة الصغيرة ولكنها مؤثرة ثقافياً وفكرياً عبر صديقه جورج باتاي .

١١ - يتحدث ديكومب عن «تصور ارهابي للتاريخ» ، ويتابعه في التاريخ اللاحق لطبقة المثقفين الفرنسية .

(السينتيز) الأخير ، وهي الفكرة التي (تشبع) الانسان تحديداً ، للارهاب دون سواه . فالدولة التي لا يتحقق هذا «الاشباع» إلا في ظلهـا لا تولد إلا في قلب الارهاب والعنف ، وهذه الدولة ، بنظر مؤلف الفينومينولوجيا ، هي امبراطورية نابليون .(١٢)

وبعد الحرب العالمية الثانية حين قامت لجنة فلسفية تابعة للحزب الشيوعي الفرنسي باتهام كوجييف بـ «تحريفية ذات طابع فاشي»(١٣) ، سقط ستالين من الصورة ، وتمت إعادة نهاية التاريخ مرة أخرى الى يينا . وفقاً لما يقوله فيتشر الذي لا يورد أية تفاصيل اضافية ، التحق كوجييف بالمقاومة الفرنسية خلال الحرب . وفيما بعد شغل منصباً رفيعاً في ادارة الشؤون الاقتصادية الخارجية الفرنسية أَمَّنَهُ له أحد طلابه السابقين : روبرت مارجولين ، وبات يشغل مناصب مفتاحية في مؤسسات تنمية الاقتصاد الرأسمالي الأوربي في إطار ادارة التخطيط التابعة لجان مونيه بفرانسا ، ادارة مشروع مارشال ومديرية منظمة التنمية الاقتصادية OECD . بقي كوجييف حيث هو حتى مات عام ١٩٦٨ . إنه دليل إضافي على مواهبه

---

١٢ ـ كوجييف (بالانجليزية) ص ٦٩ ، «فينومينولوجيا العقل» ب ب ٦٠ (الروح) ب (الروح في تغريب الذات) ٣٠ (الحرية المطلقة والارهاب) . (خاتمة ١٩٩٢ : هذا العنصر المركزي في رواية كوجييف المتعطشة للدم بقصة تشكل بُنى اجتماعية وسياسية في العالم الحديث محذوف كلياً في كتاب فوكوياما : نهاية التاريخ والانسان الأخير (لندن ١٩٩٢) وبدلاً من ذلك يخرج المرء بانطباع أوبريتا استعراضية حيث يغطي النموذج العالمي الأخير ـ خليط الرأسمالية الاستهلاكية والديمقراطية الليبرالية ـ بنجاح وسلام الكرة الأرضية كلها ويسحق امبراطورية الشر .

١٣ ـ أوردها فيتشر في الطبعة الألمانية لمقدمة كوجييف ص : ٢٩٩ ، التي تتحدث أيضاً عن أن فلاسفة شيوعيين أعادوا تصنيفه لاحقاً تصنيفاً أكثر إيجابية .

الكثيرة وتنوعه الشديد على الرغم من أنه استمر يقول عن نفسه إنه ماركسي(١٤) .

في هامش لمحاضراته المكتوبة عام ١٩٤٦ ، حين كان تحالف الحزب والمقاومة قد ضمن عضوية فرانسا في الحلف الظافر المعادي لهتلر ، أوضح كوجييف وجهة نظره حول نهاية التاريخ لا بالاشارة الى الواقع الحالي لروسيا ستالين بل إلى منظور ماركس عن مستقبل ينعم بـ «الحرية الحقيقية» . كانت تلك وجهة نظر متفائلة تاريخياً إذ استحضرت «الخرافة العالمية» عن التصنيم(١٥) ، ولكنها مكتئبة وقانطة فلسفياً إذ ركزت على العملية المقبلة القائمة على اضفاء الصفة الحيوانية على البشر في ظل ظروف السلام والوفرة (أي ظروف انعدام النضال والعمل) .

لذا فإن اختفاء الانسان مع نهاية التاريخ ليس كارثة كونية : فالعالم الطبيعي يبقى كما كان إلى الأبد ، وبالتالي ، ليس أيضاً ، كارثة بيولوجية . فالانسان يظل على قيد الحياة مثل حيوان متناغم مع الطبيعة أو الوجود كما هو . إن ما يختفي هو الانسان الذي يحمل اسمه بجدارة . أي الفعل الذي ينفي ماهو موجود وما هوخطأ ، أو ،

---

١٤ ـ خلال هذه الفترة كتب أيضاً مؤلفات حول كانت Kant والنظم الاستبدادية وثلاثة أجزاء عما قبل السقراطيات التي كانت ستشكل جزءاً من مقدمة شاملة لتاريخ الفلسفة والتي نشرت منذ وفاته .

١٥ ـ مما جعل كوجييف ذا أهمية بنظر أولئك الذين فسروا التاريخ منذ الثورة الفرنسية وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية على أنه «حرب أهلية عالمية» كما كانت حال أوساط قريبة من ايرنست يونغر ، كارل شميدت وآخرين في ألمانيا الغربية . انظر هانو كستينغ ، «فلسفة التاريخ والحرب الأهلية العالمية» ، هايدلبرغ ١٩٥٩ ، ص : ٣٠٤ . كان كارل شميدت قد أوصى راينهارت كوسيليك بزيارة كوجييف ، غير أن أمل كوسيليك خاب جراء مابدا له كما لو كانت مونولوجات ماركسية .

بقدر أكبر من التعميم ، التعارض بين الذات والموضوع . في حقيقة الأمر ، تعني نهاية زمن الانسان والتاريخ ـ أي الاجهاز الأخير على ما يطلق عليه اسم الانسان بجدارة ، أو على الفرد التاريخي الحر ـ ببساطة توقف الفعل بالمعنى القوي للعبارة . وعلى الصعيد العملي يعني ذلك زوال الحروب والثورات الدامية ـ وزوال الفلسفة أيضاً . فاذا لم يعد الانسان قادراً على تغيير نفسه بأي شكل جوهري ، فلم يعد ثمة أي سبب يدعو الى تغيير المبادئ (الصحيحة) التي تشكل ركيزة معرفته للعالم ولذاته . غير أن الأشياء الأخرى كلها : الفن ، الحب ، اللعب ، الخ . . . ـ كل ما من شأنه أن يجعل الانسان سعيداً ، باختصار ـ تستطيع أن تستمر وتدوم إلى ما لا نهاية(١٦) .

عام ١٩٦٠ ، في اضافته الوحيدة الى الطبعة الثانية من المقدمة ، نطق كوجييف بالشيء الوحيد الذي بقي ليُقال : لن يكون «حيوانات مابعد التاريخ المنتمون الى جنس الهومو سابيان» سعداء بل مكتفين وشبعانين تحديداً ، لأن المنطق Logos ـ السعي الى الحكمة المنطقية الاستطرادية والى هذه الحكمة بالذات ـ سوف يختفي ويتلاشى هو الآخر . وبدلاً من ذلك سوف تردُّ حيوانات ما بعد التاريخ «ردوداً انعكاسية شرطية على الاشارات الصوتية والبصرية» . زد على ذلك أن كوجييف قال إنه ، بعيد تأليف النص

---

١٦ ـ كوجييف (بالفرنسية) ص : ٤٣٤ ـ ٤٤٥ . أنهى هذه الملاحظة بتعليق قال فيه إن ماركس كان لديه المنظور نفسه . ولكن أوجه الشبه أقوى ، في الحقيقة ، مع فكرة نيتشه عن الإنسان الأخير في مقدمة زرادشت : [(«ما معنى الحب ؟ ما معنى الخلق ؟ ما معنى التوق ؟ ما معنى نجمة ؟» تلك هي أسئلة الانسان الأخير ، يطلقها ويغمز . باتت الأرض صغيرة ، وعليها يقفز الانسان النهائي ، الذي يجعل كل شيء صغيراً . إن ذريته قابلة للابادة مثلها مثل ذبابة ؛ الانسان النهائي يعيش المدة الأطول . يقول الناس الأخيرون : «لقد اكتشفنا السعادة» ويغمزون) هكذا تكلم زرادشت)] هارموندز وورث ١٩٦١ ـ ص : ٤٦ .

الوارد قبل قليل ـ أي في ١٩٤٨ حين تعرض اليسار الأوربي للانقسام في أوج التفوق الأمريكي ـ أيقن أن هيغل كان محقاً وأن التاريخ كان قد انتهى مع معركة يينا . باتت «طريقة الحياة الأمريكية» الآن «هي الطريقة الملائمة لفترة ما بعد التاريخ» .

ما كان قد حصل (منذ معركة يينا) لم يكن إلا امتداداً مكانياً للقوة الثورية الشاملة المتحققة في فرانسا على أيدي روبسبير ونابليون . ومن وجهة النظر التاريخية الأصيلة فإن الحربين العالميتين مع سلسلة الثورات الثانوية والرئيسة التي جرتاهما في أعقابهما لم تفعلا سوى نقل المدنيات المتخلفة في الأقاليم الهامشية إلى ما يتماشى مع مواقع أوربا التاريخية (الفعلية أو الممكنة) . إذا كانت اشاعة النظام السوفيتي في روسيا والنظام الشيوعي في الصين شيئاً آخر وأكثر من إشاعة الديمقراطية في ألمانيا الامبريالية (عبر عودة الهتلرية) ، أو استقلال توغو الجديد أو حتى حق تقرير المصير لسكان بابوا فليس ذلك إلا لأن قيام الصين والسوفييت بترهين البونابرتية الروبسبيرية يجبر أوربا مابعد نابليون على زيادة سرعة عمليات إزالة العواقب الكثيرة جداً والمنطوية على قدر أكبر أو أقل من المفارقات التاريخية ، التي ورثتها عن ماضيها المنتمي الى ماقبل الثورة(١٧) .

هذه الرواية لعملية التحديث الأوربية حتى تصبح صورة عن أمريكا تجعلها أشبه باصلاحات شتاين ـ هاردنبرغ التي أعقبت معاهدة تيلسيت المعقودة عام ١٨٠٧ . وبالفعل فان كوجييف ـ الذي عمل ، كما رأينا ، في مركز قيادة عملية التحديث ـ يبدو الآن ناقلاً روحه العالمية الممتطية جواداً ، ومتحركاً ، مجازياً ، من يينا الى برلين . فهيغل أيضاً كان قد عقد آمالاً على

---

١٧ ـ كوجييف (بالفرنسية) ص : ٣٤٦ .

أنه قد يصبح في برلين مطلوباً لنشاط آخر غير «الوظيفة المهزوزة القائمة على إلقاء المحاضرات في الفلسفة» ـ آمالاً لم تتمخض عن أي شيء كما هو واضح . لقد برهن كوجييف على أنه أكثر براعة ، بل وقد حافظ على اعتداده بنفسه عن طريق الاستخفاف بالموضوع المطروح تاريخياً لتكيفه :

«يستطيع المرء حتى أن يقول إن الولايات المتحدة ، من وجهة نظر معينة ، قد بلغت المرحلة الأخيرة من (الشيوعية) الماركسية ، لأن جميع أعضاء مجتمع (لاطبقي) باتوا ، بالفعل قادرين على امتلاك كل ما يحلو لهم ، دون أن يعملوا أكثر مما يشاؤون . (وخلال رحلاته إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٨ تشكل لديه انطباع يقول) : إن «الأمريكان ليسوا إلا صينيين وسوفييت أصبحوا أغنياء ، لأن الروس والصينيين ليسوا إلا أمريكان مازالوا فقراء»(١٩) .

كان هذا الموقف متناغماً تماماً مع آراء منظري ما بعد التاريخ الألمان من أمثال ايرنست يونغر ، كما مع تقويم كارل شميدت للصراع بين الشرق والغرب . على الأقل يجب تفسير تحول كوجييف الأخير في موقفه القائم على القول بانتهاء التاريخ في ضوء اتصالاته مع هذه الشخصيات القاعدية في التاريخ الثقافي لجمهورية اديناور الاتحادية ، وإن أشار هو نفسه الى أهمية تجارب أخرى .(٢٠)

---

١٨ ـ فرانز ويدمان ، «هيغل» ، راينبيك ١٩٦٥ ، ص : ٦٠ .

١٩ ـ كوجييف (بالفرنسية) ص : ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

٢٠ ـ منذ أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات أقام كارل شميدت صلة مع جماعة كوجييف في باريس عن طريق طالب فرنسي أو من خلال صديقه ايرنست يونغر . ومنذ عام ١٩٣٢ كانا على صلة مع ليوشتراوس . ومنذ ١٩٥٥ جرت مراسلات بينهما . أما تاريخ لقائهما الأول فليس معروفاً بعد ، ولكنه يجب ألا يكون بعد ١٩٥٧ حيث التقى ـ

وبعد عام واحد ، في رحلة له إلى اليابان ، تكشفت سياحته الفلسفية عن بديل معين عن الطريق الأمريكي ذي الاتجاه الواحد المفضي إلى إشاعة الصفة الحيوانية . مرة أخرى أثبت كوجييف أنه ممن يحددون الاتجاهات لفئة المثقفين مع نوع من المحاكاةالجمالية للألوهية والسيادة بعد موتهما التاريخي . ففي هذه الطبعة قد يستطيع حيوان ما بعد التاريخ أن ينقذ طابعه الانساني عن طريق فصل الأشكال عن المضامين والعيش وفقاً «للقيم التي باتت شكلية كلياً» . فالوجود ما بعد التاريخي كان ينطوي على شكل «كمالو»(٢١) ظن كوجييف أنه استطاع تلمسه في تقاليد الساموراي لدى الشريحة اليابانية العليا . وبالتالي فقد أعلن أن يَبْنَنَة الغرب (تحويل الغرب الى يابان) هي طريق تحاشي انحطاط الانسان وانحداره الى مابعد التاريخ .

«على الرغم من دوام أشكال اللاتكافؤ الاجتماعية والاقتصادية بعناد ، فإن اليابانيين بلا استثناء هم الآن في وضع يمكنهم من العيش بقيم باتت شكلية كلياً ، بقيم خالية من أي مضمون انساني (بمعناه التاريخي) . لذا فإن كل ياباني ، في الحالة القصوى ، قادر ، من حيث

ـ كوجييف محاضرة في نادي الراين ـ الرور ميّز فيها بين المساعدات التنموية الأمريكية أو «كولونيالية المحسن» من جهة و «الامبريالية المستجدية» للقوى الأوربية القديمة من الجهة الثانية .

٢١ ـ هذه الصياغة مستمدة من الفيلسوف اليهودي المتخصص بالدين : جاكوب توب . في كارل شميدت : «البنية المتمردة» ، برلين الغربية ١٩٨٧ ، ص : ٢٤ . ثمة سرد لانبهار قادة الثورة الطلابية المقبلة بمحاضرة كوجييف في برلين ، ١٩٦٧ ، حيث أوضح أن التاريخ قد وصل الى نهايته ولا يمكن تكراره الا بصيغة «كمالو» ، وأوصى بأن الشيء الأهم الذي يمكن القيام به الآن هو تعلم اللغة اليونانية . ومن برلين سافر كوجييف الى ليتنبرغ لرؤية كارل شميدت الشخص الوحيد الذي اعتبره جديراً بالحوار معه في ألمانيا كلها .

المبدأ ، على انجاز فعل الانتحار (المجاني تماماً) انطلاقاً من التباهي الخالص . . . الأمر الذي ليس له أية علاقة نَسَب بمخاطرة المرء بحياته في النضال الذي يجري خوضه وفقاً لقيم (تاريخية) ذات مضامين اجتماعية أو سياسية» .(٢٢)

قام هذا الوهم السياحي ، حيث يبدو التماهي خَشَبة خلاص الانسان وبقائه انساناً جديراً باسمه ، منذ معركة يينا ، بنقل مناقشة «مابعد التاريخ» الى ملكوت ماهو جمالي .(٢٣) وقدم في الوقت نفسه وصفاً لفهم الذات الانتروبولوجي لدى «فوضوي» ايرنست يونغر ، ذلك «الفوضوي»الذي سبق لنا أن التقينا به لفترة وجيزة فيما بين نيتشه وبودريار .

ب ـ طريق الغابة عند يونغر

في القسم الأول من هذا الفصل تتبعنا مسيرة ترهين نهاية التاريخ المزعومة لدى هيغل مع جملة تفسيراتها اللاحقة المتكررة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها من جانب هيغلي يساري شديد الفردية متأثر

---

٢٢ ـ كوجييف (بالفرنسية) ص : ٤٣٧ .

٢٣ ـ انظر جاكوب توب «اسباغ الصفة الجمالية على الحقيقة فيما بعد التاريخ» ، في كامبر / توب ، و «فيستشريفت مارغريتا فون برينتانو» ، برلين الغربية ١٩٨٨ . يقوم توب هنا بربط ملاحظات كوجييف بمقال هايدغر «الزمن في صورة العالم» في هولز فيغه فرانكفورت ١٩٥٠ ، ومقال أودوماركارد «كانت Kant ومنعطف علم الجمال» في مجلة البحوث الفلسفية ١٦ (١٩٦٢) . وهو بذلك يطرح السؤال المركزي لمجموعة توب/ كامبر حول علم الجمال وما بعد التاريخ وبالتالي العلاقة القائمة بين خطابي ما بعد التاريخ وما بعد الحداثة .

بهايدغر . مثله مثل هيغل كان يلتمس عقلاً في التاريخ ـ مما عرضه لتغييرات مفاجئة في الاتجاه وأتاح له فرصة تحويل تماهيه مع امبراطورية العبيد الى نموذج من حياة سيادة مقلدة جمالياً خالية من العبيد . وهذا النموذج بدوره يشبه «ملك الفوضى» في رواية يوميز فيل(٢٤) مابعد التاريخية اللاحقة لايرنست يونغر . أما في هذا القسم فسوف نهتم لا بتراث التأثر بل بالافتراضات المسبقة لمجاز متعدد الطبقات ، بسوابق هذا المجاز ونظائره وتنوعاته . لذا فان معاينةً لصور يونغر البيانية من شأنها أن تزودنا بمادة معبرة عن ذاتها أكثر تعقيداً مما نجده في المقالات المشبعة باللوم أو القائمة على الدفاع في أكثريتها خلال فترة ما بعد الحرب ـ أي تلك المقالات التي تعلو فوق الصمت السائد لدى الأجيال المعنية .

سنلتقي هنا مرة أخرى بشخصية مثقف ينتمي الى منتصف القرن ، مثقف ملتزم وبعيد في الوقت نفسه ، مثقف ليس شبيهاً بكوجييف من حيث المسار الكاريزمي المحدد ، بل يمارس ، بالأحرى ، نفوذاً أدبياً على نطاق جماهيري . كانت لروايات يونغر عن تجاربه في الحرب العالمية الأولى النوع نفسه من المعنى بالنسبة ليمين فايمار مثل ذلك الذي انطوت عليه رواية ا .م . ريمارك «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» بنظر اليسار ؛ وفي عقد الخمسينيات كان يونغر ، بعد توماس مان ، الكاتب الأكثر شعبية والأوسع جمهوراً بين كتاب النثر الجاد في المانيا الغربية .

---

٢٤ ـ يونغر ، «يومزفيل» .

٢٥ـ انظر ، ايرنست يونغر «عاصفة الفولاذ» (بالانجليزية) لندن ١٩٢٩ ؛ «الصراع كتجربة داخلية ذاتية» ، برلين ١٩٢٢ . وعن مؤلفاته المبكرة عموماً ، انظر كارل هاينز بوهرر : «جماليات الرعب : الرومانسية المتشائمة في مؤلفات ايرنست يونغر المبكرة» ، ميونيخ ١٩٧٨ .

في فصل «عن الغابة» الأخير من رواية يومز فيل Eumeswil يميز يونغر نظرية «ملك الفوضى» عن نظرية الفوضوي .(٢٦) ففي حين يتوجه الأخير ضد بُنى السلطة في المجتمع فيبقى أسيراً لها ، يترفع الأول عن هذه البُنى ويستبعدها كلياً لاتقاء الخطر لدى تحركه بين ثناياها . وبالنسبة لهذا الهيغلي ـ اليميني بالغ الفرديه المرتبط بهايدغر(٢٧) ، والذي تصفه الأدبيات بـ «الفندور» أو «المغامر»(٢٨) فإن الهدف الأمثل هو استعادة

٢٦ـ ثمة حوار مضمر مع هانس بيتر شفارتز : «الفوضوي المحافظ» ، فرايبورغ ١٩٦٢ . عبر التماهي بأحد الفوضويين يعود يونغر هنا الى وهم العظمة حيث يجري التعامل مع مقاومة السادة بوصفها وجوداً مهزوزاً «كمالو» . وعلى الرغم من أن مؤلفاته المبكرة وعمله الصحفي المناهض لنظام فايمار كانا قد ساعدا على تمهيد الطريق الى الرايخ الثالث ، فإنه سرعان ما وجد الواقع منفراً ومقززاً فعزف عن الانخراط تنظيمياً في الحزب أو في الآلة الدعائية للاشتراكية القومية . انظر كتابه «اشعاعات» ، توبنغن ١٩٤٩ .

٢٧ ـ لا تصف عبارة «الهيغلية ـ اليمينية» سوى حد مصادر يونغر الفكرية ، ثمة اضافة الى الاسباغ العدمي لصفة البطولة على تجاربه في الحرب ، نزعته الجمالية ارتباطه بنيتشه وشبنغلر ، انجذابه الى الطبيعة والميثولوجيا ونوع غير محدود من الميتافيزيقا ، غير أنها ، أي الهيغلية اليمينية ، وفرت الهيكل النظري الأساسي لتشخيصه الرئيس للعصر : «العامل ، السيادة والشكل» (١٩٣٢) شتوتغارت (١٩٨٣) . فمفهوم العامل Arbeiter ليس مفهوماً تجريبياً من منطلق العمل اليدوي المعتمد على الأجر ، بل يشير الى حكم العبد الهيغلي (كخلاص من عالم يعود للسادة والعبيد) . والملامح الهيغلية تغدو أشد وضوحاً في تبسيط برنامجي طبعه كارل أو . بايتك في : «ايرنست يونغر في وثائق شخصية ومصورة» ، راينبيك ١٩٦٢ .

٢٨ ـ انظر راينر غرونتر ، «أشكال الفندرة : دراسة تاريخ مشكلة حول ايرنست يونغر» ، يوفريون ٢٦ (١٩٥٢) ؛ غيرهارد لوس ، «ايرنست يونغر شخصيته وأعماله» ، فرانكفورت ١٩٥٧ .

الحرية الداخلية تعويضاً عن تآلف اجتماعي مفقود . ويتحقق الأمر لـ «سيد كمالو» ، لعسكري ليس في الحياة المدنية إلا نادلاًومؤرخاً يعمل في خدمة دكتاتور عسكري صغير ، في مستقبل ما بعد تاريخي مازالت الأمور كلها فيه باقية على حالها . (٢٩) لقد تغلب على خوفه من الموت ، لا لاخضاع آخر للاستغلال ، ولا نتيجة السأم ، بل في سبيل ألا يتعرض هو نفسه للاخضاع ، ويتمكن من قطع الطريق على أية مطالب غير معقولة تتجاوز حماسته العسكرية ، هذه المطالب التي ينجم في تجنبها وسوف يبادر ، في الحالات القصوى ، الى رفضها عن طريق الانتحار . أما التجربة التي يكافح في سبيلها فهي تجربة أن يصبح السيد نفسه ، أن يتحرك بلا قيود على مستويات الهرم كلها ، مشبعاً فضوله عن أوساط الدكتاتور ؛ وسوف يقدم ، بالمقابل ، جميع الخدمات عدا تلك التي تتطلب منه المشاركة في تحمل المسؤولية . تفترض انتهازية ملك الفوضى السائبة مسبقاً مجتمعاً غير قابل للتغيير ، حيث لا تغيير جدير بالجهد أو السعي المطلوب لأنه يفضي الى أكثر من استبدال زبانية حاكم مستبد (طاغية) بزبانية آخر ، دون تبديل بنية «الوصاية الاجتماعية» (الوصي على المجتمع) . لا نعلم شيئاً عن كيفية انجرارملك الفوضى الى مطبخ الطغيان الاقليمي .(٣٠) فما يُقدَّم لنا لا يعدو كونه غطاء سرابياً نبيلاً : «يستطيع ملك الفوضى أن يقترب من

---

٢٩ - «في عالم الامبراطوريات العظيمة المتداعية ودول المدن المنحطة البالي الفارق في الشيخوخة هذا ، نجد مسعى الانسان محصوراً بالضرورات الفظة . لقد مات التاريخ : ذلك يخفف عبء الماضي التاريخي ويحرر من الهوى والانحياز ، بالنسبة لأولئك الذين عانوا وتغلبوا على الألم ، على الأقل» . رواية «يومزفيك» ص : ٣٨٢ . والصورة الأخيرة اشارة الى الدراسة التي كانت بعنوان Über Schmertz (عن الألم) ، ١٩٣٤ .

٣٠ - يقع جزء من الخلفية في عمل يونغر كضابط للمرة الثانية بوصفه نقيباً في الادارة الألمانية لفرانسا حيث كان يعمل في قسم مراقبة البريد بين مهمات أخرى .

العاهل دون حواجز ؛ إنه يحس بأنه ند بين أنداد حتى وهو بين جماعة من الملوك»(٣١) .

غير أن الأقدار المتبدلة للامبراطوريات التي تحكم الجماهير تجعل الحياة ، في لحظة معينة ، خطرة بالنسبة لأولئك القريبين من الطاغية ، دون أن تقدم الاغراء باي نضال يمكن الفوز فيه وكسبه . وبالتالي فإن ملك الفوضى يفر هارباً الى قلب الغابات . فطريق الغابة تعفيه من مخاطر الوجود - هذ ه المخاطر التي كانت ستجبره لولا طريق الغابة على التعامل معها أو الدفاع عن نفسه في مواجهتها انطلاقاً من احترامه لذاته ، وتحل محلها نوعاً من الموت الاجتماعي الطوعي . أو يتعين علينا بالأحرى أن نقول : نوعاً من صورة الموت الظاهرية ، لأن معناه يكمن في الأمل بأنه سيكون محدوداً بالزمن . لقد تورط ملك الفوضى في التدرب على البقاء استعداداً لطريق الغابة ، بما يمكنه من الانتظار هناك حتى يرسخ الحاكم المستبد التالي أقدامه فيظهر على الساحة من جديد بقَدْر أكبر من الاعتداد بالنفس . أما في الغابة فيبني قوة لأن عليه أن يذود عن نفسه ولأنه شديد القرب من الوجود اللاتاريخي للطبيعة . إنه في مواجهة أفق نضال منهك أشد مما في الامبراطوريات المتخاصمة المتحاربة : لأن الناس نادراً ما يضيعون أنفسهم في الغابة ،كما أن عمليات التعقب التي يشنها الحكام سرعان ما تتضاءل . إن طريق الغابة التي يختارها ملك الفوضى في رواية يوميزفيل ، وهي الطريق التي تسبق مباشرة الفرقة الانتحارية التي تحمل نذر انهيار الطاغية ، اختيرت عمداً ، حُسبت بمهارة ، طُبقت بشجاعة وبطولة ، وطُبعت ببراءة الطبيعة .

---

٣١ - «يومزفيل» ، ص : ٣٥٥ .

لم تكن الأمور هكذا على الدوام . فبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت طريق الغابة موقعاً متكرراً في مؤلفات يونغر . تم تكريس إحدى المقالات التي كتبها بعد الحرب لهذا الموضوع ، وقد ظل الكاتب هنا متمسكاً بالجذور الشمالية Nordic لطريق الغابة : جاءت طريق الغابة إثر قضية نبذ أو حرمان ؛ عبَّر الانسان من خلالها عن استعداده لاثبات ذاته بقوته الخاصة» .(٣٢) لذا فان طريق الغابة ، من حيث الأصول ، لم يتم اختيارها طوعاً وبحرية ، بل كانت تنطوي على تعليق لحكم الاعدام مقابل التعرض لامتحان المحن . «كانت جريمة القتل عادة هي التي تسبق عملية النبذ أو الحرمان . .» . ففي النظام القضائي الذي يتبناه يونغر يستحق الشخص المنبوذ الموت لأنه تسبب بموت شخص آخر ؛ غير أن الهيئة القضائية ، لعدم التأكد من أن القاتل كان متعمداً ، عزفت عن تنفيذ حكم الاعدام وتركت الجاني ، باخراجه من دائرة حمايتها له ، لقطعان الذئاب . وهكذا فإن ابن الغابة لم يعد خاضعاً للقانون بل يتابع وجوده المجرد في مجابهة مع الطبيعة . وما من شيء غير الفوز في هذا الامتحان يمكّنه من اظهار طابعه الانساني .

بالنسبة لهذا المثقف الذي لم يرد أوشفيتز ، ولكن ممارسته الثقافية المبكرة أقحمته في العصبة التي قررتها ، فإن اختيار الصور المجازية والرسالة الكامنة يبدوان واضحين وضوحاً كافياً . لابد لمثقف من هذا النوع الآن من أن يلوذ بمنفى داخلي ويعزف عن أي نشاط ثقافي عام . وكان من شأن الصورة أن تكون شفافة ، على أية حال ، لو لم نقرأها فعلاً - في مؤلف

٣٢- ايرنست يونغر «طريق الغابة» (١٩٥١) ، الطبعة السادسة ، شتوتغارت ١٩٨٦ ، ص : ٤٠ .

يونغر المنشور السابع في السنوات الست التي أعقبت عام ١٩٤٥ ، أو السابع عشر منذ ١٩٣٣ . من الواضح أننا لسنا هنا بصدد عملية نبذ أو حرمان (ولا بصدد لائذ بالغابة تحديداً) - على الأقل إذا كانت الكلمة مازالت تنطوي على أي معنى ، أي إذا كانت قابلية تمميزها عن غيرها واردة . ولكن المؤلف نفسه انتزع هذا المعنى عن طريق التعميم ، لو اقتبست كل ما قاله عن جريمة القتل لأدركنا أنه اعتبر الجميع ولا أحد مسؤولاً عن اقترافها ، كامكانية على الأقل ، رغم أن كثيرين لم يتحققوا منها بعد . فعجلة التاريخ تدور بسرعة وعشوائية بَكَرَة "الروليت" . هاكم النص المقتبس كاملاً :

«كانت جريمة القتل هي التي تسبق الحرمان أو النبذ عادة ، أما اليوم فان هذا الحرمان أو النبذ يصفع الناس بصورة آلية ، كما في دوران بَكَرَة "الروليت" (والمثال يمكن أن يكون ماتشاء) لأن الحرمان ياتي فجاة ، وكانه من السماء في الغالب : فانت أحمر ، أبيض ، أسود ، روسي - يهودي ، الماني أو كوري يسوعي ، ماسوني ، وبالتالي أسوأ من أي كلب في جميع الأحوال» .(٣٣)

ما الذي يجعل اللون البني ، لون القمصان البنية ، غائباً عن القائمة ؟ يمكن التفكير بعدد غير قليل من الأسباب الممكنة : قد يكون المؤلف ميالاً الى التمييز بين عملية التطهر من النازية وبين ابادة اليهود ، على سبيل المثال ، هو أمر غير وارد تقريباً ، و أن حذف الأشد وضوحاً لمسة ذكية مستندة الى افتراض أن القارئ لن يعجز عن النقل واستنتاج المطلوب . أشك في أن يكون السبب مختلفاً . فيونغر لم ير اللون البني مشكلته الرئيسة ، وحين أصبح كذلك كان قد أزاحه جانباً جراء عثوره على (أو احتفاظه ب) مؤيدين دأبوا على الدفاع عنه وحمايته . وبعدُ ثمة السماء

---

٣٣ - المصدر السابق ، ص : ٤٠ ف .

الصافيـة التي انطلق منها الحرمان ، لا لسنوات «الكارثـة» بل بسبب تضارب صارخ بين توقعات محلّقة من جهة وتجربة شخصية سلبية من جهة ثانية . لابد للسماء الصافيـة من أن تكون تلك المفعمة حماساً للثورة القوميـة في ١٩٣٣ ، التي ابتـعد بعدها عن النظام لأنه كان قـد ظنه شيئاً آخـر وصار الآن يحس بالخوف وبالضغوط التي لا تطاق ، على الرغم من أنه لم يبق كاتباً تُنشر أعماله بكثرة لأنها مطلوبة بإلحاح . إذا وضعنا هذا ، جنباً الى جنب مع تحديد يونغر الاعتـباطي للجماعات المستهدفـة في عمليات الابادة ، فإننا نستطيع أن نرى لـدى يونغر فـهماًخاطئاً لـذاته وللتاريخ على حد سواء . وعلى الرغم من أن يـونغـر يـطمس تواطؤه في خلق الـدولة الشـمـوليـة (التوتـالتياريـة) ، فإن صورته الـمجازية تـعفيـها من المسؤوليـة واللوم عن مصيـر ضحاياها . فـهؤلاء الضحـايا لم يكونوا في الحـقـيقـة مذنـبين ارتكبوا جرائم قتل ثم نُبذوا ، بل جرى اعـتـقالهم مـن قبل الدولة دون أيـة مبـررات موضوعـية ، ومن ثم تمت ابادتهم أو تصفيـتهم . لم تـتوفر للضحـايا طريـق غابة . فـالصورة التي بدت في البـداية شديدة الدقة على الصعيد الشخصي تتكشف عن كـونها ، عـبر التعـميم ، خديعة تاريخـية . كـان من المفـترض أن تشكل طريـق الغابة نوعـاً من الانسحاب الى الوجود ومن تـجديد وعي الانسان لذاته ، غـير أنهـا ، لدى زيادة التمـحيص ، تـظهـر على حقـيقـة أنها لـيست إلا هروباً الى الوجـود البـحت (Dasein) ومـقـاومـة لوعي ذاتي تـاريخي أكـثـر دقة .

٣٤ـ في باريس وبتـاريخ ١٩٤٤/٧/٣٠ حيث كان الأمـريكان قـد نزلوا الى النورمـاندي ، قام يونغر بتسجيل اشفاقه غير المحدود على ذاته مستخدماً الصورة البيانية نفسها في يومياته : «بآلية مثيرة للتاريخ باتت وصمات العار شديدة الوضوح على الألماني حتى راحت عجلة القـدر تهوي الى الحضيض بالنسـبـة له . إنه يتـعرض الآن لتـعلم تـجربة اليهود : لأن يكون موضوعاً للفضيحة» ، اشعاعات ، ٢ ، ميونيخ ١٩٨٨ ، ص : ٢٩١ .

من أجل حل لغز الترابط بين طريق الغابة وما بعد التاريخ ، علينا أن نمعن النظر أكثر قليلاً في مسلسل الصور لدى يونغر ، حيث تكتسب السير الذاتية القريبة هي الأخرى بعض الأهمية ، لذا فانني سأتناول أربعة من المثقفين النموذجيين ممن ينتمون الى الفترة الفاشية : المنظّر القانوني كارل شميدت ، الفيلسوف مارتن هايدغر ، السايكولوجي والسياسي البلجيكي هندريك دومان ، والصحفي الفرنسي والمنظر السياسي بيرتراند دو جوفنيل .(٣٥) جميعاً كانوا ، مثل يونغر ، شخصيات بارزة في ميادينهم المختلفة ؛ جميعاً شاركوا في محاربة الماركسية والليبرالية في العشرينيات ؛ جميعاً عملوا بكثافة لبعض الوقت مع الفاشيين ؛ جميعاً لاذوا ، فيما بعد ، بطريق الغابة ، تخلوا عن الالتزامات العامة أو عن الحياة العامة اجمالاً ، وعاشوا في الريف في ملاذات جبلية أو في بلد أجنبي محايد ؛ وجميعاً وجدوا أنفسهم معارضين لهتلر مع حلول نهاية الحرب أو قبل ذلك ،

٣٥ـ باستثناء دوجوفنيل (ولد عام ١٩٠٣) كان هؤلاء الكتاب جميعاً ، مثل يونغر ينتمون الى جيل وُلد حوالي ١٨٩٠ وقَوْلَبَتْهم الحرب العالمية الأولى . وحول خلفيات الثلاثة الأوائل انظر كريستيان غراف فون كروتشكوف ، الحسم : دراسة حول ايرنست يونغر ، كارل شميدت ، مارتن هايدغر» ، شتوتغارت ، ١٩٥٨ ، وجان بييرفاي ، «لانغاج توتاليتير» (لغات توتاليتارية) ، باريس ١٩٧٢ ؛ وعن الأفراد ، بيير بورديو ، «الاونطولوجيا السياسية» لمارتن هايدغر ، كامبرج ١٩٩١ ، وجوزيف و . بندرسكي ، «كارل شميدت : منظّراً للرايخ» ، برينستون ١٩٨٣ . والنموذج الذي تجري مناقشته هنا مطروح في ثلاث عشرة لوحة (تتضمن أيضاً غوتفريد بين ، هانس فرير ، أرنولد غيهلن من الشخصيات المفتاحية المنتمية الى جيل «مابعد التاريخ» تجده في كارل كورينو ، «مثقفون انبهروا بالاشتراكية القومية (النازية)» ، هامبورغ ١٩٨٠ .

ولكنهم عوملوا كعملاء من جانب الحلفاء أو من قبل مواطنيهم بالذات ، ولم يستطيعوا قط ، أو ، إلا بعد حين ، استئناف نشاطهم العام السابق . من المثير للاهتمام أنهم لم يستخدموا «طريق الغابة» التي اختاروها لدراسة الطبيعة بمقدار ما أفادوا منها غطاء يوصلهم بأمان الى تراث ماقبل الحداثة(٣٦) ، وكانت عودتهم الأولى الى الحياة العامة مصحوبة بطبعتهم الخاصة عن طريق الغابة Waldgang لدى يونغر(٣٧) .

ليس ما سيساعدنا في تعقبنا لمسار ما قبل التاريخ هو التجربة الذاتية لهؤلاء الكتاب فقط ، بل وترميزهم للعالم الخارجي الذي كانت طريق الغابة توفر الحماية منه أيضاً . فبعد محاولة يونغر الرامية الى التحول عن التاريخ الى الخرافة أو الأسطورة ، يتعين علينا ألا نفاجأ بعد بأنهم ، عدا عن التلميح العرضي ، لا يشيرون اشارة ملموسة الى الرايخ الثالث . فصورة يونغر عن «العالم التاريخي الذي نجد أنفسنا فيه» كانت رمزاً مأخوذاً من تاريخ الدين الذي ظل أيضاً ، منذ العصور القديمة ، يعني الدولة : أعني رمز السفينة . غير أنها في هذه الحالة سفينة غرقت : سفينة الجبابرة Titanic(٣٨) .

٣٦- دو جوفنيك ، الذهب في عصر شارل الخامس وفيليب الثاني ، باريس ١٩٤٣ ، دومان «جاك كور» ، بيرن ١٩٥٠ ؛ شميدت ، «ناموس الأرض» كولونيا ١٩٥٠ .

٣٧- شميدت : العبودية طريقاً للخلاص Ex captivitate salus ، كولونيا ١٩٥٠ دومان دفاتري الجبلية "cahiers de me Montagne" بروكسل ١٩٤٤ ، هايدغر ، مقال طريق الحقل ، كتب عام ١٩٤٧ ، ونشر للمرة الأولى في ١٩٥٣ .

٣٨- استخدم أيضاً رمزاً لتحطم التقدم في الكوميديا الغنائية لهانس ماغنوس انيزنسبرغر بعنوان «نهاية سفينة التيتانيك» ، فرانكفورت ١٩٧٨ ، وأصبح عنواناً لمجلة هزلية .

يتقابل النور والظلك هنا متناقضين بحدة : فمحور التقدم يصطدم بالفزع أو الرعب ، الراحة القصوى مع الدمار ، الأتمتة مع الكارثة التي تتجلى على شكل حادث مرور . ثمة ، في الحقيقة ، ترابط وثيق بين زيادة الأتمتة والخوف لأن الانسان محدود في قراراته بالمسكّنات التكنولوجية . وهذا يفضي إلى ألوان عديدة من الراحة وهدوء البال . ولكن ضياع الحرية هو الآخر لابد له بالضرورة من أن يزيد . فالفرد لا يعود قادراً على الوقوف في المجتمع مثل شجرة في الغابة ، بل يغدو أشبه بمسافر على ظهر مركب سريع قد يكون حاملاً اسم سفينة الجبابرة : التيتانيك أو الليفياثان أيضاً . وطوال بقاء الجو هادئاً والمناظر ملائمة ، قلما يلاحظ الفرد حالة نقصان الحرية التي سقط فيها . بل ، على النقيض من ذلك ، ثمة نوع من التفاؤل يتعالى ، ثمة احساس مدوخ بالقوة يعتمل في النفس . ولكن ذلك لا يلبث أن يتغير إذا ظهرت جزر تلفظ النار وجبال من الجليد في الأفق . وعندئذ لا تقف الأمور عند انقلاب التكنولوجيا من أن تكون مصدراً للراحة الى مجالات أخرى ، بل ويصبح غياب الحرية جلياً أيضاً - سواء في انتصار قوى الطبيعة الأولية ، أم في حقيقة أن الأفراد الذين ظلوا أقوياء يمارسون سلطة مطلقة في الحكم(٣٩) .

تتكشف الصورة عن موضوع مبهر بالنسبة للمؤلف الذي بات اهتمام الجامع الواسع وفي ميدان الحشرات بالدرجة الأولى لديه شاملاً لكتب عن حوادث تحطم السفن(٤٠) . فكما أوضح هانس بلومنبرغ ، مازالت حادثة «تحطم السفن على مرأى الجمهور ، صورة مجازية ظلت ، في تاريخ أوربا

٣٩- طريق الغابة . ص٣٠ ف .

٤٠- انظر وصف مساعده أرمين موهلر في : الشريطة : وثائق حول طريق ايرنست يونغر ، زيوريخ ١٩٥٥ .

منذ العصور القديمة ، تذكر مرة بعد أخرى بمخاطر الحياة ، ببهجة النجاة ، بانهيار الثوابت والقناعات الراسخة ، وبالسعي للابتعاد عن التاريخ»(٤١) . فباخرة الركاب الانجليزية الفاخرة التي اصطدمت بجبل من الجليد في رحلتها البكر عام ١٩١٢ صورة آسرة من العالم التاريخي . غير أن هناك ، على ما يبدو ، متفرجاً مايزال واقفاً مثل شجرة في الغابة ـ وبالتالي فإننا لسنا جميعاً في عرض البحر بالضرورة . أو ثمة فسحة يابسة حتى في البحر . وبعد بعض الوقت أحس يونغر بنوع من الاستفزاز الدافع الى توسيع مداه الأسطوري أكثر مما فعل :

رحلة بحرية وغابة ، قد يبدو جسر مثل هذه المسافة الطويلة في الصورة أمراً صعباً . ولكن التناقض معروف جيداً في الأساطير : فديونيسوس الذي اختطفه بحارة طيرة ، مثلاً ، استنبت اللبلاب والكرمة على الدفة ليرفع بأغصانها سارية السفينة . من هذه الأجمة انطلق النمر الذي افترس القراصنة(٤٢) .

٤١ـ هانس بلومنبرغ : تحطم سفينة أمام مشاهدين : نسق أمثولة للوجود ، فرانكفورت ١٩٧٩ . عن غنى المراجع والاشارات في هذا المقال يمكننا أن نورد هنا مثالين فقط لهما علاقة باستخدام يونغر الخاص . أولاً : في أواخر القرن التاسع عشر كانت المسافة الفاصلة عن تحطم السفينة ـ وهو ما ظل منذ أيام لوكريتوس يتيح للنظارة فرصة «الاستمتاع بموقعهم الأمين» ـ قد ضاقت وتلاشت (ص : ٢٨) . فحين وجد جاكوب بوركهاردت نفسه والأمواج تتقاذفه في مركب هش ، تلك الأمواج العاتية التي أطلقتها عاصفة الثورة الفرنسية ، أضاف يقول : «إن الموج هو نحن أنفسنا» (ص : ٦٦) . ثانياً : قام نيتشه ، مع آخرين ، باستحضار الثورة في الميادين الآمنة للفكر ، بل وأحس بالمتعة والحرية في آلية الانهيار . أما بلومنبرغ ، مستذكراً مثقفي الثورة المحافظة ، فيعلق قائلاً : «إن تحطم المركب الذي جرى البحث عنه واستدعاؤه لاختبار مدى صلابة الرفاه... سيطلق عليه ذات يوم اسم : (العدمية البطولية)» (ص : ٢٢) .

٤٢ـ طريق الغابة ، ص٣٧ .

ينبهر المرء مباشرة بالعنف النبوئي لهذه الصور المؤلفة قبل ثلاثة عقود من ظهور حركات السلام والبيئة . غير أنها تحتوي أيضاً على عدد من الأشواك الواخزة بحدة . فتجسيد هوبز للدولة الاستبدادية المطلقة لم يعد بالتأكيد ذلك الوحش الشبيه بالتمساح المنتمي الى نهاية الزمن في سُفْر أيوب ، ولكن السؤال الذي يبقى هو : هل يمكن لليفياثان ، حقاً ، أن يكون مركباً سريعاً ؟ هل غرق المركب حرمان من الحرية قبل كل شيء ؟ هل تستمر المقاومة الجماهيرية تحت ظهر المركب ؟ هل هتلر وستالين هما «الفردان اللذان بقيا قويين» ؟ أو ، بالمقابل ، هل قباطنة المدنية العالمية هم اللصوص والقراصنة الذين سيتم انقاذنا من براثنهم من قِبَل غولٍ يخرج من الغابة الألمانية ؟ من المؤكد أن هذه قد تكون ، جميعاً تفسيرات باعثة على قدر كبير من السأم لنبوءة كثيفة . غير أن عد نقاط التصدع والتمزق يجلو أن ثمة صورتين جرى اقحام إحداهما بالأخرى . فالنقد المعادي للتوتاليتارية المطروح هنا لن يتناسب مع النموذج الأساس للنقد الثقافي الموجه ضد النمط الانجلو ـ أمريكي من المجتمع الصناعي ، هذا النمط الذي يُفتَرض أنه مندفع بقوة الى قلب أزمة لا ضوابط لها في طريقه الى أن يغدو مدنية عالمية .

اليابسة والبحر

في عقد الأربعينيات نجد لدى صديق يونغر كارل شميدت كلاً من الفصل بين هاتين الصورتين في اليابسة والبحر (Land and Meer)(٤٣) واقحامهما القسري في صورة المركب المشؤومة التي استخدمها بعد ١٩٤٥

٤٣ـ «اليابسة والبحر» (لايبزيغ ١٩٤٢ ، وكولونيا ١٩٨١) هو العنوان الذي عنون به شميدت كتابه : «تأمل في تاريخ العالم» .

في كتاب دافع فيه عن نفسه . كان هذا المكافح المتألق ضد الليبرالية وجمهورية فايمار ملكاً للقضاء في ظل النظام الرئاسي قبل ١٩٣٣ ، غير أنه ، رغم تقديمه عدداً من التنازلات البائسة ـ مثل مقال له بعنوان «الفوهرر يدافع عن القانون»(٤٤) كتبه بعد مذبحة قيادة الاس . اي SA مع محافظين من طينته هو ، كان عاجزاً عن الاحتفاظ بذلك المنصب زمناً طويلاً في عهد الرايخ الثالث . وخلال فترة عزلته وانسحابه ، حوّل اهتمامه نحو القانون الدولي ومقدماته التاريخية ـ أو التاريخية ـ الاونطولوجية لنكون أكثر دقة(٤٥) . حسب رأيه آنذاك ، كان ثمة صراع عالمي بين قوة السلام

---

٤٤ ـ الفوهرر يحمي الحق» دويتش بوريستن زايتونغ ١٩٤٣/٣٩ ، ثمة نقاش نموذجي لنشاطه في الرايخ الثالث ، الطبعة الثانية ، ميونيخ ١٩٨٩ ،والاطاحة اللاحقة في بيرند روثرس : «الحق المنحط : التعاليم الحقوقية والقضاة في ظل الرايخ الثالث» الطبعة الثانية ، ميونيخ ١٩٨٩ . إن شميدت الذي كان قد أصبح يعرف بانه مثقف كاثوليكي وأستاذ لبابن وشلانجر في المعارضة المناوئة لفايمار ، انتقل الى صف هايدغر في ربيع ١٩٣٣ متورطاً في الحزب النازي . وخلال السنوات الأربع التالية ، قبل دفعه الى الصفوف الخلفية من قبل منافسيه في الـ اس . اس . أبدى نشاطاً استثنائياً في ميدان الصحافة وفي العمل الحقوقي والسياسة الأكاديمية مؤيداً النظام الجديد وفي ١٩٣٦ دشن حملة معاداة السامية في القضاء خلال مؤتمر دعا فيه الى تبني شعار هتلر : «حين أقاوم اليهود . . إنما أكافح في سبيل عمل الله!» وقد أورد جان بيير فاي ما قاله له شميدت في سنوات ما بعد الحرب : «لم يكن إلا مستشار دولة ـ تحت قيادة غورنغ ! وكانت لديه سيارة ذات علم صغير قادرة على تجاوز أية مشكلات مرورية . كان يرى أن أي مستشار بروسي لم يكن ذا سلطة على الاطلاق» . ومثل هذه الأنماط من التعبير كشفت عن شيء معين في الشخص الذي كان ، في التحليل الأخير ، يشغل مكانة في جهاز الدولة على مستوى مسؤول وخطير ، «التاريخ في مهب لعبة الألفاظ والأصوات» ، حديث ، شويبهايت ٢٧ (١٩٨٩) .

٤٥ ـ انظر محاولة لتقديم تحليل بنيوي لسيرة حياة شميدت السياسية وأعماله : مانفريد لاورمان ، «دراسة عن كارل شميدت في الاشتراكية القومية» في كتاب كلاوس هانس وهانس ليتزمان (ناشرين) «كارل شميدت ونقد الليبرالية» أوبالدن ١٩٨٨ .

المتجسدة في الحكم المطلق القاري (اليابسة) وبين الطموحات غير القابلة للاشباع المتمثلة بالقوى الامبريالية البحرية (البحر) . ففي ١٩٣٩ حين كانت بريطانيا ماتزال تعتبر المنافسة الرئيسة ، اقترح شميدت أن يبادر الطرفان الى النظر في متطلباتهما الجيو- سياسية ، الى تقسيم العالم الى مناطق هيمنة ، ومنع الأمريكان من التدخل في أوربا(٤٦) . وبعد الحرب راح شميدت يقول إن من الضروري انجاز المساومة الامبريالية نفسها قبل حصول هجوم الامبراطورية القارية أخيراً ؛ مما عبر عن ذلك التطلع الى قوة مسالمة قائمة على نظام أوربي ، ذلك التطلع الذي يعود الى أوائل العصور الحديثة والذي كان شميدت آخر ممثليه . أما الآن فإن التحالف الظافر المعادي لهتلر بات ميالاً الى تبني شعار جديد : «وحدة العالم»(٤٧) . فالروح البحرية المضطربة عاجزة عن تحقيق السلام ، أي عن الاستقرار عبر أجهزة الدولة ، وبالتالي من شأنها أن تؤبّد «الحرب الأهلية العالمية»(٤٨) وتديمها . وهذه الحرب متأصلة في التوسع الشامل للعالم للثورة الصناعية المنطلقة من بريطانيا ، وفي المقاومة الاجتماعية للدولة بالثورات

٤٦ـ كارل شميدت ، «القانون الدولي والنظام الاقليمي مع خطر التدخل للقوى غير الاقليمية :مساهمة في صياغة مفهوم الرايخ عن القانون الدولي» برلين ١٩٣٩ .

٤٧ـ كارل شميدت ، «وحدة العالم» ميركور ٦ (١٩٥٢) .

٤٨ـ في يومياته عن الحرب ، من عام ١٩٤٢ (اشعاعات) ، بعد نزول الحلفاء على شواطئ شمال افريقيا ، كان يونغر يستخدم مفهوم «الحرب الأهلية العالمية» . وكان للعبارة مستقبل واعد : فايرنست نولته نسج على غرار هذا العالم نفسه من الآراء حين أثار نزاع المؤرخين أواسط الثمانينات . وحسب رأي هانو كيستنغ ، فان هذا المفهوم المركزي لفلسفة التاريخ عنده اكتسب راهنية في ٤٧ـ١٩٤٩ مع تأسيس الكومنفورم واعلان مبدأ ترومان . «فلسفة التاريخ والحرب الأهلية العالمية» هايدلبرغ ١٩٥٩ ، ص ٢٦٨ ف ف .

الفرنسية والأمريكية والروسية (والأخيرتان أهم على الصعيد الجيو. سياسي) . وعلى النقيض من يونغر(٤٩) ، لم ير كارل شميدت الحرب الباردة في الخمسينيات تعبيراً عن صراع بين الشرق والغرب عاد مجدداً ، كما لم يعتقد بأن خطوط الجبهة العائدة لهذا الصراع قابلة للتفكيك أو التهدئة في سياق الحرب الأهلية العالمية .ولم يتشكل لدى شميدت منظور جديد إلا بعد أن زاد من تطوير الاونطولوجيا التاريخية لليابسة والبحر ، وأدرك أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كانا قد أبقيا التعارض الألماني ـ البريطاني القديم في الظل . وبعد ذلك صار يتطلع الى التغلب على هذه الوحدة ذات القطبيين من خلال الوزن الجديد لسيطرة الدولة ، أي عبر «الامبراطوريتين القاريتين» الاقليميتين الجديدتين في الصين والهند . عقد شميدت آمالاً على أن من شأن هذا أن يحد من تشابك الحرب الأهلية العالمية مع المصالح الامبريالية لـ «البحر» فيعيد الى العالم تلك «التعددية» التي ستكون ألمانيا فيها ـ لنا أن نضيف ـ واحداً من المراكز . لم يكن تغيير الموقف مشكلة بالنسبة لمنظِّر القانون ذي النزعة التاريخية ، غير أنه ظل دائباً على تعديل رؤيته بما يتفق مع مسار الأمور :

يشير التفكير التاريخي الى حالات فريدة وبالتالي الى حقائق فريدة . وحقيقة التناقضات القطبية صحيحة أبدياً ـ بمعنى نوع من العودة الأبدية . أما الحقيقة التاريخية فليست صحيحة إلا مرة واحدة . . وفرادة الحقيقة التاريخية هي السر القديم قدم الزمان الكامن في الاونطولوجيا . . غير أن الواقع التاريخي ينطوي ، في أوقات معينة ، على ظهور شعوب وجماعات قادرة على الفعل الناجح تاريخياً ، تستولي على الأرض وتقسمها فيما بينها بود

---

٤٩ ـ انظر ايرنست يونغر «عقدة غورديوس» ، فرانكفورت ١٩٥٣ .

وصداقة وتروح ترعى وتشغل نفسها فوق الجزء المخصص لكل من هذه الشعوب والجماعات من مجمل الكرة الأرضية .(٥٠)

كانت العناصر مميزة بوضوح في التعارض بين اليابسة والبحر ، وكان الكاتب يعرف أين يقف : على الأرض . أما الآن فقد غامت التخوم في غمرة حرب أهلية عالمية يجد نفسه أسيراً لها ، ولكنه يتوقع منها هي الأخرى نوعاً من التحرر . وهكذا فإن الصور مقحمة قسراً مرة أخرى في استعراضات للتجربة التاريخية الذاتية لدى المثقف . ففي كتاب «يأتي الخلاص من الأسر» (Ex captivitate salus) الذي كتبه عام ١٩٤٧ حين كان مايزال معتقلاً لدى الحلفاء ، تناول شميدت قصة هيرمان ملسفيل «بنيتو سيرينو» "Benito Cereno" ١٨٥٥)(٥١) . يتم هنا اجبار قبطان سفينة عبيد في ورطة ، وهو ارستقراطي اسباني ، من قبل العبيد المتمردين الذين قتلوا ضباطه على الاستمرار في متابعة القيادة الفنية في ظل حكمهم الارهابي . وهذه العملية تتم بمهارة فائقة بحيث يكون أسير العبيد مضطراً ، حتى حين يلتقون بإحدى القطع البحرية الأمريكية ، للتظاهر بالانضباط والانسجام أمام الطاقم الساذج بعض الشيء ، حتى يتمكن أخيراً من استغلال القتال المضطرب بين البحارة والعبيد المتمردين للقفز الى قلب السفينة الأمريكية .

٥٠ـ انظر مادة كارل شميدت بعنوان «البنية التاريخية للتناقض العالمي الراهن بين الشرق والغرب» في كتاب موهلر (ناشراً) .

٥١ـ «يأتي الخلاص من الأسر (العبودية)» ، ص٢١ ، ٧٥ . خلفية قصة ملفيل المصيرة المحاطة بتجارة العبيد والتحريض الأمريكي على التحرر موثقة في ماريان كيستنغ (ناشرة) «ملفيل ، بنيتو سيرينو» ، فرانكفورت ١٩٧٢ . كانت الناشرة من حلقة شميدت وربما حفزها على العمل . وعن تفسير شميدت للقصة على أنها كناية عن انحطاط اوربا ، انظر مساهمات ايريك ب . غالفان وسافا كليكوفيتش في الكتاب التكريمي لشميدت «ايبيرهوسيس» برلين الغربية ١٩٦٨ . سبق ليونغر أن ألمح الى هذه القصة في يومياته .

إن القصة الأكثر سحراً في الحقيقة من توظيفها المجازي الذي يلقي ، مع ذلك ، ضوءاً على الصدوع الصارخة التي يعاني منها تشبيه يونغر للمدنية الحديثة بسفينة الجبابرة (التيتانيك) . فالمثقف (أو ارستقراطي العقل) هو الذي يجب أن يقود ويحكم في النظام الأوربي . أما إذا انهار هذا النظام في أوقات الأزمة وجرى استبداله بارهاب الجماهير فإن المثقف هذا يتحول الى شخصية مأساوية بل ويتعين عليه حتى أن يتصرف بجبن كما لو كان مايزال مسؤولاً ، ذلك هو السبب الكامن وراء امكانية اعتباره ، خطأ ، واحداً من العملاء . غير أن المحررين اللاحقين يمثلون مجتمعاً مؤلفاً من أنداد متساوين ، مجتمعاً ينزع الى انتاج الثورة الجماهيرية نفسها في ظل الأزمة ، مجتمعاً تمتد جذوره الى مثل هذه الثورة ، مجتمعاً غير مقيد باية أشكال تقليدية من الحكم ، فالقبطان الذي تم انقاذه ، حين لا يرى مخرجاً فيتسلل من تجربته الرؤيوية ، ينسحب الى الدير ، يلوذ بهدوء ما هو أبدي . وبعبارة أخرى يصبح أحد سكان الغابة . في حكاية ملفيل ، يموت الارستقراطي هناك ، بالطبع ، بعد بضعة أشهر في حين يظل قادة البحرية المزعومون المتصالحون دائبين على الكتابة بلا توقف . كان العمل الأول الذي كتبه كارل شميدت بعد اطلاق سراحه في ١٩٤٩ توسلاً مثيراً للشفقة وجهه الى الحكومة الاتحادية طالباً العفو لتتسنى له فرصة تأكيد «الحرب الأهلية العالمية»(٥٢) . وفي تلك الظروف ربما لم يكن كاتب هذا المقال ، الذي تبنى اسم زيوس المستعار دون الافصاح عن هويته ، يعني بعبارة «الحرب الأهلية العالمية» إلا عملية التطهر من النازية ومحاكمة جرائمها .

٥٢ـ انظر المقال الرئيس الذي كثيراً ما أعيد نشره في مجلات أخرى كجزء من الحملة الرامية الى استصدار عفو عام عن المسؤولين النازيين : «من زيوس الى الحكومة الفدرالية : العفو شكل من أشكال الحق» ، المسيح والعالم ، ١٠ (١٩٤٩) . يرد فاي (ص : ٥٠) على سؤال ما اذا كان كارل شميدت قد أحس بأي ذنب قائلاً : «أعتقد أنه كان شاعراً بالبراءة والسرور ، كان (علماً سعيداً) متجسداً في شخص . بالطبع لا أدري بماذا كان يحس ويفكر حقيقة ،ولكنه ـ

عبور الخط Passage de la Ligne

قبل كتاب طريق الغابة مباشرة وتبريراً له، قام ايرنست يونغر بنشر مقال قصير بعنوان «عبر الخط» Uber die linie بمناسبة الذكرى السنوية الستين لميلاد البروفسور الفخري الالزامي المطهر من النازية مارتن هايدغر(٥٣). هذا الذي كُرم بهذا الشكل والذي استعاد كرسيه بعد عام واحد، كافأ يونغر بالمشاركة في ذكرى ميلاده السنوية عام ١٩٥٥ إذ كتب مادة تحت العنوان المثير (حول «الخط»)(٥٤). وفي المناسبة الأولى بادر يونغر الى الرد على هايدغر بمقال «نهاية العصر التاريخي»(٥٥). وهكذا فإن الحوار العلني بين الماشي في الحقول وبين الماشي في الغابات(٥٦).

ـ كان يترك انطباعاً مفعماً بالمرح لدي». وحسب رأي فاي لم يكن لديه سوى الاحتقار ازاء الآخرين وخصوصاً يونغر وهايدغر اللذين وصفهما بـ «حالبي الوجود».

٥٣ ـ في أينتايله. فرانكفورت ١٩٥٠.

٥٤ ـ (يشكل العنوان تلاعباً بغموض كلمة أوبر über الألمانية التي يمكن أن تعني إما «عبر» أو «حول») في موهلر (ناشراً)، وتمت إعادة نشرها بعنوان «عن مسألة الوجود» في هايدغر، علامات الطريق»، فرانكفورت ١٩٥٧.

٥٥ ـ «حول نهاية العصر التاريخي» في غونتر نيسكه (ناشراً): الذكرى السبعون لميلاد مارتن هايدغر، فولينغن ١٩٥٩. وهو ما شكل فيما بعد الجزء المركزي من كتاب يونغر «عند جدار الزمن».

٥٦ ـ الاشارة هي إلى «طريق الحقل» لهايدغر و «طريق الغابة» ليونغر. وهذه الدراسة التي بدت كما لو أدت الى اثارة حماس أتباع هايدغر في الأدب، كُتبت في ١٩٤٧، نُشرت مغفلة التوقيع كمقال صحفي في ١٩٤٩ وأعيد اصدارها بعد ذلك كراساً من سبع صفحات في ١٩٥٤، بيعت ٤٥٠٠٠ نسخة ككل. يهمس النص الملغز بأسلوب مفعم بالوطنية عن الوجود. يتركز الكلام في النهاية على السلم والعزلة: «يتواصل مع أولئك الذين ذهبوا، قبل الأوان ضحايا في الحربين العالميتين. لقد أصبح البسيط أكثر بساطة مما هو. ما يبقى على حاله باستمرار يثير القلق ويبعث على النفور. باتت كلمات طريق الحقل واضحة تماماً. هل تتكلم الروح؟ هل يتكلم العالم؟ هل يتكلم الله؟ كل الأشياء تتكلم عن الاستنكار باللغة نفسها. والاستنكار لا يأخذ. إنه يعطي. إنه يعطي ـ

بدأ مع الأزمة الوجودية عقب انهيار الرايخ الثالث وانتهى مع بزوغ فجر مابعد التاريخ.. ومن شأن هذا ، بالنسبة ليونغر ، أن يوفر امكانية قيام «رايخ ثالث» جديد ، يكون الآن بالطبع امبراطورية مفعمة بالحب والروح مثل الجنة الموعودة الواردة في نبوءات القرن الثاني عشر التي لم تتحقق هي الأخرى ـ ولكنها بقيت ـ كما سيعلم قراء «اسم الوردة "The Name of the Rose" لاومبرتو ايكو مابعد الحداثيين ، موضوع انتظار محموم لدى العديد من الناس .

يمكن وصف الحوار بين يونغر وهايدغر بما كتبه الأخير عام ١٩٥٠ عن «ممرات "Holzwege" ، التي هي مجموعة مؤلفاته في الأعوام التي قضاها في الغابة : «إن الشجر اسم آخر للغابة . فبين الأشجار ثمة ممرات مغطاة عادة بالنباتات ولا تلبث أن تنتهي فجأة بمسارب غير مطروقة . إنها معروفة باسم ممرات الأماكن المشجرة . كل منها ينطلق وحده ، ولكنها جميعاً في الغابة نفسها . غالباً ما تبدو متماثلة . ولكن ذلك لا يكون إلا في الظاهر .(٥٧)»

ـ القوة اللامحدودة لما هو بسيط . تجعلنا الكلمات نحس بأننا في وطن يعود لسلالة سحيقة القدم» . وفي ١٩٤٧ ، بعد عملية تطهير من النازية دامت عامين ، أجبر هايدغر على التقاعد . وبعد عامين آخرين كان الأسلوب الجديد جاهزاً لان ينقش في لوح من الغرانيت «الهدوء يهدّئ . ما الذي يهدّئه ؟ إنه يهدئ الوجود ويدفعه الى مجيء حضور العالم» (التقنية والمنعطف ، ١٩٤٩ ، الترجمة الانجليزية : المنعطف في المسألة المتعلقة بالتكنولوجيا ومقالات أخرى ، نيويورك ١٩٧٧ ، ص : ٤٩) . للاطلاع على نقد الفكرة انظر تيودور أدورنو ، «الجعجعة عن المصداقية» The jargon of Authenticity ، ايفانستون ١٩٧٣ .

٥٧ـ مارتن هايدغر مقدمة لـ هولز فيغة (١٩٥٠) . فرانكفورت ١٩٥٠ ـ ط٢ ١٩٨٠ . واستخدام عبارة هولزفيغه ينطوي هو الآخر على تلاعب ساخر بالكلمات لأن استعمالها الاصطلاحي الوحيد باللغة الألمانية يأتي في auf dem Hozweg sein : «الانحراف الى الطريق الخطأ» .

أما مقال «عبر الخط» ليونغر فيتعامل مع «عبور الهاجرة» (Null-meridian) وهذه صورة أقرب الى إثارة الرعب ، وفق تقليد «اليابسة والبحر»(٥٨) ، بالنسبة للحالة الشخصية والتاريخية لأولئك النخبويين الصغار الذين كرسوا مواهبهم لقضية صعود الفاشية فسيقوا الى قلب العزلة تحت وطأة فظائع النزعة العدمية . في يومياته عن الحرب أطلق عليها ، ببساطة ، اسم : نقطة الصفر ، أي الأمل في التغلب على عدميته من خلال القراءة اليومية للانجيل .(٥٩) ولكن صورة «الهاجرة» توسع تلك الحالة لتشمل نقطة صفر مرحلية مما يودي الى استحضار الانتهازية الميتافيزيقية للبرجوازية فيما يعرف بـ «ساعة الصفر»(٦٠) . إن تلاشي القيم والمسؤولية في عدمية يونغر الخاصة المميزة ينعكس على الثقافة ككل ، فيبدو «الضمور» طابع العصر أو الحقبة . غير أنه أيضاً يرثي لحال العالم البائس ويعتبر الجماهير مسؤولة ومذنبة لأنها بعيدة عن أي التزام ديني أو ميتافيزيقي آخر . وبما أن البحر بات محرماً عليه ، وهو أقل جاذبية ، على أية حال منذ لقي مركب الجبابرة (التيتانيك) مصيره المحتوم ،

---

٥٨ ـ وتشير في الوقت نفسه الى تجربة يونغر أيام الحرب في باريس حيث عبارة "Passage de la ligne" الفرنسية كانت تعني الانسحاب من ورطات العمالة عن طريق العبور من المنطقة المحتلة الى المنطقة غير المحتلة من فرنسا . انظر ، مثلاً ، مذكرات بيرتراند دوجوفنيل ، «رحالة عبر القرن : Un Voyageur dans le siecle» ، باريس ١٩٧٩ .

٥٩ ـ شوارتز ، ص ٢٢٣ ، يقدم تحليلاً معقولاً للتوترات الألفية والفردية في النزعة الخلاصية الكامنة وراء صورة التاريخ لدى يونغر .

٦٠ ـ انظر ماكس بينسه : «البطالمة الماريتانيين ، أو الهجرة اللاهوتية للأدب الألماني» ، كولونيا ١٩٥٠ ، فتحصل على نقد لاستخدام يونغر وبين للصور البيانية فضلاً عن الخطأ الحاصل لدى وضع يونغر في العالم الروحي للقرن التاسع عشر .

فإن المعبر لا يفضي إلا إلى قلب الغابة . وهناك يلتمس القرب من الوجود ، ولكنه يلوذ في الوقت نفسه بمخبأ يختفي فيه . ففي عصر اشاعة الصفة الجماهيرية لا يستطيع المرء أن يتوقع أكثر من نظام استبدادي آخر ، ولابد للأزمة التي تصاحب عملية الانتقال من أن تنطوي على جملة من المخاطر تحديداً بالنسبة لأولئك الذين سارعوا في البداية الى النطق باسم النظام السابق ، نظراً لأن هذا النظام الاستبدادي الجديد يكون ، بالضرورة ، موثقاً بشكل أفضل من خيبتهم وترفّعهم الثقافي . كانت حال مارتن هايدغر نموذجية جديرة بالملاحظة : في السنوات الأخيرة من عقد العشرينيات كان يعتبر المفكر الجديد للعالم التاريخي وكان يريد أن يتحول الى قائد العالم الروحي في ١٩٣٣ ، وبالتالي فإن تبروءه عبر انسحابه من العالم الى قلب جملة من المبادئ الأساسية يجعله تنويعاً مثيراً للاهتمام وبعيد الصدى على وتر يونغر .

ذيل : قيادة القائد

اشتهر هايدغر أواخر العشرينيات بكتابه «الوجود والزمن» Sein und Zeit الذي حاول فهم معنى الوجود في الفكر المتركز على الذات الفردية («المصداقية») وعارض به اضافات سطحية أسبغها الجمهور (الهم the they)[٦١] على المعاني . وفي أثناء عمله مع أساتذة متبحرين في فلسفة التاريخ مارس هايدغر تأثيراً جذاباً وتعليمياً كمعلم[٦٢] . وعلى

---

٦١ ـ مارتن هايدغر ، «الوجود والزمن» (١٩٢٧) ، نيويورك (بالانجليزية) ١٩٦٢ .

٦٢ ـ انظر مذكرات حنا أرندت المشحونة بالعواطف الايجابية في فالتر بيمل ، «مارتن هايدغر» ، راينبيك ١٩٧٣ .

الرغم من اتخاذه موقفاً رافضاً من الحياة العامة في فايمار ، فإنه لم يشارك بعد في أي نشاط سياسي . ولكنه ، مع وصول هتلر الى السلطة في ١٩٣٣ ، وافق على شغل منصب عمادة جامعة فرايبورغ أملاً في صياغة «الثورة القومية» في مجمل قطاع التعليم العالي بالمانيا .

لقد أظهر هابرماس كيفية تحول أهمية فلسفة هايدغر ، في وسيلة «الثورة القومية» هذه الأهمية التي ربما كانت من قبل اشكالية ولكنها أصبحت مؤهلة لأن تصبح موضوع نقاش على نطاق واسع ، كما حصل فعلاً . موضوع نقاش انزاح خلسة عن الفرد الى الجماعة . فالوجودية المسيحية المضمرة تحولت ، بهذه الطريقة ، الى طقطوقات (جمجمات ، أناشيد) قومية لـ «الوثنية الجديدة»(٦٣) . ثمة حوار نشأ مؤخراً حول هذا التحول الذي لا يمكنه تجنب مسألة ما إذا كان ممكناً الفصل بين مؤلّف هايدغر ، وهو الفيلسوف ذو الشهرة العالمية ، وبين تاريخه الشخصي(٦٤) .

---

٦٣ ـ انظر هابرماس ، «خطاب الحداثة الفلسفي» ، ص : ١٥٧ ف . «قام هايدغر باكساب المفاهيم الأساسية (تلك التي بقيت على حالها) للاونطولوجيا القاعدية مضموناً جديداً في ١٩٣٣ . اذا كان قد استخدم قبل الآن كلمة الوجود Dasein بطريقة لا لبس فيها للدلالة على الفرد المعزول وجودياً في طريقه الى الموت ، فإنه يستبدلها الآن بالوجود الجماعي لشعبنا الموجود حسب القدر . إن المقولات الوجودية كلها تبقى على حالها ولكنها تغير معانيها بضربة قلم ، ولا يقف الأمر عند تغيير أفق مغزاها المعبر . أما الدلالات التي تدين بها لجذورها المسيحية وخصوصاً كيركيغارد ، فيتم قلبها في ضوء وثنية جديدة باتت سائدة في ذلك الزمن» . ويلفت هابرماس أنظارنا الى «اللحن الفاحش للدلالات» عبر مثال دعوة هيدغر إلى إعلان هتلر «قراراً وجودياً أخيراً من نوع معين» .

٦٤ـ كان كتاب فيكتور فارياس «هايدغر والنازية» ، فيلادلفيا ١٩٨٩ هو الذي أثار الجدل ففي ألمانيا شكل نوعاً من الصدى لـ «نزاع المؤرخين» ، في حين أثار في فرانسا بعضاً من ردود الفعل الغاضبة جراء محاباته غير المباشرة للتفكيكيين على الصعيد السياسي ، انظر يورغ آلتفيغ ، «دي هايدغر كونتروفيرسه» ، فرانكفورت ١٩٨٨ ، ولو ديبا ١٩٨٨/٤٨ . أما واقع الحال قبل هبوب العاصفة في فرانسا فنجده في ميشيل هار ـ

قد يساق جواب سريع وموقف يقول : إن تورط هايدغر مع النازيين لم ينشأ بالضرورة من كتاب «الوجود والزمن» ،ولكن هذا الكتاب لم يؤد في الوقت نفسه الى الحيلولة دون ذلك . كان المؤلف منتمياً الى طبقة صاعدة من المثقفين الذين أرادوا «اعادة الفلسفة الى مكانتها المهيمنة» ؛(٦٦)

(محرراً) : «دفاتر هيرنه : هايدغر» باريس ١٩٨٣ . والدفاع عن هايدغر في وجه فارياس تولاه فرانسوا فيدييه ، «هايدغر : تشريح فضيحة» ، باريس ١٩٨٨ ؛ وايرنست نولته «ذروة من ذرى نقد هايدغر ؟» في هيستوريش زايتشريفت ، ٢٤٧ (١٩٨٨) ؛ انظر أيضاً مجموعة مقالات حلقة الطلاب بعنوان «هايدغر والفلسفة العملية» ، فرانكفورت ١٩٨٨ . ثمة مجموعة مبكرة من المواد حول أطروحة فارياس في كتاب غويدو شنيبيرغر : «قراءة لاحقة لهايدغر» ، بيرن ١٩٦٢ . أما نتائج البحث التاريخي المضني فقد طرحها الآن هوغو أوت في كتاب «مارتن هايدغر : أبحاث حول سيرة حياته» ، فرانكفورت / نيويورك ١٩٨٨ . ثمة تساؤلات مماثلة طفت على النقاش حول التعاون المبكر المكبوت للبلجيكي بول دومان (أحد أبناء عم هندريك) في ظل الاحتلال الألماني وحول مقالتيه المعاديتين للسامية اللتين كتبهما آنذاك ؛ فيما بعد انتحل شخصية أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية وأصبح رائد المدرسة التفكيكية في النقد الأدبي . انظر هانس تيس ليهمان : «بول دومان : تفكيكياً» ميركور ٤٢ (١٩٨٨) ، وللاطلاع على موقف مناقض ، تسفيتان تودوروف في الملحق الأدبي للتايمز ، ١٩٨٨ ، ص٦٧٦ . أما عدم الارتياح الذي أبداه جاك دريدا ازاء هذه الأشكال من البوح - بوصفه صديقاً لدومان تحديداً ، وهو الذي قام بصياغة معنى مفهوم الذاكرة للتفكيكيين ، فيبرز على السطح لدى مقارنة «ذكريات لصالح دومان» الطبعة الثانية ، نيويورك ١٩٨٩ ، كتبت في ١٩٨٤ ، بالمادة التي حملت عنوان «مثل صوت البحر عميقاً في قلب صَدَفة : حرب بول دومان» التي أعيد نشرها في المجلد نفسه .

٦٥ ـ من حيث الجوهر كان هذا الموضوع مطروحاً للمناقشة في ١٩٥٣ في مقال كارل لوث «هايدغر : مفكر في زمن بائس» في المؤلفات الكاملة ، المجلد الثامن ، شتوتغارت ١٩٨٤ ، ص : ١٢٤ ـ ١٣٤ .

٦٦ ـ هابرماس : خطاب الحداثة الفلسفي ، ص : ١٣١ .

وكان في الوقت نفسه من أتباع المدرسة الاقليمية الكاثوليكية المعادية لفايمار ، وإنْ من مواقف خاصة قائمة على العزوف عن السياسة في البداية . ثم جاءت «ثورة «هتلر» القومية» لتوفر الأداة التي من خلالها يمكن ادماج الثقافة الأصيلة وتطلعات المثقفين الطامحين الى الهيمنة بمؤلف هايدغر الذي جاء في الوقت المناسب والذي لم يكن يتطلب سوى تعديلات طفيفة وإن كانت حاسمة . ونظراً لانفتاح العمل هذا مما جعله متحولاً تابعاً عبر الدورة القصيرة بين السيرة الفردية والتاريخ ، ثمة ما هو بال وعتيق حول السؤال الراهن عما اذا كان يجب وضع الشخص في اطار الحصيلة الضرورية لعمله ، أم لابد من الفصل بين هذا العمل وبين نقاط الضعف والهنات الموجودة في مؤلفه .(٦٧)

٦٧- بطبيعة الحال ، ليس الأمر بالياً كما يصوره بودريار في «الجدل حول هايدغر : كم هو متأخر ! في ديزايت ، ١٩٨٨/٢/٥ (وفي «الطريق القديم» ، ص :١٦٦) ينطوي الحوار ، برأي بودريار ، على «منظور - موتي» (منظور له علاقة بالموت) ، وهو دليل نوع من فقدان الواقع يغطي استحالة فهم التاريخ في العالم الذي غربته وسائل الاعلام ، مثال كلاسيكي لكبت ما بعد تاريخي عن طريق أعمال فنية ثقافية ، يتعين عليه أن يجعل ، في نظر هذا الشيوعي السابق المغرض ، حتى واقع أوشفيتز مسألة تحتاج الى مناقشة . انظر بودريار : لوتربار لوي ميم L'Autre par lui meme ، باريس ١٩٨٧ . أما كفاح جورج شتايز الذهني البائس لسبر صمت هايدغر عن الرايخ الثالث والكارثة فمختلف تماماً ، فشتايز يعتبر فلسفة هايدغر وتفسيره للغة من أهم مافي القرن العشرين ، ولكنه يدين باقسى قذر من الحدة التفكيكيين الفرنسيين : دريدا ، لاكو- لابارت ، وليوتار ، على محاولاتهم الحديثة الرامية ، عن طريق عمق التفسير ، الى تقديم خطابات هايدغر الاشتراكية القومية بوصفها بالية وعقيم («فظاظة مضخمة») ، بل وحتى رفعها الى مستوى بلاغة سياسية . بالنسبة لشتاينر نفسه لا يبقى سوى التمزق القصاصي الشيزوفريني بين فكر «عظيم» من جهة وحياة «صغيرة» بـ «المعنى المبتذل» من جهة ثانية : «كان هايدغر كشخص شخصية عادية ، رجلاً تقدمت به السن مفعماً بالخبث والطموح ، رجلاً مثقلاً بتقاليد «زراعية» عميقة الجذور قائمة على التخفي والاستغلال . صحيح أن حقله ربما أعطت محصول الشيطان ، ولكن هذا المحصول عائد اليه هو .

في خطاب برنامجي دعا هايدغر مرة الى «قيادة روحية» للتعليم العالي ، إلى اعادة توجيه الحرية الأكاديمية عبر الالتزام بالجماعة القومية («خدمة العمل» «الخدمة العسكرية» و «خدمة المعرفة») ، والى عالم شعبي روحي جديد ، كضمانة لعظمة الشعب و «السلطة التي تحافظ بأقصى درجات العمق على قواها المرتبطة بالتراب والدم» . «لأن ذلك يفرض أن يكون الخيار الدائم بين ارادة العظمة وبين نوع من ترك الأمور تجري بما يفضي الى الانحطاط ، القانون الذي يتحكم بالمسيرة التي بدأها شعبنا نحو تاريخه المستقبلي .»(٦٨)

بمفاهيم وجودية أساسية عن التصميم أو ارادة الذات والعظمة ، جنباً الى جنب مع النضال بوصفه المبدأ الأساس في الحياة ، سعى هايدغر الى جعل فلسفته البرنامج الروحي للحركة السياسية والى «قيادة القائد»(٦٩) ـ كما قال ياسبرز باحتقار . خلافاً للعديد من التحركات الانتهازية التي ظهرت في تلك الفترة ، كانت خطابات هايدغر تستهدف أن تؤخذ مأخذ الجد ، وكان ادراكه لحقيقة عدم الاعتراف بقيادته في التعليم العالي ، ناهيك عن البلاد ككل ، شديد القسوة . فخلال عدد قليل من الأشهر كان «القدماء والجدد» في سياسة الجامعة يتكاتفون «لشل جهودي والخلاص مني آخر الأمر» .(٧٠)

---

٦٨ ـ مارتن هايدغر : «الجامعة الألمانية تؤكد ذاتها : خطاب ألقاه لدى توليه منصب عمادة جامعة فرايبورغ» ، ريفيو ميتافيزيك ، ٣٨ ، آذار ١٩٨٥ ، ص : ٤٧٦ ـ ٤٧٧ . وهذا الخطاب الذي ألقاه عام ١٩٣٣ مرفق هنا ، بمقال ، «العمادة ٣٣ ـ ١٩٣٤ : حقائق وأفكار» كتبه هايدغر دفاعاً عن نفسه في ١٩٤٥ . عن الاطار أو السياق انظر فارياس ، ص : ٩٦ ف ف ، وهانس ايبلينغ : «حدث القائد : جواب هايدغر» في كتاب سيغفريد بلاشب وآخرين ، «مارتن هايدغر : رؤى داخلية وخارجية» ، فرانكفورت ١٩٨٩ .

٦٩ ـ انظر البيبلوغرافيا في أوتو بوغلر «قيادة القائد ؟ هايدغر بلا نهاية» في فيلوسوفيشي روندشاو ، ٣٢ (١٩٨٥) .

٧٠ ـ «العمادة ٣٣ ـ ١٩٣٤» ، ص ٤٨٣ .

بعد ذلك انسحب هايدغر ولكنه لم يُحْدِث أية قطيعة مرئية . ظل يمارس التعليم ، بقي عضواً في حزب NSDAP الذي انتسب إليه عام ١٩٣٣ ، نشر مؤلفاته الفلسفية ، وشطب اهداءه الى معلمه اليهودي ادموند هوسرل من طبعة ١٩٣٧ لكتابه «الوجود والزمن» ، وشارك أيضاً في حلقات حكومية استشارية ووضع تقارير معادية للسامية ، غير أن من الضروري أن نقول : إن هايدغر كان قومياً ـ راديكالياً أكثر منه عرقياً ـ عنصرياً ، وقد كان ذلك هو السبب الوحيد الذي جعل الفريد روزنبرغ ، النبي الايديولوجي العنصري للنظام الجديد ، لا يطيق أية منافسة من جانب هايدغر .

الانحدار الى العمق

لم يتزحزح هايدغر قيد أنملة عن تصميمه على تأكيد عظمته هو ، كفيلسوف أولاً . وكمخطط سياسي ثقافي ناجح نظرياً بعد ذلك ، وكحكيم متفرد أخيراً ، المدافعون عنه بالذات يعتبرون هذا القوة الدافعة الأعمق لالتزامه بالاشتراكية القومية .[٧١] حتى في ١٩٤٥ ، حين كان قد أُعفي من منصبه من جانب قوى الاحتلال ، كتب الى جامعته قائلاً أنْ لاباس من اضطراره الى الانتظار ، غير أن المشكلة الأهم كانت ما اذا كانت الشبيبة الألمانية والحالة الثقافية قادرتين على الانتظار[٧٢] ، انتظاره هو على ما يبدو . إن ولعه بالألاعيب اللغوية القصيرة المبتسرة قاده الى اجترام طريق غابة تحت الأرض ، كافق ، من «الانحدار» . ففي صيف ١٩٤٥ كتب الى أحد

٧١ـ يرى وينفريد فرانزن أن هذه «الرغبة في تجاوز الظل الطاغي»التي كمنت في أعماق كتابات هايدغر كلها إضافة الى خطه السياسي ، يمكن فهمهما كمزاج شخصي . غير أن أوهام العظمة لدى المثقفين تشكل آلية بنيوية لصالح الانتاج الايديولوجي .

٧٢ ـ انظر فارياس ، ص : ٢٨٠ .

زملائه الذين يشاطرونه رأيه : «كل شيء يشير الآن الى الدمار ، غير أننا نحن الألمان لا نستطيع أن ننزل الى الأسفل ، لأننا لم نصعد بعد ؛ وبالتالي فإن علينا أن نداب على الكفاح عبر الليل» .ومنذ شتاء ١٩٤٤ كان قد سجل في دفتر زوار أحد أصدقائه عبارة تقول «ليس الانحدار شبيهاً تماماً بالموت ، فكل انحدار يبقى آمناً في اطار الصعود» .(٧٣)

يمر الانحدار الذي يحدث لدى تأزم الظواهر التاريخية عبر منطقة غارقة في الظلام . وحيث يكون الوجود التاريخي للمؤلف عرضة للشبهة أو الافتضاح ، فإنه يسعى الى الفصل بين هذا الوجود المشبوه وبين انعكاسية ذاته الثانية ، أي مؤلَّفه الضامن للشهرة : «الوجود والزمن» - حتى يبقى قادراً على الاحتفاظ بهذه الشهرة ليوظف ظلها في سبيل تأمين وجود خاص منمط جداً سيبقى مستمراً أو سيزيد حدة . لم يكن هذا الانسحاب التكتيكي من التاريخ والسياسة إلا من أجل الحفاظ على القيادة الروحية عن طريق التباهي . وعلى الرغم من احتمال اعتبار خط هايدغر الصدامي في تعامله مع ثقافة فايمار كنوع من «التوق الى الثبات والحزم»(٧٤) ، فإن تلميذه النقدي كارل لوويث ، بلهجة بالغة اللطف من الريبة ، عزا الانعطاف أو الانقلاب المزعوم الى نوع من «التماس فقدان الصلابة والتصميم»(٧٥) ، وبالتالي الى نوع من الهروب من مسؤوليته الخاصة .(٧٦) لقد أدى هذا الى

---

٧٣ - انظر فارياس ، ص : ٢٨١ . ٧٤ - انظر فرانزن .

٧٥ - لوويث ، ص : ٤٤ .

٧٦ - في خطاب الحداثة الفلسفي (ص : ١٥٥) يعلق هابرماس ، وهو على حق ، قائلاً : إن «خطأ» هايدغر السياسي أقل ازعاجاً من «عدم رغبته» اللاحقة . . «في الاعتراف بخطئه ولو بجملة واحدة» . فواقع أنه ، في مواجهة التحقيق من قبل لجنة التطهر من النازية ، لاذ بمشفى للأمراض النفسية ، ومنع خلال حياته نشر تصريحاته الاعتذارية عن الاشتراكية القومية (النازية) ، يشي أيضاً بمحاولات بذلها لمنع تحطيم حلمه بالعظمة . انظر مقدمة هابرماس للطبعة الألمانية من كتاب فارياس حيث يشير الى أخطائه الهايدغرية المبكرة .

كـتـابات دأبت بـاسـتـمـرار على تـغـيـيـر مـعنى كـتـابه الأسـاس ، كـمـا لو أن تحقيقاته كانت قد تركزت أساساً لا على «الوجود الانساني» DASEIN ، بل على «الوجود المجرد» Being (Sein) كشرط مسبق للفكر ، فيطري المفكر كانسان يعيش قريباً من الوجود ويكون شاهداً على تاريخ هذا الوجود .(٧٧) ففي المقطع الجديد ، حيث التلاعب اللفظي المسرف في ألمانيته ، يبدو الوجود «فسحة» «يعيش أو يوجد» الانسان على هوامشها ـ أي ينتصب واقفاً ويبرز ـ مديراً ظهره الى الغابة .(٧٨) ومن هذا الموقف تتعرض سائر التفاعلات الملموسة تاريخياً ، جميع أشكال المسؤولية ومختلف ألوان التواصل للتلاشي في «مصير» لا يمكن تعديله ، في أفضل الأحوال ، إلا من خلال التغيب أو العزوف ، وبدلاً من ذلك يعتقد هايدغر أنه يستطيع أن يلمح حقبة جديدة في تاريخ الوجود ، حقبة سوف تحل محل اليقين الذاتي والطمأنينة التكنولوجية لدى الحداثة .(٧٩)

---

٧٧ ـ هذا «الانقلاب» الطافح بانكار الذات ورد في رسالة موجهة الى زميل عام ١٩٤٦ . وبعد ذلك تم إرسالها الى فرانسا حيث كانت فلسفة هايدغر متمتعة بعدد من الأتباع وحيث كانت سلطات الاحتلال الفرنسي قادرة على تغيير مصيره . لابد من أن نلاحظ أن تعليق هذا القدر الكبير من الأهمية على «الثورة المحافظة» ، والمؤسسة الأكاديمية ، يشير الى أن بورديو يسيء فهم طابع أوضاع مابعد الحرب . ففي النزعة الابتذالية الصارخة لمحاضرة هايدغر عام ١٩٤٩ عن التكنولوجيا وهي المحاضرة التي لم تلق إلا بعد انقضاء أربع سنوات على طرده ، يرى فعلاً نوعاً من اللفظية الفارغة لدى أحد بيروقراطيي مؤسسة جامعية!

٧٨ ـ بهذا الأسلوب الغامض الجديد في الكتابة يلتقط الفيلسوف العاجز عن التخلي عن ذاته بأي شكل من الأشكال المفهوم المركزي لـ «الوجود والزمن» في كيانه الجديد كـ«ممثل لما هو مقدس» وبشير أسيء تحديده لتاريخ الوجود . يقرأ بورديو عالم الصور في مؤلف هايدغر اللاحق كأداة لرقابة عشوائية ، يتركز هدفها على لاهوته السياسي الوضعي السابق في مواز سلبي ، مثل «منظومة كل ما يستبعده . .» (الاونطولوجيا السياسية... ص أ . ٧ ف ف) . ويمكن أن يقرأ أيضاً على أنه أداة ما ليس متمسفاً .

٧٩ ـ يوضح هذا الخيار شعبية هايدغر بين بعض أولئك الباحثين عن وجهات نظر بديلة ـ

ليس سهلاً تصور القرب من الوجود حرفة، شكلاً من أشكال العيش على الأحلام والتأملات. غير أننا بتنا نعرف ما يكفي لنفهم حقيقة أن ناسك الفلسفة الذي أنعمت عليه القوة التي لا تعرف النفاد لما هو بسيط بمرجعية جديدة، كان في وضع يمكنه من تبني المنظور المركزي الجديد عن الوجود أو العدم Nothingness .(٨٠)

ـ بما يزيد من ابرازه كآب روحي لما بعد الحداثة. انظر، مثلاً، ريتشارد بالمر «مابعد حداثة هايدغر» باوندي (١٩٧٦). غير أن وولفغانغ ولش، في معرض مقارنة مع ليوتار، قد بين أن هايدغر يتابع، على أساس معاد للحداثة، التراث الأقدم للفكر المتركز على الوحدة، في حين أن الرؤيا ما بعد الحداثية الأساس تركز موقفها من الحداثة وتشخيصها للعصر على تعددية جديدة للأشكال. (حداثتنا مابعد الحداثية. فاينهايم ١٩٨٧). يرى هابرماس أيضاً توجه هايدغر أسيراً للماضي: «ولكن لو أمكن، على النقيض، تصعيد الخيبة مع الاشتراكية القومية (النازية) إلى ما وراء الدائرة الخلفية للحكم والفعل المسؤولين وتم صبها في قالب خطأ موضوعي، خطأ يتكشف تدريجياً في التاريخ (أي تاريخ الوجود)، لباتت الاستمرارية مع نقطة انطلاق الوجود والزمن غير معرضة للخطر... لأنه آنذاك، كان قادراً على رؤية الفاشية نفسها عرضاً من الأعراض وعلى تصنيفها جنباً الى جنب مع النزعة الأمريكية والشيوعية، كتعبير عن الهيمنة الميتافيزيقية للتكنولوجيا»، خطاب الحداثة الفلسفي، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

٨٠ ـ في أواسط الخمسينيات رسم ياسبرز هذه الصورة لهايدغر: «يأس عميق: لا إيمان بالتواصل ـ وعي بوحدة كاملة ـ دون أن يعاني منها بالفعل ـ بل في تحد سلبي ـ وعي بالانحطاط، ـ نهاية تاريخ الانسان ـ مع الاستحضار المصطنع غير المقنع لامكانيات بدائية ـ احتقار للانسان ـ رغبة في الاعتراف الذي لا يريد الاستغناء عنه ـ أنفسهم صورة لها: عواطف رومانسية عند الأطراف والهوامش ـ افتقار الى الالزام ككل ـ قاعة برموز غامضة غير ملزمة مفتقرة الى العواقب، سبيلاً لنجومية ذاتية، لوعي المرء بقيمته في إطار ماهو سلبي». «من يحتل مكاناً في اللاشيء»، «حارس الوجود». كارل ياسبرز الملاحظة رقم ١٢٩ (٥٤ ـ ١٩٥٥)، حول هايدغر في: كتابات فلسفية أساسية، أثينا، اومايو ١٩٨٦، ص٥٠٣ ـ ٥٠٤.

فمتماثلتان تماماً على الصعيد المتيافيزيقي ، أي على مستوى طابعهما العالمي وعلاقتهما بالروم . . . إننا بين فكي كماشة . تتعرض أمتنا الموجودة في المركز لأقصى الضغوط . إنها الأمة الأكثر جيراناً وبالتالي الأشد عرضة للخطر.. إذا لم يؤد القرار العظيم المتعلق بأوربا الى الابادة ، فإن على ذلك القرار أن تتم صياغته وفق شروط طاقات روحية جديدة تنبثق تاريخياً من قلب المركز .(٨١)

رغم وجود عدد غير قليل من النقاط المشتركة ، فإن هايدغر لا يعير أي اهتمام لأمل يونغر القائم على سرعة تجاوز هجيرة العدمية بما يمكّن الفئات النخبوية الصغيرة في الثورة المحافظة من الإحساس بنوع من الغابة الميتافيزيقية تحت أقدامها . فمع سيطرة المدنية التكنولوجية ـ الصناعية على مستوى «الكوكب» ، الأمر الذي وصفه يونغر في «العامل» ونيتشه في «ارادة القوة» ، والذي هو ، بالنسبة لهايدغر «آخر مراحل العدمية متجسدة في دولة راسخة» ، يغدو خط يونغر «واسعاً جداً» أو «غير منظور بعد في النهاية»(٨٢) . لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ينجذب فيها هايدغر الى الجبال أو يتم اغراؤه بها ، حيث يستطيع أن يفكر بالانسان على أنه «راعي الوجود» . أما عبور يونغر للخط فلم يكن بالمقابل ، حسب رأي هايدغر المشوب بالريبة ، سوى هروب فردي يدلي بدلوه ، كما يتلجى من اللغة ، في ميتافيزيقا العدمية . إن داعية أو إمام الاله القادم ، الذي يمكن بناء ملكوته بفضل وعي الخطر التكنولوجي ، اذا لم يجر دفنه في مقبرة كارثة

٨١ـ هايدغر ، «مقدمة للميتافيزيقا» ، نيويورك ١٩٦١ . وهذه النزعة القائمة على اعتبار التاريخ العالمي ذا محور عرقي ربَطَته بكل من يونغر وشميدت وقد طورها ايرنست نولته لاحقاً في عدد من المؤلفات مثل : «المانيا والحرب الباردة» ، ميونيخ ١٩٧٤ .

٨٢ـ هايدغر ، «مسألة الوجود» ، ص : ٤٩ .

ذرية ـ أبدى قدراً غير قليل من الحماس في عملية تفكيك الاغراءات الارادوية للميثولوجيا القائمة على النزعة الفردية («في نص تسهل قراءته ولكن التفكير به يكون صعباً») . فمعنى طريق الغابة لم يكن هروباً من ملكوت العامل القائم على الضرورة إلى عالم خيالي مفعم بالحرية ، عالم مازال التاريخ يكرر ذاته فيه بالنسبة لحفنة صغيرة (تتضاءل باستمرار في الحياة الواقعية) من الارستقراطيين ؛ بل كان ، بالأحرى ، هدوء الاستماع إلى الشارات الصادرة عن ايون جديد في تاريخ الوجود ، هذه الشارات التي لن تكون غريبة عن النزعات التكنولوجية الانسانية ، ولكنها ستكون ، بطريقة أو أخرى مصحوبة بتجسد جملة من الأخطار التكنولوجية . وفي الختام أحال يونغر على الخلل العقلي الذي أصاب نيتشه ـ كنذير انهيار أوحد للفكر العدمي ـ واستأذن للمغادرة مطلقاً عبارة اقتبسها من غوته عن خطر القطع النقدية البالية و «الشهادات المقدسة» في المبادلات الروحية .(٨٣)

لا ندري ما إذا كان هايدغر قد اقتنع برد الرجل الذي تعرض لمثل هذا التوبيخ . غير أننا ، على أية حال ، نعلم أن يونغر بذل قَدْراً استثنائياً من الجهود ليسند إعلانه عما بعد التاريخ بتفسيره الخاص لتاريخ الوجود : أي لتحديده على أنه منعطف في تاريخ الكرة الأرضية يشير الى انتهاء تاريخ الانسان .(٨٤) وفي هذا التقديم لمجمل فهم يونغر للتاريخ ،(٨٥) يكون أفق اي تحول ممكن للبشرية محيطاً بسائر أطروحاته السابقة كلها ،(٨٦)

٨٣ـ المصدر السابق ، ص : ١٠٨ .

٨٤ـ ايرنست يونغر ، «عند جدار الزمن» ، في المؤلفات الكاملة م : ٨ ، شتوتغارت ١٩٨١ .

٨٥ـ يستنتج هانس بيتر شفارتس من استعراض ملاحظات يونغر عن التاريخ منذ «حول الفكر» (١٩٢٧) مايلي : «ان هناك لحظة بالغة الألفية ، تشكل العنصر المشترك في موقف ليس تاريخياً من حيث المبدأ .»

٨٦ـ انظر الهوامش الواردة في الفصل الثالث ـ ب ـ من هذا الكتاب عن كل من بيرتو تيار ودوشاردان .

مع التناقض بين «العامل» و «ساكن الغابة» في مركز القلب منها . من جهة ، ليس المجتمع الجماهيري ، الذي يوحد الفاشية والبلشفية والنزعة الأمريكية توحيداً عميقاً ، جديراً بالحياة ، إذ يقود كوكب الأرض الى الهلاك . ومن جهة ثانية ، تبادر الفئات النخبوية الصغيرة المتميزة بنبلها ، عبر الزهد ، الى تبني الحرية القادرة وحدها على امتلاك التاريخ ، ولكنها بدلاً من الاستمرار في الإفادة منها ، تنشغل بنوع جمالي من ترهين الأسطورة والخرافة حيث تتم ممارسة التاريخ كله (وهو يعيد نفسه بالطريقة الشبنغلرية) في تواريخ حياتها الخاصة دون غيرها . وهنا نجدنا وقد عدنا تقريباً الى موقف كوجييف الأخير .

تعقيب على الغابة والواقع

إن لصورة يونغر المجازية عن طريق الغابة مستوى اضافياً من حيث المعنى : مستوى العالم الواقعي . ففي الحرب العالمية الثانية كان الشكل النموذجي تاريخياً لطريق الغابة قد انتقل الى حركة المقاومة كما نستطيع أن نرى من استعمال الفرنسيين لكلمة ماكي Maquis (التشكيل الريفي النموذجي) كعبارة جماعية تطلق على فرق الأنصار العاملة في المناطق الريفية من وسط وجنوب فرانسا .(٨٧) كانت أشكال حياة ونضال نموذجية

---

٨٧. مع اقتراب الهزيمة راح يونغر ينظر الى الحرب العالمية الثانية نظرته الى «حرب أهلية عالمية» . لم يكن ذلك منطوياً على انه انتقل الى صف الأنصار بل وضع سائر المشاركين في سلة واحدة دون النظر الى العدالة والتاريخ ، محرراً الألمان من اللوم والمسؤولية . ثمة معنى شبيه نجده في مذكرته «السلم» (هندسديك، ٣ ، ٤٨) التي تعتبر نداء موجهاً الى شبيبة أوربا والتي وفرها للمؤسسين في باريس بتاريخ ١٩٤٤/٧/٢٠ ، على الرغم من أنه هو نفسه كان ضد الاغتيال . طرد يونغر من الفيرماخت خريف ذلك العام . انظر لوس ، ص : ٢١٥ .

بالنسبة لفئات «نخبوية صغيرة» موجودة آنذاك في أرجاء أوربا المحتلة من قبل ألمانيا . غير أن تلك الجماعات لم تكن مؤلفة من نساك غارقين في ممارسة وعي الذات والتدرب على البقاء ؛ بل من تشكيلات نظامية حاولت كلما سنحت لها الفرص ، الارتباط بالحركة السرية في المدن وشاركت في النضال التاريخي مهما كان تقويمنا لمدى فاعلية مساهمتها في تحقيق الانتصار على الفاشية . وعلى الرغم من أن هذه الجماعات كانت معظم الأحيان هاربة ومطاردة من قوات الاحتلال فان هدفها ظل متركزاً على التحرير الوطني ، بل الاجتماعي قبل كل شيء ، لمجتمعاتها .

لذا فإن المعنى البطولي الكامن في صور يونغر البيانية يستخرج معنى مناقضاً من تجربة تلك الأيام .

٨٨ـ هندريك دومان ، «ضد التيار : مذكرات اشتراكي أوربي» ، شتوتغارت ١٩٥٣ . انظر بيتر دودج «بعد الماركسية : عقيدة دومان ومؤلفاته» ، لاهاي ١٩٦٦ ، مقدمة دودج (محرراً) ، بعنوان «دراسة موثقة لهندريك دومان» ، برينستون ١٩٧٩ ؛ وميكي كلايس ـ فان هايغندورن ، «هدنريك دومان : سيرة حياة» ، أنتويرب ١٩٧٢ . وهذان المؤلفان ينحصران ، كلاهما ، في حدود جملة من التفاصيل الخارجية عن فترة مابعد ١٩٤٠ . ثمة محاولة لاعادة تقويم نظريته وسيرة حياته جرت خلال مؤتمر عقد عام ١٩٧٣ ، ظهرت المداخلات التي ألقيت فيه في كتاب ايفو رينس (محرراً) «حول مؤلفات هنري دومان» ، عدد خاص من المجلة الأوربية للعلوم الاجتماعية ، ودفاتر فيلفريد وباريتو ١٢ ، جنيف ١٩٧٤ ، رقم ٣١ .

جـ ـ تيار دومان

بين الحين والأخر ظهر بالفعل واقع تناظر مع طريق الغابة عند يونغر ، فمن قد يبدو واضحاً جداً أنه عاش طريق الغابة هو ذلك الارستقراطي الاشتراكي هندريك دومان الذي تروي قصة حياته التفصيلية سيرة نموذجية لبطل رواية يونغر الأكثر كلبية ورمانسية . ففي الفترة الممتدة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤ عاش دومان في كوخ جبلي معزول في منطقة السافوا العليا بفرانسا ، ومع نهاية الحرب فَرَّ الى سويسرا . وهناك كتب كتاباً استمد منه الثوريون المحافظون السابقون في ألمانيا الغربية مفهوم «مابعد التاريخ» ،(٨٩) وإن أرادوا ، فيما يبدو ، أن يخفوا المصدر وراء قناع أحد العملاء من اليساريين السابقين . وربما كانت هناك أسباب أخرى لتجنب ذكره بالاسم ! ؟

ملاحظة بيوغرافية (سِيَرية) ـ ١ ـ

نظراً لأنه غير معروف جيداً بَعْدُ حتى الآن فإن ايراد بضع كلمات عن سيرة حياة دومان قد يكون مفيداً . ينحدر هندريك دومان (١٨٨٥ ـ ١٩٥٣) من إحدى الأسر التجارية بمدينة أنتويرب ، وقد أصبح فوضوياً في سن مبكرة ثم تحول الى ماركسي ؛ درس التاريخ في لايبزيغ ونال شهادة الدكتوراه تحت إشراف بوشر ولامبريشت ، وعمل في جريدة لايبزيغرزاتيونغ الاشتراكية ـ الديمقراطية حتى عام ١٩١٠ . وبعد عام قضاه

---

٨٩ ـ «شيوع الجماهيرية وانهيار الثقافة» (١٩٥١) ، الطبعة الثالثة ميونيخ ٩٥٣ ، ص : ١٢٥ . وعن إفادة غيهلن الخفية من الكتاب انظر ملاحظات الناشر في أرنولد غيهلن ، «المؤلفات» م : ٧ ، فرانكفورت ١٩٧٨ .

في انجلترا أصبح أحد مسؤولي الحزب الاشتراكي في بلجيكا وناطقاً باسم المعارضة الماركسية . ورغم كونه من دعاة السلام ، تطوع في الجيش بعد الغزو الألماني عام ١٩١٤ وعين ضابطاً . في ١٩١٧ التحق بوفد حكومي إلى روسيا - وهي تجربة جنباً الى جنب مع إقامة أطول في أمريكا - أقنعته بضرورة الديمقراطية للاشتراكية ووضعت حداً نهائياً لمرحلته اليسارية المتطرفة (الراديكالية) . وخلال عقد العشرينيات عاش، دومان في ألمانيا مدرساً في كلية العمال بفرانكفورت ومحاضراً بعد ذلك في مادة علم النفس الاجتماعي (السيكولوجيا الاجتماعية) بالجامعة . ومن بين كتاباته ثمة نقد لدور الماركسية كبديل للدين بالنسبة للكوادر الحزبية الصاعدة ، ودراسة مبكرة في ميدان السوسيولوجيا الصناعية .(٩٠)

في ١٩٣٣ عاد دومان الى بلجيكا وتم تعيينه ناطقاً باسم الحزب الاشتراكي في مجموعة دراسية مشتركة ضمت ممثلي رأس المال كُلفت بوضع مقترحات حول اجتراع خطة اقتصادية قادرة على تجاوز الأزمة . وعلى الرغم من أن «خطة العمل» هذه انهارت ، فإنها ساهمت في اشتهار مؤلفها بوصفه مدافعاً عن اشتراكية تسعى للارتقاء الى مستوى تحدي الفاشية والجبهة الشعبية في أوربا . إضافة الى توليه منصب رئاسة الحزب ، شغل

---

٩٠ - «سيكولوجية الاشتراكية» ، لندن ١٩٢٨ ، «المتعة في العمل» ، لندن ١٩٢٩ . قام عمله الرئيس بتحليل دوافع أولئك الذين تبنوا الاشتراكية ، بمن فيهم مؤيدوها البرجوازيون ، من منظور التعارض بين التقاليد القيمية الموروثة والوضع الحياتي الفعلي للبروليتاريا . وهذا لم يكسبه عدداً كبيراً من الأصدقاء في الحزب الاشتراكي الديمقراطي ولكنه جعله مبشراً بباد غودسبرغ منذ الثلاثينيات .

تعرض نصه البرنامجي الداعي الى اصلاح مثالي في الاشتراكية للمصادرة فور صدوره (١٩٣٣) ؛ وقد ترجمه ، كما رأينا من قبل ، كوجييف الى الفرنسية مع هنري كوريان تحت عنوان «الفكرة الاشتراكية» ، باريس ١٩٣٥ .

دومان مرات متكررة منصب وزير المالية ومستشار الملك الذي اتبع ، في ضوء تجربة الحرب العالمية الأولى ، سياسة الاسترضاء حتى بعد ميونيخ . وبالفعل فان دومان بقي الى جانبه بعد الاستسلام للألمان مي حين وقع اختيار أكثرية الطبقة السياسية على المنفى . في ١٩٤٠ ، عاقداً الأمل على أن الألمان قد يتحينون فرصة ما لاتباع سياسة مستقلة في بلجيكا ، قام دومان بدمج النقابات السياسية في تشكيلة لا سياسية واحدة ، وراح يتطلع الى نشوء اشتراكية اصلاحية في أوربا بعد أن وحَّدَها هتلر .

لدى اتضاح استحالة نجاح جهود دومان الافرادية في بلجيكا أكثر فأكثر ، بادر الرجل الى قطع تعامله ولاذ بكوخ جبلي يساعده على نسيان الدوامة السياسية ـ الثقافية . وبالفعل غاص في البحوث التاريخية عميقاً جداً حول أحد الأشكال المبكرة للنظام الرأسمالي من حرب السنوات المئة حتى أرخ ، أكثر من مرة رسائله بـ ١٤٤٤ بدلاً من ١٩٤٤(٩١) ؛ بقي الأعزب القوي المنضبط انضباطاً عسكرياً وحيداً تماماً في الجبال التي لم يكن يغادرها إلا نادراً الى كل من بروكسل وباريس : كان يستمتع بالطبيعة ، ويدير شؤونه المنزلية بنفسه ـ كما قال فيما بعد ـ(٩٢) ويعيش في قَدَرية نَشْوى مستمَدة من العزلة القصوى لفترة العمالة ، ويجد نفسه بين الحين والآخر بين فرق الأنصار (الماكي Maquis) وبين من يلاحقونهم . فر الى سويسرا قبل التحرير ولم يتم تسليمه في ١٩٤٧ حين حكم غيابياً بالسجن لمدة عشرين سنة على عمالته . تزوج في ١٩٤٨ وعاش في مرتفعات البيرنيه ؛ نشر ثلاثة كتب أخرى ثم قُتل في حادث سير عام ١٩٥٣ .

---

٩١ ـ دومان ، جاك كور ، ص : ٨ .

٩٢ ـ ضد التيار ، ص ٢٧٢ .

من غير المحتمل أن نفاجأ حين نرى رواية دومان لسيرة حياته الخاصة متقاطعة مرة أخرى مع رمز طريق الغابة ، وإنْ وُجِدَت فروق واضحة . فبعد تأكيد إيمانه بالاشتراكية واعترافه بجملة أخطائه وخيبات أمله ، يحاول دومان أن يدافع عن نفسه من منطلقات ملموسة ويقول إن حركة العمال حققت ، عبر القرن ، انجازات مادية وثقافية أساسية في مجال تحسين ظروف البروليتاريا . وبعد ذلك يسوق العبارات المعترضة التالية بصورة مفاجئة :

«تتأتى اللحظة المأساوية من امكانية ، إن لم يكن احتمال ، غرق السفينة التي بات ركابها من الدرجة الثانية في أحوال معيشية وتموينية أفضل من ذي قبل ، نفسها مع الأيدي كلها . غير أنها تبدو ، مؤقتاً ، مسوقة بتيار دائري أشبه بالدوامة ، يقترب من مركزه بوتيرة متسارعة تكشف النقاب عن الاقتراب المتسارع بقوة لكارثة أخيرة .(٩٢)»

مرة أخرى سفينة تواجه خطر الغرق . غير أن القضية هذه المرة ليست حرية القبطان أو حياة الشرائح الأفضل على ظهر السفينة ؛ فوحش الأعماق لم يعد متسللاً يزحف بين أماكن الركاب . في الحقيقة نرى دومان مسروراً ازاء تمتع الركاب هناك بنوعية أفضل من المسكن والغذاء . وكذلك لا تكون السفينة في مواجهة جبل جليدي ، تلك القوة البدائية البلورية الخارجة من الأعماق والتي تستطيع وحدها أن تُغرِق السفينة . صحيح أن هناك عدداً غير قليل من المشكلات والاضطرابات ، غير أن المشكلة الحقيقية تكمن في ضعف الملاحة . وهو (هذا الضعف في فن الملاحة) يعود مرة أخرى الى نوع

٩٢ـ المصدر السابق ، ص : ٢٨٧

من سوء التفاهم بين المثقفين والجماهير : لا بمعنى ابقاء المثقفين مقيدين ، بل بمعنى أن شيئاً معيناً ينقصهم ، أنهم يفتقرون الى شيء محدد . بعبارة أخرى تكون الفئات النخبوية الصغيرة مقطوعة من جهة ومختزلة جداً من حيث العدد من الجهة الأخرى : لم تعد قادرة على اخضاع الأمور للسيطرة . لايبدو الوضع كما لو كانت الجماهير مخاتلة ومتوحشة أو ميالة الى استخدام العنف في سبيل تحويل عظمة أوربا القديمة إلى دمية أو ألعوبة بين أيديها . إنها ـ أي الجماهير ـ ، بالأحرى ، منظمة في وحدات بالغة الضخامة وتبدي بالتالي ـ بصرف النظر عن طابعها ـ عطالة تنطوي على الكارثة بالنسبة لقيادة دفة السفينة أو توجيهها :

بعد حد معين تصبح الأمور والناس ، وهي ما تسعى ارادة معينة إلى قيادتها من فوق ، غير قابلة للتحكم بقدر أكبر أو أقل . لذا فإن دوراً حاسماً تلعبه تلك القوة الجماعية الملغزة التي نجد أفضل تشبيه لها في عطالة كتلة صماء جامدة... تذكرنا حقبتنا بتلك الصورة التي يقدمها علماء الباليونتولوجيا عن اختفاء الديناصورات أواخر العصر الجليدي الثالث ـ أجسام عملاقة بأدمغة صغيرة عجزت آخر الأمر عن توفير امكانية تكيف هذه الوحوش مع ظروف الحياة المتبدلة . إن العملقة التي ابتُليت بها حقبتنا باتت تتخذ أشكالاً بيولوجية ـ اجتماعية أكثر تعقيداً وأشد خبثاً ، ولكن الشر يبقى هو هو : إنه اخفاق جهاز القيادة والارشاد(٩٤) .

---

٩٤ ـ «شيوع الجماهرية ، ص ١٢٤ . يشير الى آلة الحرب ويقول : «لاشيء يستطيع إبطال الانطباع القائم على أن الانسان عاجز لا حول له ولا قوة والمترتب على الاتصال بالآلة ، ويكتسب هذا الانطباع قدراً هائلاً من الجبروت مع اقترابنا من آليتها المركزية الدافعة . نفاجأ عندئذ باكتشاف حقيقة أن الآلة تبدو كما لو كانت مستمرة ، تحت تأثير قوتها هي بعيدة عن ارادة الأفراد ، في اتجاه لا يتحدد إلا بزخمها الأصلي وكتلتها .»

ومشكلة القيادة والتنظيم هذه تتمخض عن فقدان «حتى التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية لمغزاه النظري ـ الفكري الأساسي العميق»(٩٥) . ليس لدى دومان أي علاج لهذا الانخدام الاجتماعي ـ الثقافي بالعظمة أو الأبهة ، هذا الانخدام الذي يوحد الأنظمة . وبوصفه انعزالياً من نمط ذاتي ، تعرض دومان دوماً للهزيمة أمام هذا الانخدام ، حتى حين كان يشغل موقعاً قيادياً ومتبنياً بالتحديد فكرة التعاون كحل للأزمة . وانطلاقاً من افتقاد التوجه هذا ، وهو ما جعل المعاصرين شديدي الحساسية يصابون بالدوار ، قام دومان بطرح فكرة «مابعد التاريخ» لائذاً بكل من جوفنيل وكورنو(٩٦) ، مميزاً إياها عن حالة الاستنزاف أو الانهاك في عقيدة شبنغلر القائمة على الدورات الثقافية .

٩٥ـ ضد التيار ، ص : ٢٨٨ . هنا أيضاً يوجز المشكلات المطروحة بعمق في «شيوع الجماهيرية» ، «إن إشاعة الجماهيرية والبيرقراطية وانعدام الشخصية والأتمتة واستحالة الادارة والتوجيه في الأجهزة العملاقة ، وابتلاء الدول القومية والامبراطوريات بالعطالة المفرطة ،وسيادة المزاج العدواني الحربي المتولد من مخاوف الجماهير ، إن هذا كله يفضي الى حرب أبدية تهدد بالخطر سائر الانجازات الاجتماعية والأخلاقية لمرحلة الصعود التي عاشتها ثقافتنا ، بل وربما تجعل موضوع استمرار وجود الانسان مطروحاً للنقاش» .

٩٦ ـ ليس ثمة ما يشير إلى نص بعينه لدوجوفنيل ، ولكن الرجلين جددا صداقتهما التي كانت قبل الحرب في سويسرا وكانا يتراسلان . وحسب ما جاء على لسان ميشيل بريلاز في جنيف لم تأت رسائلهما على ذكر مفهوم «مابعد التاريخ» ، بالتحديد . كما أن معاينتي لكتابات دوجوفنيل الكثيرة قبل ١٩٤٥ ، التي تعالج الشؤون الراهنة في الغالب ، تشير إلى أنه لم يقم ، آنذاك ، بصياغة الفكرة التي تقول ببزوغ فجر مابعد التاريخ . أما في كتاباته اللاحقة حول النظرية السياسية فنجد اشارات إلى آراء كورنو الشكلية الوراثية ، لا إلى تشخيصه لمجتمع مابعد تاريخي . لذا فإنني سأفترض أن دومان كان يشير إلى كتاب «عن السلطة» ، وهو العمل الذي نشر للمرة الأولى في ١٩٤٥ والذي استعرض فيه جوفنيل نظم القرن العشرين وطور فكرة وجود «وصاية اجتماعية» . ربما ساهمت الحوارات الشخصية في المنفى باضافة مضامين أخرى .

لذا فإن رأيين يدعمان القول بأننا ندخل «عصراً هو خارج الزمن» يبقيان ـ أحدهما تطوري والثاني تاريخي . ففي صورة الديناصور عن آلة عملاقة متحجرة ، أولاً ، تكون الثقافة التي تحملها قد وصلت إلى نهاية أهميتها النموذجية الأصلية : «ومن شأن البديل ، عندئذ ، أن يكون بالمعنى البيولوجي ، إمّا الموت أو التحول»(٩٧) . والثاني هو أن علم التاريخ يقيم علاقات سببية تفعل فعلها في أقدار البشر ومصائرهم بما يوفر امكانية «أن تقاس الأحداث التاريخية بمعيار الأهداف والقوى الانسانية» ؛ وفي حال استحالة التماس مثل هذه العلاقات ، لابد لـ «مسار العالم من (الخروج) عن اطار التاريخ .(٩٨)»

لا يستطيع مثل هذين الرأيين ـ وهما أكثر عقلانية وتحفظاً من تلك التي ذُكرت من قبل ـ أن يوضحا إيضاحاً مقنعاً غياب أي مخرج في تشخيص دومان . فالرأي الأول يمكن أن نعارضه ببرنامج يترك هامشاً للوحدات الصغيرة ويفرض قيوداً أشد على العنف والارهاب ، بسياسة قائمة على اشاعة ذاتية الجماهير وعلى آلية صنع قرارات بعيدة عن المركزية . أم أن ذلك سيكون تحولاً اجتماعياً ؟ أما الرأي التاريخي فهو يركز على انهيار

٩٧ـ ميشيل بريلاز أيضاً يقول إن مسودة «اشاعة الجماهيرية وانهيار الثقافة كانت نصاً غير منشور باللغة الانجليزية استند الى كورنو في تطوير أفكار التثبيت المورفولوجي والتحول ، وزيادة سرعة عجلة التاريخ ، في المقام الأول . وبالنسبة لـ : ل . آرينيلا («نهاية التاريخ ، وجهة نظر كورنو» ديوجين ٧٩ ـ ١٩٧٢ـ) فإن واقع امتناع كورنو عن طرح بديل الموت أو التحول ، متركزاً على التطلع الى نوع أكثر عقلانية من أنواع تطوير المجتمع وتنميته ، يجعله مبشراً بالرؤى التكنوقراطية ، في موقع بين سان سيمون وراثيناو ، اللذين لاذ بهما دومان أيضاً في الفترة الواقعة بين الحربين .

٩٨ـ «اشاعة الجماهيرية» ، ص : ١٢٥ . حول رأي دومان بالتاريخ انظر سفن ستلنغ ـ ميشو وجيت بوينزود «عن تاريخ فلسفة التاريخ» ، في كتاب ايفورينس (محرراً) .

الفـردية في قـيادة منظومـات كـبرى ، وبالـتالي عـلى ميـعار أضـيق من أن يكون مناسباً لقـياس «الأهداف والقوى الانسانية» . ففي تحكـم دومان الأكثر عقلانيـة بالفكر ، تحديداً ، نستطيع أن نقـيس مدى قوة ارتباط عـجز منظور مابعد التاريخ ويأسه بوقاحة النزعـة الفردية لدى الطبقة الوسطى المتعلمة في المـمارسـة السـياسـيـة خلال سـنوات الحرب ومـاسـاوية هذه النـزعـة وانحطاطها .

سيكتسب هذا الأمر قدراً مدهشاً من الوضوح حين نعاين الاشارة الأخيرة حيث يذكرنا دومان بذلك العقل الحساس الذي عبر للمرة الأولى عن فكرة بزوغ فجر فترة هي خارج التاريخ : إنه عقل بيرتراند دو جوفنيل . مرة أخرى نلتقي هنا بمثقف نموذجي ، بعابر حدود سياسية و «ساكن في الغابة» تورط تورطاً نشيطاً بالفاشية والعمالة ولكن التقارير تحدثت أيضاً عن أنه كان هدفاً لملاحقة الغيستابو ؛ هرب من فرانسا الى سويسرا قبل دومان بعام واحد وأنجز هناك بمساعدة دار النشر التي طبعت كتاب دومان عن سنوات التعامل نفسها ـ كتاباً ذا شأن بعنوان «حول السلطة On Pow-er» ، كان قد كتبه خلال فترة العزلة(١٠٠) . كان الرجلان يعرف كل منهما الآخر منذ أوائل الثلاثينيات حين كانت «خطة العمل» الداعية الى التعاون لدومان تعتبر بشيراً لاقتصاد أوربي مخطط يتجاوز كلاً من الشيوعية والفاشية . ففي تلك الأيام كان جوفنيل ، مثله مثل كوجييف ورئيسه اللاحق روبيرت مارجولين ، بين المثقفين المنتمين الى مختلف فئات يسار الوسط الذين دأبوا على التبشير برسالة دومان في فرانسا .

٩٩ـ هندريك دومان ، «الفارس الوحيد» ، جنيف ١٩٤٨ .

١٠٠ـ بيرتراند دوجوفنيل ، «عن السلطة : طبيعتها وتاريخ نموها» (١٩٤٥) ، نيويورك ١٩٤٩ .

ملاحظة بيوغرافية (سيرية) ـ ٢ ـ

قد تكون بعض المعلومات البيوغرافية مفيدة هنا أيضاً(١٠١) . كان بيرتراند بارون دوجوفنيك دي أورسينس (ولد عام ١٨٠٣) ابن ناشر ليبرالي شهير ، دبلوماسي وعضو مجلس شيوخ في الجمهورية الثالثة ، من أم تنحدر من عائلة صناعية يهودية . وبعد طلاق أبويه قامت الروائية كولييت بتبني دو جوفنيك الطفل . درس بيرتراند الرياضيات ، القانون ، البيولوجيا والاقتصاد ، وفي عقد العشرينيات اختلط بالجناح اليميني لتيار اليسار بوصفه مؤلفاً ناجحاً لنداءات نقابية عمالية ذات توجهات تخطيطية استهدفت تجاوز الأزمة . وفي الفترة الممتدة بين ٢٨ و ١٩٣٢ حاول ، عن طريق «بيان للشباب» أن يكسب الحزب الاشتراكي الراديكالي الليبرالي اليساري الذي كان عضواً فيه ، لصالح «صفقة جديدة» . ولكن المحاولة باءت بالفشل . وفي الثلاثينيات اشتهر كصحفي ، وخصوصاً كمراسل خارجي : فقد نشر مقابلة مطولة مع هتلر بتاريخ ١٩٣٦/٢/٢١ .(١٠٢) كما أنه

---

١٠١ ـ ليس ثمة سيرة حياة شاملة بعد ، ومذكرات جوفنيك بعنوان «رحالة عبر القرن» لا تحتوي إلا على ما هو متعلق بفترة ما قبل الحرب . انظر الذيل الذي كتبه غانسلاندت للطبعة الألمانية لكتاب : «عن السلطة : ...» ، فرايبورغ ١٩٦٩ ، وبيير هاسنر ، «بيرتراند دو جوفنيك» في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية ، م : ١٨ (١٩٧٥) ، وروي بيرس ، «الفكر السياسي الفرنسي المعاصر» ، لندن ١٩٦٦ .

١٠٢ ـ انظر زئيف شتيرنهل ، «لا يمين ولا يسار» ، بيركلي ١٩٨٦ . إن دور جوفنيك في استقبال دومان وفي حركة دوريو يجعله شخصية مفتاحية في تقصي شتيرنهل لأبعاد الايديولوجيا الفاشية بفرانسا ، تبين كيف أن هذه الايديولوجيا كانت امتداداً لبعض أفكار «الاشتراكية الاصلاحية» . أدى القول بأن جوفنيك كان عميلاً للسفير الألماني أوتو أبيتز الى اثارة خلافات قضائية .

أجرى مقابلة أخرى مع موسوليني بروما (حيث كان أبوه سفيراً) كما أرسل سلسلة من التقارير عن الحرب الأهلية في اسبانيا .

في ربيع ١٩٣٤ لم يستطع زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي ونائب رئيس الكومنترن جاك دوريو كسب تأييد موسكو لدعوته المبكرة الى تبني خطة الجبهة الشعبية ، فطُرد من الحزب في حزيران .وبعد ذلك تابع دوريو نشاطه السياسي وأسس حزب الشعب الفرنسي الفاشي اليساري الذي انتسب اليه جوفنيل عام ١٩٣٦ . وهذا الأخير أصبح رئيساً لتحرير الصحيفة الناطقة باسم الحزب(١٠٣) ، كما كان عضواً في المكتب السياسي لنصف عام سنة ١٩٣٨ . وبعد اتفاق ميونيخ ، حين تحول دوريو الى داعية طليعي للتعامل ، يبدو أن جوفنيل ابتعد عن الحركة ؛ تطوع في قوات المشاة قبيل الهجوم الألماني . غير أنه ، خلال فترة الاحتلال ، كان صحفياً نشيطاً من دعاة التعاون(١٠٤) ، ولم ينسحب من هذا النشاط إلا بعد مضي بعض الوقت ـ عبر طبعة نبيلة من طريق الغابة ـ ليلوذ بالدراسات الفلسفية في مزرعة عائلته ببلدة كوريز . تقول التقارير إنه اتصل وهو هناك بالمقاومة ورام الغيستابو يتعقبه فهرب من فرانسا عام ١٩٤٣ .

---

١٠٣ ـ انظر ديتر وولف : «حركة دوريو» ، شتوتغارت ١٩٦٧ ، يلتف هاسنر حول تورط جوفنيل في حزب PPF ويؤكد على نشاطه في المقاومة دون التطرق الى الأسباب الكامنة وراء بقائه في المنفى بسويسرا لسنوات بعد انتهاء الحرب . وهذه الأسباب ليست واضحة في المذكرات عدا عن كونه شكا من الاستخفاف بوطنيته في بلده .

١٠٤ـ كان جوفنيل أحد أكثر الكتاب السياسيين تمتعاً بالتكريم والاحترام لدى سلطات الاحتلال . فقد ترجمت كتاباته الى الألمانية وصار عضواً في مجلس ادارة الجمعية الألمانية ـ الفرنسية ، مما عرفه ، ربما على ايرنست يونغر بل وحتى على كارل شميدت . ولكن جوفنيل ، نظراً لأن أمه يهودية ، عمل على التخفيف من لا سامية عملاء آخرين كانوا يدعون إلى «سياسة بيولوجية» بغية الحفاظ على نقاوة «الأمة الفرنسية» .

عمل جوفنيل بعد هروبه في صحف صادرة في لوزان وجنيف ، كما أن بعضاً من مسلسلات مقالاته ـ عن التجربة الاشتراكية في بريطانيا أومشروع مارشال مثلاً ـ نشرت في كتب . وإثر تحول إضافي أصبح جوفنيل ناطقاً باسم نوع معين من الليبرالية الجديدة الغربية ، كما غدا أحد منظري السياسة البحتة . وبعد العديد من مناصب الأستاذ الضيف في انجلترا والولايات المتحدة ، أسس جوفنيل جمعية ساهمت مؤتمراتها وخدماتها الاعلامية في تعريف النخبة الفرنسية على فلسفة الادارة ومناهجها في الولايات المتحدة(١٠٥) ، كما أسست لفيوتشرولوجيا (علم مستقبل) فرنسية . (١٠٦) وبعد نجاح بعض مؤلفاته الأخرى عن نظريات السياسة والاقتصاد(١٠٧) ، وهي مؤلفات زادت من تناولها لمسائل التنمية النوعية والبيئة ، أصبح جوفنيل أستاذاً بباريس وتم اغراقه بفيض من الأوسمة والمناصب الدولية بما فيها عضوية نادي روما .

الوصاية الاجتماعية

أحياناً قورن جوفنيل بديغول بوصفه رجلاً (مما قبل الأمس وبعد الغد) . أما أساس هذه الشهرة فقد ترسخت بفضل كتابه الثاني عشر «حول

١٠٥ـ خلال إحدى رحلاته المبكرة الى الولايات المتحدة التقى في شيكاغو بليو شتراوس الذي كتب لكوجييف يقول إن جوفنيل ثمن عالياً تفسيره لهيغل ونشاطه كمسؤول سياسي ، ولكنه فوجئ حين علم أن الشخص نفسه كان متورطاً .

١٠٦ـ نشر غيهلن مادة عن آرائه المتعلقة بما بعد التاريخ في نشرة المعهد فيوتوريبليس (٥٠/ ١٩٦٣) ـ ربما بعد حديث أجراه هناك حول الموضوع نفسه .

١٠٧ـ «حول السيادة : بحث في الخير السياسي» كامبرج ، ١٩٥٧ ، «النظرية الخالصة في السياسة» ، كامبرج ١٩٦٣ ، «فن الحدس» لندن ١٩٦٧ ، اركادي ، باريس ١٩٦٨ في «مدنية السلطة» باريس ١٩٧٦ .

السلطة On Power» ، ثمرة طريق الغابة التي لاذ بها ، وهو الكتاب الذي نشره وهو في الثانية والأربعين من عمره .وهذه المقالة التاريخية ذات الأفق الواسع تتعقب مسيرة نمو سلطة الدولة أو «المينوطور» ـ (Min-otaur : حيوان خرافي نصف انسان ونصف ثور)ـ «بقناع» في النظام القديم ancien regime ، «بلا قناع» في المجتمع البرجوازي «كلي الوجود» و (صارخاً) في عصر الجماهير ـ وتحلله من منطلق تدهور أو انحدار جملة معينة من الحريات .(١٠٨) فعلى غرار دو توكفيل لا يعتبر جوفنيل الثورة الفرنسية تحرراً للمجتمع من الدولة المستبدة ، بل على النقيض من ذلك مَرْكَزَةً اجتماعية لسلطة الدولة القابلة لأن تكون ارهابية وقائمة على العنف بغية القضاء على الهوامش التقليدية للحرية (لدى الطبقة الارستقراطية) .(١٠٩) ومن وجهة النظر هذه فان سلطان المعتدي التنكري على الضحية يفسر جزئياً اضفاء صفة الشمولية على سائر المجتمعات التي شاركت في الحرب العالمية الثانية ، ولكن سوء استخدام السلطة لم يترسخ أساساً إلا من خلال صعود دولة الرفاه في القرن العشرين ، وتدعيم أجهزة البوليس ووسائل التعليم والدعاية الرسمية .(١١٠) وبهذه الطريقة غدت آلة يرتبط بها جميع الأفراد بقيود مجدولة من المصالح المادية والخوف وأساليب التفكير ، مما يفضي بهم الى تعريض أنفسهم لفقدان الحرية . «ليتني أعلم من أين جاءت الفكرة التي تقول بأن البشر يمقتون الاستبداد أو الطغيان! ما أراه شخصياً هو أنهم ينعمون ويستمتعون في ظله!» .(١١١)

١٠٨ـ عن السلطة ، («الدولة كثورة دائمة») ، («الجذور الارستقراطية للحرية») .

١٠٩ـ المصدر السابق .

١١٠ـ المصدر السابق ، («الديمقراطية التوتاليتارية» ، «بين الحرية والأمن» ، «بين النظام والوصاية الاجتماعية») .

١١١ـ المصدر السابق .

لذا فان خطر وجود نوع من «الحماية والوصاية الاجتماعية» هو خطر يتهدد الأنظمة كلها ، لأنها باتت تتصرف بالأجهزة الضرورية ولأن من طبيعة الجماهير أن تستسلم لحالة العبودية العذبة . إن هتلر وروزفلت ، على استحالة وضع اشارة المساواة بينهما ، هما النموذجان الرئيسيان اللذان يجسدان هذا النزوع السائد في القرن العشرين .(١١٢) وحيث كان دومان يقتبس من جوفنيل باعتباره بشير مابعد التاريخ ، ربما كان يشير إلى صورة اشاعة المساواة Gleichschaltung هذه عبر آلية السلطة . ولكن السؤال هو : ألم يسبق لجوفنيل نفسه أن سعى الى اقامة اقتصاد تعاوني مخطط في فرانسا ، وفقاً للصيغ المتعاقبة لدى كل من روزفلت ودومان ، فالفاشيين لاحقاً ، على التوالي ؟ نجدنا في حقيقة الأمر ، ازاء التيار الذي ألفناه من قبل لدى دومان ـ ولكن دون أي حديث عن الابحار والملاحة هذه المرة :

> يتعرض كل شعب اليوم للانجرار بالتيار نفسه ، وإنْ بوتائر متباينة نحو الوصاية الاجتماعية . فالمصالح التي أرعبها غياب اليقين والعقل الذي اجتاحته الفوضى ، والأحاسيس التي ثوّرها البؤس والخيال الذي ألهبته رؤى امكانيات المستقبل ، باتت جميعاً تدعو ، بصوت واحد ، مطالبة بمدير أو مشرّع .(١١٣)

يكاد هذا التأنق البلاغي الذي يغرقنا في تحليل رائع مفعم بالأفكار أن ينسينا حقيقة ما إذا كان وصف الشر هو الآخر مهتماً بالاهتداء الى أساس

١١٢ـ في آذار ١٩٤٤ ، في الوقت الذي كان جوفنيل يكتب فيه هذا وهو في المنفى تقريباً ، سجل يونغر في دفتر يومياته ملاحظة تقول : «إذا سقط كنيبولو (اسم سري لهتلر) ، فإن الأفعوان الخرافي ذا الرؤوس التسعة سيقوم بانبات رأس جديد» . «اشعاعات» ٢١ ص٤٩٧ .

١١٣ـ عن السلطة ، ص : ٣٥٣ .

يمكننا من جعل الأمور أفضل . ففي هذا المقطع المحلق يضيع كل ما هو صلب وملموس في تيار مجهول الاسم ، ولدى تدقيق النظر أكثر لاشيء سوى «المصالح المصابة بالرعب» ينطوي على معنى بالنسبة للمجتمع ؛ وماعدا ذلك ليس إلا سيرة ذاتية ، تتحدث عن الكاتب وعمن هم من نوعيته . ما السبب وراء بقاء الأمر على هذا المستوى من التعميم ؟ في ظل أوضاع تاريخية مفتوحة ربما بدا الارهاب مبرراً على الدوام ، مهما بدا الحكم مثيراً للرعب . ربما لم يكن الخطأ على هذا المستوى من التعميم آخر الأمر ، بل كان قابلاً للتحديد بقدر أكبر من الدقة بما لا يقاس ؟ ولكن التيار الذي دأب المثقف على تحويله من فئة متطرفة راديكالية الى أخرى كان يجري ضد ذلك الخطأ .(١١٤) وفي كل من هذه الفئات حظي المؤلف بقدر أكبر من الشهرة والنفوذ على الرغم من أنها جميعاً لم تكن ، لدى الالتفات اليها والنظر اليها نظرة خلفية ، سوى قطعة تجسد تكثيفاً لمنطق قوى هذا

١١٤ـ لا يسع المرء هنا إلا أن يقتبس ما قاله كاتب المقالات الروماني ـ الفرنسي إ.م سيورا : «يجمّل المثقف المنهك عيوب وشرور عالم منحرف . . لا يغويه إلا الجبروت الذي يطحنه ويحيله الى غبار . . لذا فإنه مستعد لأن يقذف بنفسه ، وعيناه مطبقتان ، في بحر أية خرافة أو ميثولوجيا تطمئنه بحماية النير وسلامه . عازفاً عن شرف تبني أشكال القلق التي تساوره يكون مستعداً للاندفاع بغية الانخراط بمشاريع يتوقع منها أشكالاً من الاثارة لا يستطيع أن يستمدها من ذاته ، حتى تصب ألوان كسله وتراخيه في طاحونة ترسيخ وتثبيت النظم الاستبدادية . فالكنائس والايديولوجيات وأجهزة البوليس تسعى الى مد جذورها في تربة الفزع الذي يحس به ازاء تبصُّره بالذات ، لا في تربة الغباء عند الجماهير . «اغراء الخروج» ، لندن ، ١٩٨٧ ، ص : ٥٧ ـ ٥٨ . لدى سيوران أيضاً تحليل لنهاية التاريخ وإن كان مواكباً لنوع جمالي ، شوبنهاوري من القرف من الحياة . انظر «بعد التاريخ» في ايكارتيلمان ، باريس ١٩٧٩ ، وفيرناندو سافاتر بحث عن سيوران ، ميونيخ ١٩٨٥ ، ص : ١٠١ .

المؤلف ومفاهيمه . تلك هي الصورة التي يمكن للأمور أن تكون قد بدت مجسدة لها بعد الاضطرابات الدامية التي جرت في شباط ١٩٣٤ وتورط فيها متطرفون يمينيون ، حيث بادر جوفنيل وهو في الحادية والثلاثين من عمره الى وقف محاولاته الرامية الى كسب يسار الوسط لصالح برنامج يقوم على تدخل الدولة ، والى إصدار مجلته : نضال الشباب Lutte des Jeunes (بديلاً عن الصراع الطبقي) وإعلان «نقاطي الخمس» :

١ ـ يمكن التغلب على الأزمة وضمان رفاهية الطبقات الكادحة عن طريق تدابير بسيطة في ميدان التخطيط الاقتصادي .

٢ ـ يشترط التخطيط الاقتصادي وجود طبقة حاكمة لا تكافح في سبيل مصلحتها الخاصة بل تكون ذات كفاءة وواعية لمسؤولياتها .

٣ ـ مثل هذه الطبقة غير موجودة . لذا فإن التخطيط الاقتصادي غير قابل للتطبيق ، وبالتالي لابد من سحق النظام الرأسمالي .

٤ ـ ما من سبيل ، سوى الدكتاتورية ، لسحق الرأسمالية . وهذه الدكتاتورية لا يمكن اقامتها إلا عن طريق القيام بثورة .

٥ ـ في اللحظة الراهنة نرى القوى المؤهلة لتحقيق ثورة كهذه مبعثرة ومقسمة . تكمن مهمتنا في اعطاء هذه القوى شكلاً محدداً .

وبعد عامين ، في مواجهة الجبهة الشعبية ، وقع اختيار الكاتب على حركة جماهيرية فاشية وكرس مواهبه التي لا يستطيع أحد إنكارها لخدمة ذلك الهدف . وبعد ثمانية أعوام أخرى تسلق الى قلب الحلبة مرة ثانية (تلك الحلبة التي لم يتركها قط في الحقيقة) وراح يصارع «المينوطور» في مباراة استعراضية ـ والميناطور هو الاسم الذي أطلقه على ليفياثان دولة الرفاه في القرن العشرين ـ أخفى بها تصفية حساباته مع الفاشية . وفيما بعد ، لحظة وصول الفاشية الى نهايتها ، أنتج التحليل التاريخي

١١٥ـ صراع الشباب ، ٢٧ : ٥ : ١٩٣٤ ، ص ٣: .

الأوسع مدى ، التحليل الذي أعاد الفاشية الى «حكم الشيوخ المسنين السحري» سابقاً والى الخروج من التاريخ لاحقاً ـ يا له من سجل ! ولدى اختتام دراسته استطاع أن يقول : «لقد أنجزنا ما انطلقنا من أجل انجازه . تركز هدفنا على تفسير المراحل المتعاقبة لنمو السلطة وازدهارها الهائل الرهيب الذي نراه أمامنا . انتهت المساءلة ، اكتمل الملف ، باتت الأسباب طيبة وتم تغليف العواقب بالظلال» .(١١٦) برافو ، برافو!

طالما اعتُبر كتاب عن السلطة On Power سفراً كلاسيكياً في النظرية السياسية ، وما إذا كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح تبقى مسالة مفتوحة . مما لاشك فيه أن جوفنيل ، في أثناء الحقبة الفاشية ، كان ينتمي الى تلك الشريحة العليا من المثقفين الذين تركز اهتمامنا في هذا الفصل على تعبيراتهم لأنهم دابوا على تشخيص ما بعد التاريخ . ليست الفكرة استخفافاً بهؤلاء المثقفين على الاطلاق ، بل ، على النقيض من ذلك ، سعي الى تحقيق أكبر قدر ممكن الوضوح حول فيض الطاقة المميز والحاجة الى الأهمية الذاتية لديهم . وذلك هو السبب الذي جذبهم الى الفعل البطولي القائم على العنف والذي جعل القطط كلها تبدو رمادية ؛ ذلك هو السبب الذي ألغى التحليل الذاتي وأتاح لمحرك نشاطهم فرصة الاستمرار ، حتى ولو عادوا مع مرور الزمن الى احتضان «يقينياتهم الدائمة» وتقاليدهم ، الى تبني الميتافيزيقا ومعانقة الطبيعة والوجود الخالص النقي أو أي مصدر أساسي آخر ، وحتى لو لم يروا أمامهم سوى سراب كثيب نمل يصل أطراف الأفق ، «حركة على قاعدة ثابتة» حسب تعبير غيهلن . هنا بالذات يكمن الطابع الرجعي حرفياً لهذه الثمار المجلوبة من طريق الغابة . هذا كله يمكن التقاطه من أكثر المقاطع شخصية في مؤلف جوفنيل ، من ذلك المقطع الذي قد يكون مؤهلاً لاكمال لوحتنا عن أشكال المجابهة مع التاريخ ، وهو

١١٦ـ عن السلطة ، ص : ٣٦٤ .

مقطع لا يرد في المقدمة بل عند أواخر الكتاب ، حيث يقلب تجربة المثقف الثوري داعية التعاون والتعامل الى نقيضه ، كما لو أن «الحكمة الدنيوية» لجذوره الارستقراطية قد وفرت له الحماية في زحمة ثوراته الحماسية المتنوعة .

كم يستطيع الناس أن يكونوا عادلين وأصحاء عدلاً وصحة لا حدود لهما شريطة أن يتوقفوا عن كونهم عبيداً للعادة والعوبة بأيدي الصدف ! ما هذا العالم المتخبط الذي حملت فيه بهم أمهاتهم نتيجة الاهمال مثل أعشاب برية ؛ تنتشر فيه المدن وفق توجيهات مضاربين شرهين ، مثل حيوانات عمياء تخوض في أوحال فضلاتها ! إنني أرثي لحال الانسان الذي لم تتح له قط فرصة ممارسة الاغراء النبيل بأداء دور العظمة ازاء هذه الفوضى ، ببناء المدن التي تغمرها الشمس (مدن الشمس) ، المدن التي ستكون مسكونة بجنس أكثر نبلاً ، غير أن ثمة خطراً في هذه الرؤى ، فالناس الذين يكون مخزونهم من المعرفة صغيراً يجدونها باعثة على النشوة والسُكر فيقتنعون بسرعة بأن سعادة هذه القارة أو تلك تستدعي فرض الحظر الكامل على المشروبات المخمرة ، أو ، وهذا أسوأ ، الابادة التامة لعرق بكامله لأن الدم الذي يجري في عروق أبنائه اعتُبر شائباً أو غير نقي . ما من أحد غيرْ ذلك الذي قام شخصياً بالبحث عن الحقيقة يعرف مدى سرابية بريق الدليل الذي يمكن لاقتراح ما أن يزيغ أبصاره بصورة مفاجئة... في غياب هذا الادراك الثقافي - الفكري لحدود المعرفة قد تستطيع الحكمة العالمية لدى الارستقراطيات القديمة أن تُحَصِّننا في الغالب إزاء مختلف الاندفاعات العاطفية الحماسية التي تقترب جراء رغبتها الشديدة في أن تكون بنّاءة ، من أن تكون ناراً محرقة . غير أننا نرى حيثما تلفتنا أن ادارة الشؤون العامة تُترك لطبقة تفتقر مادياً الى اشكال

اليقين وتحتضن حقائق مشكوك بصحتها بالقدر نفسه من التعصب مثلما فعل فرسان الوحدات الهنغارية ودعاة تجديد العماد في أزمان أخرى .(١١٧)

١١٧ـ المصدر السابق ، ص : ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

الملاك الطائر:
عمّا بعد تاريخ ابستمولوجيا خطر تاريخية

لحظة الخطر

أواخر أيلول ١٩٤٠ ، مجموعة صغيرة من اللاجئين اليهود ـ خمس نساء ، طفل ورجل في الثامنة والأربعين من عمره ـ تتسلق ممراً جبلياً صاعداً من فرانسا عبر جبال البيرنيه ، يشرئب عند تلك النقطة ممتداً الى البحر الأبيض المتوسط . تريد الجماعة أن تصل نقطة الحدود الاسبانية بمرفأ بو دون المرور بنقطة مراقبة البوليس التابع لنظام فيشي . لدى أفراد الجماعة سمات دخول تمكنهم من العبور باسبانيا والذهاب الى الولايات المتحدة ولكنهم لا يملكون سمات خروج من فرانسا . لا يحمل الرجل معه سوى حقيبة سوداء صغيرة ، يقول إن محتوياتها أكثر قيمة من حياته . ولتجنب أية مخاطرة ، أمضى الليل ، خلافاً للآخرين ، في العراء ؛ ولكن وضع قلبه كان قد ساء أكثر منذ اعتقاله في بداية الحرب ، .وظل يعاني من أزمة طوال الليل ، ولدى التحاق الجماعة به في الصباح لم تكن الأمور جيدة بعد ولم تكن الأزمة قد مرت ؛ تعين على الآخرين أن يعفوه من عبء الحقيبة بين الحين والآخر ، كما تعين عليه هو أن يأخذ قسطاً من الراحة كل عشر دقائق . حين تقع أبصارهم على بورت بو من الصخور الجبلية ويحسون بأنهم باتوا على أرض اسبانية ، يغدو الرجل عاجزاً عن متابعة المشي فيركع ليشرب من حفرة . تحاول المرأة التي تقوم بدور الدليل ، وهي تفكر بالعودة ، أن تمنعه من الشرب مشيرة الى أن الطريق أصبح الآن نازلاً وملمحة إلى أنه قد يصاب بالتيفوئيد . يرد عليها الرجل قائلاً : «صحيح . ربما حصل ذلك . ولكن أسوأ ما يمكن أن يحصل الآن هو أنني سأموت

نتيجة مرض التيفوئيد بعد عبور الحدود . لن يتمكن الغستابو من إلقاء القبض علي . مخطوطتي ستكون سليمة وفي مأمن . أرجو المعذرة» . ويبدأ يشرب .

لم يمت بسبب التيفوئيد . ولكنه سمَّمَ نفسه في الليلة التالية في فندقه عن طريق تناول جرعة مبالغ بها من المورفين ، حين رفض حرس الحدود الاسبان السماح له بالدخول دون سمة خروج فرنسية . أمّن حقيبته الصغيرة مع مهاجرة زميلة وابنها ، كان سيسمح لهما بالدخول في اليوم التالي ورجاهما أن يوصلا محتوياتها (أفكاري mes pensées) الى تيودور أدورنو في نيويورك . غير أن البوليس ، على مايبدو ، أجبر المرأة على اتلاف رسالة الوداع كما وضع يده على الحقيبة نفسها . قامت السلطات المختصة بتسجيل حوائج الرجل الميت في المنفى على أنها مؤلفة من «حقيبة يد جلدية ، شبيهة بحقائب رجال الأعمال ، ساعة يد رجالية ، غليون ، ست صور ، صورة شعاعية ، زوجين من النظارات ، رسائل مختلفة ، مجلات ، وعدد قليل آخر من الأوراق ذات المحتوى غير المألوف ، اضافة الى بعض المال البالغ ٢٧٣ بيزيتا بعد اختزال النفقات المتكبدة»(١) .

فيما بعد اعتُبرت الوصية المصادرة ، جنباً الى جنب مع تلك الأوراق القليلة ذات المحتوى غير المألوف التي كان المهاجر ، غير الراغب في متابعة الهجرة ، مصمماً تصميماً مطلقاً على إبعادها عن دائرة نفوذ الرايخ الثالث قبل موته بغية اطلاع العالم عليها ، مفقودة(٢) . ولكن هذه الوصية كانت ،

١ـ ليز فيتكو ، («بنيامين الشيخ» فرار عبر البيرنييه) ، ميركور ٣٦ (١٩٨٢) ص : ٣٥ .

٢ـ انظر تقرير الناشر عن تحقيقاته في فالتر بنيامين ، «المؤلفات» ، م٢ ، رولف تيدمان (ناشراً) . منذ أصبح هذا المقتطف الموسع متوفراً على الأقل ، بات واضحاً أن بنيامين كان يفكر بمشروع كبير لنا أن نطلق عليه اليوم اسم تاريخ الحياة اليومية في المجتمع البرجوازي على الرغم من أن أصدقاءه ظلوا يعتبرونه ، وهو في المنفى ، ناقداً أدبياً . أما تأملاته التي لم تشكل حتى الآن موضوعاً للدراسة إلا في إطار ميادين الأدب والفلسفة فقد اعتبرت مستهدفة تاريخاً معيناً .

كما اتضح لاحقاً ، مختلفة من حيث الطبيعة عن باقي كتاباته المعروفة لدى الأصدقاء من المهاجرين . ومن هذه الناحية لابد من النظر اليها نظرة تاريخية ، في ضوء لحظة الخطر التي جرت صياغتها في ظلها ، بدلاً من استخدامها للتوصل الى استنتاجات متسرعة بناء على باقي العمل .(٤)

يبدو أن نسخاً من الرسالة والمخطوطة وصلت أخيراً الى هدفها بعد ثلاثة أرباع السنة(٥) . كان أدورنو ، بعد اخفاقه في نيويورك ، قد انتقل لتوه

٣ـ نجد أفضل تحديد للطابع التاريخي الذي يميز هذا النص في هاينريش كاولن : «الانقاذ والتفكيك ، دراسات حول نظرية التأويل لدى ف . بنيامين» ، توبنجن ١٩٨٧ . انظر أيضاً سوزان باك ـ مورس ، «أصل الديالكتيك السلبي : تيودور أدورنو ، فالتر بنيامين ومعهد فرانكفورت» هاسكوس ١٩٧٧ ؛ وكريسولا كامباس «فالتر بنيامين في الفن : حول العلاقة بين السياسة الأدبية والجمالية» ، توبنجن ١٩٨٣ .

٤ـ يشكل هذا ، برأيي ، الاعتراض على العديد ـ ربما الأكثر عدداً في التاريخ الحديث للأفكار ـ من التفسيرات ، الخصبة غالباً ، لهذه الصفحات القليلة . فاضافة الى توتر بنيامين الوجودي بغية تهريب رسالته السرية الى العالم الآخر ، ثمة مؤشرات أخرى في النص وفيما قبل تاريخه الموثق توثيقاً جيداً بصورة غير اعتيادية ، تدل على أن فكرة الموت كانت حاضرة أمامه . وبعبارة أدق ثمة فكرة «حضور العقل» لحظة الخطر ، تلك الفكرة المطورة من «قلم فراش الموت» حيث «تومض» أكثر المشاهد أهمية في حياة الانسان وتمر بسرعة بدون أي ترابط ملحمي خلال المراحل الواعية من فترة الاحتضار . وهكذا فإن يوم القيامة والدينونة يبدو كما لو كان «جلسة محكمة عسكرية قصيرة بالنسبة للروح» (كافكا) ، في يوم مثل الأيام الأخرى . يبدو لي أن بنيامين أراد أن ينقل هذه القدرة الأخيرة لذاكرة الانسان الى ثقافة مهددة بالموت .

٥ـ ربما حصل هذا عن طرق حنا أرندت و / أو القنصلية الأمريكية في برشلونة . هناك في النص ما يشير الى إيصال المخطوطة الى معهد البحوث الاجتماعية في حزيران ١٩٤١ .

الى لوس انجلوس ليتعاون مع ماكس هوركهايمر في عدد من الدراسات الفلسفية وسلسلة من المقالات التي سوف تخترق صدمتُه الثقافة الأمريكية . قبيل رحيل جمهورية فايمار ، كان صاحب الحقيبة الجلدية الصغيرة ، الناقد الأدبي ، ومؤرخ الثقافة فالتر بنيامين ، الأستاذ الفكري والثقافي للفيلسوف وناقد الموسيقا الذي كان يصغره بعشر سنوات : تيدي ڤيزنغروند Teddie Weesengrund . حين وصل هتلر الى السلطة بقي تيدي أول الأمر في ألمانيا معتبراً ، مثل بابن ، أن الرايخ الثالث لم يكن إلا نظاماً برجوازياً صغيراً انتقالياً ، عابراً ، ولكنه انتقل في ١٩٣٤ الى انجلترا ليعيش هناك متبنياً اسم أدورنو المستعار من أمه (ذات الجذور الكورسيكية القديمة) ، ربما تحاشياً لأية صعوبات قد يجرها الاسم اليهودي لابيه الذي كان قد اعتنق البروتستانتية والذي كانت علاقاته به ، على أية حال ، واهية جداً ، في أثناء رحلاته المتكررة الى ألمانيا . وقبل ذلك كان بنيامين قد هاجر الى فرانسا لجمع مواد لمشروع عمره ، لتاريخ باريس الثقافي الملغَّز في القرن التاسع عشر ، وسرعان ما وجد نفسه في أوضاع مالية بالغة الهشاشة . وفيما بعد ، حين قام هوركهايمر بتبني أدورنو وعثر له على وظيفة مساعد بمدرسة فرانكفورت في المنفى ، شهد دخل بنيامين الهزيل نوعاً من الاستقرار بفضل دفعات قدمها معهد نيويورك . ولكن هذا الأمر أدى أيضاً الى اشعاره بنوع من التبعية ، وكانت الأزمة قد زادت حدة في السنوات الأخيرة قبل اندلاع الحرب . بقدر هائل من الجدية كان الناقد الموسيقي الشاب ادورنو ، مؤطراً تشاؤمه الثقافي بأطر ماركسية ، قد انتقد الماركسية المبتذلة في العمل الذي كان صديقه ذو الحساسية المفرطة يقوم به في ميدان تاريخ الأدب . وفي الوقت نفسه كان بنيامين الذي كان يحاول اجترام نظرة جديدة الى التاريخ قد رأى انهيار وجوده البورجوازي وأحس غريزياً بالقرب من الشيوعيين دون أن يصبح عضواً في الحزب قط(٦) .

في ربيع ١٩٤٠ ، قبل أن يُتِم الجيش الألماني دحر فرانسا ، وضع بنيامين ثماني عشرة فكرة «عن مفهوم التاريخ[٧]» ، بعضها على قصاصات جرائد عتيقة ـ حتى يكون مشروعه الرئيس ذا تأثير أكبر بالنسبة له هو وبالنسبة لأصدقائه ، ولكنه لم يكن بعد يريد نشر ما دعته لاحقاً مدرسة فرانكفورت ، بقدر من الخطأ ، «موضوعاته» . أوضح دافعه الحقيقي لكتابتها ، كما ولتردده ، في رسالة الى زوج ادورنو ، التي كان معها على حميمية أكثر من زملائه . (غير أنه ، في تلك الأثناء ، لم يلتزم بوعده المتمثل بارسال نسخة عن النص اليها .)

جعلتني الحرب وما نتج عنها من عواقب أضع أفكاراً معينة أستطيع القول إنني ظللت أحفظها في خزنة مغلقة ـ تضم خزانة مغلقة ـ لأبعدها عني لمدة تقرب من عشرين سنة . . حتى اليوم أقدمها لك بوصفها ضُمّة أعشاب هامسة جُمعت في مشاوير ملأى بالتأمل ، أكثر منها مجموعة موضوعات... زد على ذلك أن التأملات هي ذات طابع تجريبي بما لا يجعلها تصلح وحدها استعداداً منهجياً لوضع ذيل للمادة البودليرية[٨] . إنها تجعلني أشك بان مشكلة التذكر (والنسيان) سوف تبقى تشغلني وقتاً طويلاً[٩] .

٦ـ الخلفية البيوغرافية موضحة في هارتموت شايبل ، «تيودور و . أدورنو» ، راينبيك ١٩١٩ ؛ وفيرنر فولد ، «فالتر بنيامين ، بين الكراسي» ، ميونيخ / فيينا ١٩٧٩ .

٧ـ هناك مادة تمهيدية ذات أهمية اضافة الى ترجمة بنيامين الخاصة الى الفرنسية في المؤلفات ، ط١ ، م٣ . أما في الطبعات السابقة فقد تم إرفاق النص بمقتطف لاهوتي مبكر شكل تشويشاً للطابع الخاص للنص .

٨ـ كان المقصود أن يكون هذا القسم الأول من مشروع «ممرات» بنيامين . انظر فالتر بنيامين ، «شارل بودلير» ، لندن ١٩٧٣ .

٩ـ رسالة إلى غرتيل أدورنو ، نيسان ١٩٤٠ : المؤلفات ١/ ٣ .

تبدو الجملة الأخيرة ملغزة وموجزة تماماً ، وهي تظهر ، كما في الحقيقة ، في إحدى الرسائل الأخيرة من كاتب سوف ينتحر بعد بضعة أشهر - في وقت كان عليه أن يعتبر أن عمله الرئيس قد ضاع منه(١٠) . نستطيع أيضاً أن نرى في هذا المقتبس القصير ، على أية حال ، مدى الحساسية الهشة التي واجه بها محاولته الخاصة الرامية الى كسب معان عامة معينة في الأزمة(١١) . وهذا يميزهابوضوح عن كل من اللهجة اليقينية التفسيرية التي تطبع المثقفين الفلسفيين وجنس «التأملات الابستمولوجية» (الذي شكل الفهم الخاطئ للـ «موضوعات» لدى ادورنو) . أما المناسبة الحقيقية للنص - أي «الزمن اللاتاريخي» الذي جاء بعد حلف هتلر - ستالين - فلا يتم الحديث عنها ، بالطبع ، بالألغاز ، ولكنها واردة على أية حال . ثمة تهديد ثلاثي الأبعاد : خطر يتهدد وجوده كيهودي ، وآخر يتهدد عمله كمؤرخ مرتبط بباريس ، وثالث يتهدد آراءه السياسية كانسان ينتمي الى اليسار(١٢) . من المؤكد أن عليه أن يهرب ولكن ليس الى الغابة(١٣) . إنه ،

١٠- أودع ما أنجزه من «ممرات» لدى صديقه جورج باتاي الذي أودعه بدوره المكتبة القومية (البيبليوتيك ناسيونال) . نجا العمل من الحرب والاحتلال وتم نشره أخيراً بعد عامين .

١١- في السنتين الأخيرتين من حياته شاخ بنيامين عشرات السنين نتيجة اضطراب في عضلة القلب . فالصور الأخيرة هي صور وجه مهلهل ، مجروح ، دفاعي - مثلوم ، مجعد وكئيب . انظر تحليل فولد لاحدى صوره من عام ١٩٣٨ .

١٢- انظر فرانز فون بادر ، «مفاهيم أولية حول الزمن» . وللاطلاع على وجهة نظر مناقضة انظر غير شوم شولم ، «فالتر بنيامين وملاكه» ، فرانكفورت /م ١٩٨٣ . يشير كا- باس الى حقيقة أن الحوارات بين بريخت وبنيامين في ١٩٣٨ لم تفترض أي انتصار لى الفاشية في المستقبل المنظور ، بل قرب الوصول الى «حقبة بلا تاريخ» بالأحرى . (ضد «روح العصر» . السياسة المعادية للفاشية عند فريتز ليبس وفالتر بنيامين ،) في جاكوب توب (ناشراً) ، «أمير العالم : كارل شميت والتبعات»

١٣- انظر الفصل الخامس ، ب ، من هذا الكتاب حول طريق الغابة عند يونغر .

بدلاً من ذلك ، يتوصل الى التماهي مع عمل أخير في ميدانه الخاص ، حيث يستنفر التراث الديني اليهودي لاعادة تنشيط ممارسته الثقافية ـ الفكرية كيساري ومؤرخ .

إن التأملات «حول مفهوم التاريخ» وثيقة محكمة غنية بالصور تتالف من أجزاء منفردة لم تكتسب نظامها الترابي إلا في طبعة لاحقة . وتراكم الصور يبين الطابع التلمسي للنص لدى انطلاقه المندفع نحو المفهوم . وهذا يجعله أيضاً صعباً على القراءة ، فعلى الرغم من أن الأجزاء متشابكة ، فإنها تتطلب أن تُقرأ كنقاط علاّم أكثر منها كمنظومة متناغمة(١٤) . إن الغنى المجازي والايجاز البلاغي والتعقيد الموحي عَنَتْ أنه ما ان أفاق من سباته الطويل واهتدى الى العديد من المفسرين أيام الثورة الطلابية ، حتى غدا شاشة تعكس المناقشات حول : القاعدة والبنية الفوقية ، النظرية والممارسة ، ونوعية التقدم(١٥) . وبما أن الانعكاسات غالباً ما تقع في

١٤ـ لهذا السبب لا تتيح للصور المجازية تفسيراً تبادلياً .

١٥ـ انظر سيغفريد اونسلد (ناشراً) ، «حول راهنية فالتر بنيامين» ، فرانكفورت ١٩٧٢ ؛ بيتر بولتاوبت ، «مواد حول موضوعات فالتر بنيامين المتعلقة بمفهوم التاريخ» ، فرانكفورت ١٩٧٥ ، كريستوف هوينغ ، «اعادة تشكيل الثورة : مادية فالتر بنيامين التبشيرية في موضوعات حول التاريخ» فرانكفورت ١٩٨٣ . وهناك عرض للآراء المبكرة في غيرهارد كايسر ، بنيامين ، أدورنو ، دراستان» ، فرانكفورت ١٩٧٤ . منذ نشر مقتطفات «الممرات» ، باتت مناقشة رأي بنيامين اللاحق حول التاريخ منطلقة من قاعدة أعرض . انظر نوربرت بولز وريتشارد فابر (ناشرين) ، «فالتر بنيامين : «الهام مبتذل ونقد منقذ» ، ط٢ ، فورزبورغ ١٩٨٥ ؛ بولز (ناشراً) «القديم والحديث ، عن ممرات ف . بنيامين» ، فورزبورغ ١٩٨٦ ، بولز وبرند ويته (ناشرين) «الممرات ، تاريخ بنيامين الأصلي للقرن التاسع عشر» ، ميونيخ ١٩٨٤ـ وللاطلاع على المناقشة العالمية ، انظر تقرير كلاوس غاربر بعنوان «فالتر بنيامين في باريس وبرلين» في بولز / فابر .

شيء من الخطأ عما تعكسه فإن من شأن التعارضات أن تتيح لنا فرصة قراءة كل من النص وفرط التفسير الوارد في المناقشات منذ ذلك التاريخ قراءة أكثر دقة . سنحاول أن نفعل ذلك فيما يخص صورتين مهيمنتين تردان في البداية والوسط من نص التأمليْن : الأول والتاسع .

حجر الشطرنج

بعد إعادة إحياء بنيامين في أواسط الستينيات ، تركزت الخلافات الأولى على مسألة ما إذا كانت تأملاته صادرة عن نزعاته الشيوعية في الثلاثينيات أم شكلت حنيناً الى ماضي اهتماماته اللاهوتية المبكرة . وطرح مثل هذا البديل يكاد أن يكون مفاجئاً نظراً لأن التأمل الأول يجمع البعدين كليهما في صورة واحدة . فبنيامين هنا ، إذ يشير الى قصة حجر الشطرنج لادغار آلان بو ، إنما يوصي المادية التاريخية بالافادة من خدمات اللاهوت في سعيها الى تقرير مصير التاريخ ، لأن اللاهوت هنا ممثلاً بقزم خبير في لعبة الشطرنج ، يتولى من مكانه الخفي تحت الطاولة ، مهمة ارشاد الدمية وتفعيلها . ونظراً لأن الدمية «المادية التاريخية» بوصفها أداة الحجر الذي يتحدى الناس في اللعب ، لن تكون قادرة على الحركة قط بدون القزم «اللاهوت» البارع الذي يشد الخيط ، فقد يبدو واضحاً الى حد كبير أن القزم هنا يستخدم الدمية لاخفاء وجهه القبيح : أي التعويض عن واقع عدم كونه ذاتاً في الصراع الطبقي . هذه ، في الحقيقة هي النقطة المركزية في قراءة هابرماس للصورة ، في مقال مشهور بحق ، يقوم بتشريح مفهوم بنيامين للتجربة عبر معاينة مؤلفاته كلها . يستنتج هابرماس أنه ، حتى «كثوري محافظ» بقي لاهوتياً يبحث لدى البروليتاريا ، عن طريق المادية التاريخية ، عن ذات لنظريته الغنية ، ولكنها غير نفاذة ، عن التجربة . ولكن القزم لا يستطيع أن يوظف الدمية لخدمة أغراضه :

لا يمكن تغطية المادية التاريخية التي تترسخ بخطوات تدريجية صاعدة عن طريق تصور للتاريخ معاد للثورة ، تصور للتاريخ أشبه بقلنسوة أحد الرهبان . إن الرأي الذي أسوقه هو أن بنيامين لم ينجح في مسعاه الهادف الى الجمع بين التنوير والصوفية لأن اللاهوتي في أعماقه لم يتمكن من توظيف نظرية التجربة المهدوية في خدمة المادية التاريخية .(١٦)

وبرأي هابرماس لابد من تصحيح هذا الخطأ عن طريق احداث نوع من القلب في العلاقة بين الماركسية واللاهوت . غير أن الصفحات الثلاث الأخيرة من مقاله ليست حاسمة إلا فيما يخص عمله هو لأنه يقدم فيها صورة تخطيطية لـ «على حافة ما بعد التاريخ»(١٧) ، وهو العمل الذي يشكل نقطة تحوله عن نظرية التحرير الماركسية الى نظرية الفعل القائم على التواصل . سوف يتعين علينا أن نعود الى هذه النقاط فيما بعد . أما الآن فيتوجب علينا أن نبقى مع النص .

إذَنْ ، مَنْ يوظف مَنْ في خدمته ؟ برأي بنيامين «تستطيع «المادية التاريخية» بسهولة أن تكون أداة مناسبة بيد كائن من كان اذا ضمنت خدمات

١٦ـ يورغن هابرماس «رعاية الوعي أم انقاذ النقد» في غاري سميث (ناشراً) : عن ف . بنيامين «مقالات وذكريات» ، كامبرج . ماس . ١٩٨٨ . إن الخلاف بين الأجيال والجنسين في الموقف معبر عنه في النقد الحاد الذي تعرض له هابرماس من جانب كارين ـ ماريا نويس «بحثاً عن ف . بنيامين» زيوريخ / كونستانس ١٩٨٧ ، التي تتقصى موقع بنيامين الوسط بين الماركسية واليهودية على صعيد تاريخ حياته . ثمة نقد للعلم في ليسلوت فيزنتال ، «حول نظرية العلم عند ف . بنيامين» ، فرانكفورت ١٩٧٣ . انظر أيضاً نقد سيلابن جيب الضمور الاصلاحي في المفهوم الطوباوي للتحرير : «دراسة أسس النظرية النقدية» ، نيويورك ١٩٨٦ .

١٧ـ هابرماس «رعاية الوعي أم انقاذ النقد» ، ص ١٢١ .

اللاهوت» . يبدو الأمر واضحاً وضوحاً كافياً على الصعيد اللغوي ، ولكنه يتراءى غير معقول من حيث المضمون . غير أن قراءة هابرماس البديلة المعقولة للصياغة الألمانية ، وهي مدعمة بعادة أدورنو القائمة على عدم التشدد في ابعاد مفعول الفعل ، تفضي الى تفسير يقول بأن اللاهوت هو سيد الأحداث(١٨) . ولكن هذا الاستنتاج خاطئ لأن بنيامين كان يعني حرفياً ما كتبه . فألمانيته الرائعة لا تتسبب في أية صعوبة ، وإن أدت أفكاره الى ارباك العديد وإيقاعهم في الحيرة . في ترجمته الفرنسية التي قام بها بنفسه تكون الدمية هي التي تقوم ، دونما لبس ، بتوظيف القزم في خدمتها ، وثمة مسودة أخرى تجلو الأمر بالألمانية أيضاً .

أستطيع أن أتصور ، بسهولة ، نظيراً لهذه الأداة في الفلسفة ، وخصوصاً لأن النزاع حول المفهوم الصحيح للتاريخ يمكن التفكير به بوصفه لعبة بين شريكين أو طرفين . وحسب تقديري الشخصي ، فإن الفائز سيكون متمثلاً بالدمية التركية التي يطلق عليها الفلاسفة اسم المادية . من السهل عليها أن تكون مناسبة لكائن من كان اذا ضُمنت لها خدمات اللاهوت ، وهو الذي بات اليوم ، على أية حال ، صغيراً وبشعاً ، لا نراه في أي مكان(١٩) .

لذا فنحن نتعامل لا مع ذات تاريخية بل مع أحياء لبنيان تاريخي (مادية الدمى) ـ وفي صالح لا البنيان بالذات بل ذلك الذي يتطلع الى انتصاره في عملية الصراع مع أي تصور آخر للتاريخ لابد من تحديه .

١٨ـ يقول النص الألماني : (تستطيع (هي) أن تنافس كائناً من كان بلا صعوبة عندما تلوذ باللاهوت) وضمير (هي) الذي يشير الى الدمية يمكن أن يكون فاعلاً ومفعولاً به .

١٩ـ عدد غير قليل من الكتاب أشاروا الى هذه الفقرة . انظر مثلاً هيرينغ الدوغمائي . وانظر أيضاً المؤلَّف الرائع لجان ماري غاغنيبين ، «حول فلسفة التاريخ عند فالتر بنيامين ، المعنى غير المكتمل» ، ايرلانغن ١٩٧٨ .

وهذه التصورات الأخرى يجب تخيلها لا بوصفها بُنى بل ككائنات حية أو واعية تاريخية ، وبالتالي كبديل أو آخر عن التاريخانية الموجودة فعلاً في حركة المجتمع وفعله . إن الذات هي المؤلف .

•لم يستطع المتخصص بالشؤون الجرمانية غير هارد كايسر ، هو الآخر ، أن يطيق عدم رشاقة الصورة . رأى أن الدمية هي المرشحة لاستخدام القزم لا العكس ، ولكن الحس السليم ونوعاً من عمى المراقب ، منعاه من الغوص أعمق في المسألة . وبدلاً من ذلك حل التناقض المتأصل بمساعدة اللعب الديالكتيكي بالألفاظ (طالما أنه (القزم) يخدم الدميه ، فإنه يخدم نفسه)(٢٠) . وهكذا فإن الدمية تماهت مع القزم ، غير أن اللاهوت بقي مرة أخرى سيداً للموقف ـ على الأقل طالما «كان» متمثلاً بالمادية التاريخية ذات الشحنة اللاهوتية للأطروحة التالية . لم يقم مثل هذا الحل المجرد بحل المسألة بل اكتفى بالاجهاز عليها وازالتها من الوجود .

• أما هاينز ـ ديتر كيتشتاينر الذي كان طالباً برلينيا من الحلقة المحيطة بجاكوب وأطلق مناقشة «موضوعات» بنيامين في الحركة الطلابية لعام ١٩٦٧ فقد ظل يماحك هذه الصورة طوال أكثر من عقدين من الزمن . لم تكن المسألة أنه أخفق في فهمها : بل ، على النقيض من ذلك ، كانت

٢٠ـ كايسر ، ص : ١٦ . تتكرر النقطة الجوهرية نفسها في «النص المبتذل لمؤلف مبتذل» أو «إعادة ترجمة المادية إلى لاهوت» في أطروحات مضادة جديدة لمختص في الأدب الألماني ٧٤ ـ ١٩٧٥ كرونبرغ ١٩٧٦ . يطرح كامباس وجهة نظر مماثلة في «بنيامين في المنفى» ص : ٢١٦ . ثمة اعادة تقويم شاملة للجدل . رغم تجاهل هابرماس ، تتميز بالحرص لدى كاولين .

٢١ـ هاينز ـ ديتر كيتشتاينر ، «أطروحة فلسفة التاريخ» ، بديل رقم ١٠ (١٩٦٧) . أراد طلاب فرانكفورت أن يطلقوا اسم بنيامين على معهدهم ، انظر ، موم برودرزن (ناشراً) : «بنيامين من منظور ايطالي» ، فرانكفورت / م ١٩٨٢ .

ترجمته لها إحدى أدق الترجمات . غير أنها لا تناسبه . يحس بعدم الارتياح ازاء القزم . ففي إعادة اكتشاف تقليد ماركسي محظور وتوجه الشبيبة نحو وضع يُفترض أنه ثوري ، شكل الجانب المبهر من فالتر بنيامين مزاوجته لـ «ماركسية» مع فكرة قائمة على انقطاع التاريخ ، وهي المزاوجة التي من شأنها أن توفر امكانية حدوث بداية جديدة وتاريخ جديد .(٢٢) كان لابد ، بالتالي ، من نفخ حياة جديدة في الدمية نفسها ، مع إحالة القزم الى متحف الضرائب لوضع استثنائي (حدد خطأ بعام ١٩٣٨) . ظل الحل كامناً في فلسفة للتاريخ «مندمجة بالماركسية ومصرة على الصراع الطبقي» ، ولكنها عازفة عن «أي احتساب نسقي للتقدم» . وبهذه الطريقة ، «تحت ضغط وضع خاص ، لابد من اضافة قاموس لاهوتي معلمن علمنة سليمة الىَ الماركسية على أنه نواتها العقلانية المعلنة» . قام كيتستاينر ، أخيراً ، بقلب ربط بنيامين بين المادية واللاهوت إلى نوع من تقسيم العمل بين النظرية التاريخية والممارسة السياسية : «لكل من الدمية التي تلعب الشطرنج مع القزم اللاهوتي في داخلها ، وهما يستطيعان معاً محاربة الفاشية ، وظيفتُه الخاصة : فالمادي التاريخي يواجه الحاضر كماركسي ويواجه الماضي كلاهوتي معتمد على الذاكرة»(٢٣) .

٢٢ـ بعد ثمان سنوات كتب كيتشتاينر في مقدمة إحدى طبعات مقاله مايلي : «إن التناقضات المتفجرة لما عُرف آنذاك باسم (الرأسمالية المتأخرة) . . . بدت لكثيرين منطوية على امكانية كسر التتابع السيء للتاريخ وانتاج (نظام مبتذل) . . مندفع نحو (السعادة) . وفي هذه الأثناء ثمة تراث مقموع من جانب (الحكام) تبدى تدريجياً ؛ ومع اطلاعنا على نظرياته المحرمة بتنا نحس بالارتباط مع جميع المقاتلين المسحوقين سابقاً الذين كافحوا ضد القمع والاستغلال . إن صورنا ، أعلامنا ، راياتنا الحمراء كانت ستضيء مرة أخرى على صفحات التاريخ وستشحن من جديد الفقراء المحرومين بزمن الآن الثوري . كان هناك من ينتظرنا على الأرض» .

٢٣ـ كيتشتاينر ، «أطروحة فلسفة التاريخ . . .» ووجهات النظر النقيضة لهيلموت فوتنهاور نجدها في بولثاوبت . . وفي «التجربة الجمالية والنظام الاجتماعي دراسات ـ

شعر كيتستاينر الذي لم يكن بعد قد أصبح مؤرخ الضمير الذي نعرفه الآن بأن هذا القلب مبرربتأمل آخر لدى بنياميين . فمن شأن قراءات جديدة للتراث تؤسس لتقاليد جديدة في المعنى عبر تحديد معاصر قوي للاشكالية ؛ أن تُبنى مع صورة اللون الارجواني المنزلق نحو الفجر . غير أن الطالب الملتزم سياسياً استخلص من هذه الصورة المجازية الأولية شعاراً ثورياً على الصعيد الثقافي : «لا تكفي اعادة تفسير الماضي (أو استرداده) بل لابد من تحويله هو نفسه . فبعد ازاحة سقط المتاع اللاهوتي لابد للموضوعات من أن تتلألأ الى الأبد تحت الشمس المشرقة للنشاط الماركسي» ؛ «لقد تغيرت على الورق المطبوع .»

وفي ١٩٧٥ حين بدت هذه الشمس غاربة بوضوح ، نأى كيتستاينر بنفسه عن فكرتها المفتاحية ليس فقط بتحويل بنياميين الى رقيب شمس بل ومن خلال تحويل نصه أيضاً . وقد ساعد ذلك على استعمال النص كجسر من العالم البرجوازي الى الماركسية : «من المؤكد أنه (أي النص) يستطيع أن يطلعنا على الشيء الكثير عن كيفية قيام الفرد البرجوازي بممارسة الرأسمالية ، ولكنه لا يقول لنا شيئاً ذا شأن عن الرأسمالية نفسها . فبدلاً من البحث عن بنياميين ماركسي ، بدأنا الآن نقرأ ماركس»[٢٤] . ليس ثمة أي كلام عن الممارسة العملية . وخاتمة كيتستاينر المكتوبة عام ١٩٧٥ لا تكرس إلا لحظة واحدة من الاهتمام لعملية الانتقال من التزام نمطي بدور معين الى علم الماركسية (الماركسولوجيا) بوصفه قوام اليسار في «مابعد التاريخ» . وبعد عقد آخر ، عاد كيتستاينر مرة أخرى الى بنياميين فيما يخص مادته التمهيدية المنشورة حديثاً ، مستخدماً الآن نوعاً من التبحر الفلسفي

ـ حول مشكلات منهجية للتحليل المادي للأدب في مؤلفات ف . بنياميين المتأخرة» ، شتوتغارت ١٩٧٥ .

٢٤ـ بولثاوبت ، ص : ٤٠ .

التاريخي ، ليضم الرجل في صف أولئك الذين اعتبرهم خصومه ، أي في صف أصحاب النزعة التاريخانية»(٢٥) . وأرفق بهذا قراءة تأملية لماركس حررته من جملة النوايا والنتائج العملية («لم يعد علاجاً صالحاً اليوم») مع الاحتفال به محلاً للتقدم الجائم كنهاية بحد ذاته . لن ننسى أن المؤلف كان منذ ١٩٦٧ قد أراد أن يجر بنيامين الى صف التقدم .(٢٦)

تكمن الخرافة الحقيقية للحداثة في أسطورة التبعية الكاملة حيث لا وجود لأي من الآلهة أو الأبطال أو البشر - حيث الأشياء فقط . قام ماركس برواية القصة - تلك التي تدور حول ولادة النقد من الانعكاس المتبادل بين عشرين ياردة من القماش وتنّورة واحدة(٢٧) .

تُعطى للماركسية التي توقفت الآن عن أن تكون رائجة دور القزم في لعبة الشطرنج الآلية التي لم تعد بحاجة الى أي من اللاعب والمؤلف . يورد كيتستاينر وجهة نظر ماركس التي تقول إن الثورات هي قاطرات تاريخ العالم ورد بنيامين القائم على أنها (أي الثورات) ذراع الانذار ، بالأحرى ؛ تلك الذراع التي تلوذ بها البشرية في القطار . ويختتم كلامه قائلاً : «هذا رائع ، هو ذا القطار ، ولكن السؤال يبقى : أين هو كابح الطوارئ ؟ ومنذا الذي عنده الذراع الطويلة التي تصل اليه والقوة اللازمة لشده(٢٨) ؟» أو ربما بتنا فيما بعد التاريخ وانتهى الأمر مما يجعل حتى هذا النوع من القلق زائلاً

٢٥- هـ . د . كيتشتاينر «تاريخانية ف . بنيامين» في النيوجيرمان كريتيك ٣٩ (١٩٨٦) .

٢٦- انظر صياغته الختامية العائدة الى ١٩٧٦ ، وهي موجهة بوضوح ضد أدورنو ، شولم وأتباعهما : «إن لمنهج تفسير بنيامين لاهوتياً اليوم نظيراً له في نفي امكانية التقدم كتحول اجتماعي» .

٢٧- «تاريخانية فالتر بنيامين» ص : ٢١٤ .

٢٨- المصدر السابق ص : ٢١٥ .

ومتلاشياً : «جدير بنا أن نتأمل ما إذا كان ماركس قد كتب ليطرد شياطين الخوف من أن هذا المجتمع (المجتمع الرأسمالي) قد لا يبرهن على أنه (عضوية منغمسة بصورة دائمة في عملية التحول) ، (داس كابيتال Mew 23 ، ص ١٦٠) ، بل هو ، بالأحرى ، (جوهر متبلور صلب)»[٢٩] .

تبدو الفقرة المقتبسة من ماركس منطوية ، في حقيقة الأمر ، على العكس ، على أن النظام الرأسمالي ليس جوهراً صلباً (صورة تذكرنا بمفهوم غيهلن المركزي عن «البلورة أو التبلور») . ولكن ما كان «جديراً بالتامل» أصبح ، بعد وقت غير طويل ، في إحدى المساهمات بجدل ما بعد التاريخ ، ما «يمكن افتراضه» . بات ماركس الآن بنظر كيتستاينر أشبه بلون ارجواني ينزلق باتجاه الشمس المشرقة لما بعد التاريخ ، في حركة تفكك داخل نظام رأسمالي يفترض أنه أزلي . إن سائر الحكومات التمردية أثبتت أنها غير فعالة ، ولدى العودة الى الوراء ، نراها أنها لم تكن تنطوي إلا على أهمية الرواج ، إلا تعبيراً زائفاً جمالياً عن الحياة . وإذا أصبح الأمر شيئاً من الماضي الآن ، جزءاً من الحياة دأب علَى حماية نفسه بدرع مصنوع من «كما لو» ، فإنه يموت أيضاً ويتلاشى . فأي خصم جرد ذاته تجريداً كاملاً إلى هذه الدرجة يتعين عليه أن يكون كلي الجبروت . أما التشخيص فينقلب الآن الى سيرة ذاتية :

> مثله مثل الظواهر التي تشكل سمة العصر ، بات الانحدار الى وضع الجوهر المتبلور انحطاطاً لا رجعة عنه . والشيء الوحيد الذي ينطوي على أهمية هو ملاحظة رد فعل الحياة على العمل الاجتماعي المجرد - الشامل المشيَّأ . فالحياة ، لأنها داروينية ، تَرُد عن طريق التكيف ... ليست الحياة مقولة تقف في وجه السيرورة التاريخية وقوفاً مؤثراً . إن ما تدركه الحياة ليس التاريخ بل كومة سلع فقط ، ويتم انقاذها

٢٩ـ المصدر السابق ص : ٢١٢ .

وفق مشيئة هذه السلم وتخطيطها.. إن الأزياء الرائجة ، بما فيها أزياء ثقافية ـ فكرية ، هي «تلك الأجواء الملغزة الغريبة» التي تحتاج اليها الحياة حتى تستمر وتصمد . إنها تصدر الاشارة اللازمة للدرع الملائمة التي تظن الحياة أن بإمكانها أن تلبسها في الصراع مع الأشياء . ففي الزي أو القالب تغدو بَشَرة الجسم مثل جلد السلم ؛ تتعرض الحماية للتدمير فيقوم رد فعل الحياة ، وهذا مفهوم ، على الخوف . . ولكن هذا التكيف الذي يمكن الناس من البقاء على قيد الحياة يأخذ ثمنه عداً ونقداً . فكل تكيف ... ليس إلاموتاً جزئياً ، ليس إلا التسليم بـ ، أو التنازل عن ، جزء من النزعة الفردية (الخصوصية الفردية) (الفرادة)(٣٠) .

الملاك

وسط تأملاته حول التاريخ يتناول بنيامين مرة أخرى صورة مثيرة للجدل ومستفزّة للفكر حظيت بقَدْر واسع من التفسيرات في السنوات الأخيرة(٣١) . يقول التأمل التاسع ما يلي :

٣٠ـ كيتشتاينر ، «حول العلاقة بين زمن الحياة وزمن التاريخ» في كامبرو وفولف (ناشرين) «الزمن الميت» دار مشتادت ١٩٨٧ .

٣١ـ اضافة الى مراجع أخرى ورد ذكرها ، انظر خصوصاً رينا توسولمي «مدخل الى الملاك الجديد» (١٩٦٢) في برودرزن ، ص : ٣٨ ؛ أوليخ زونمان ، «انتروبولوجيا سلبية : دراسات أولية حول نسف القدر» ، راينبيك ١٩٦٩ ، ص : ٢٧٧ ؛ حنا أرندت ، «مقدمة» ص : ١٢ـ ١٣ ؛ غير شوم شولم ، «فالتر بنياميت وملاكه» (١٩٧٢) في سميث ص : ٥١ ؛ بيتر فون هازلبرغ ، «ملاك بنيامين» في بولثاوبت ، ص ٣٣٧ ؛ رودولف تيدمان ، «مادية تاريخية أم مهدوية سياسية ؟ تفسير لأطروحات (حول مفهوم التاريخ) ؛» ــ

تبـين إحـدى لوحـات كلـي (بول كلي ١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) وهي بعـنوان «الملاك الجديد» مـلاكاً كما لو كان متـأهباً للهروب من شيء يتـأمله بثبات . عيناه محدقتان ، فمه مفتوح ، جناحاه منشورات .تلك هي الطريقـة التي يصور بهـا المرء ملاك التـاريخ . وجهه ملتـفت الى الماضي . و حيث نلفي نحن سلسلة من الأحداث ، يرى هو كارثة واحدة دائبـة على مراكمـة الركام فـوق الركام فـيهيله أمـام قـدميـه . يطيب للملاك أن يـبقى ، أن يوقظ الموتى ، وأن يرمم مـا تـحطم . لكن عاصفة تهب من الفردوس ، انحبست في جناحيه بقوة شديدة حتى أن الملاك لم يعد قـادراً على لمهـمـا . وهذه العـاصـفـة تدحـرجه بقـوة لا تُقـاوم وتـدفـع به الى قلب المستقبل الذي يدير له ظهره ، فيما تـنمـو كومة الركام أمامه فتكاد تعانق السماء . هذه العاصفة هي التي نطلق عليها اسم التقدم(٣٢) .

في مـحـاولة منهم لـفك ألغـاز هذا المقطع مـفـسرون مـخـتلفـون لاذوا بدائرة واسعة من المواد وملائكة الرؤى من سيـرة حياة بنيامين الخاصة ، من مـوضوعـات كلي وآرائه في الفن ، من انـتـشـار القصص الرمـزية عن المـلائكة

ـ المنبر الفلسفي ١٥ ، ١-٦٢ ، ص : ٧٦ ، غـياني فـاتيـمو ، أصل المـاركسـيـة الطوباوية ومعناها برودرزن،ص : ٦٤ ، غاغنيبين ، ص٨٤ ، اوتو كارل فيركمايستر «فالتر بنيامين ، بول كلي وملاك التـاريخ» ، أوبوزيشنر ٢٥ (خريف ١٩٨٢) ص : ١٠٣ ؛ كارول ساورلاند ، «اعادة النظر في فلسفة التاريخ المادية الحاليـة على يد فالتر بنيامين» نيورونـد شاو ٩٣ (١٩٨٢) ص : ٦٠ ؛ مارلين ستوسك ، «الهالة : الانسـاني المنسي حول اللغة والتجربة لدى فـالتر بـنيامين» ميونيخ ١٩٨٣ ، ص : ١٦٦ ، كريسـتـين بوتشي غلوكسمان ، «فالتر بنيامين ويوتـوبيا ما هو أنثوي» هامبورغ ١٩٨٤ ؛ يورغن ايباخ ، «نظرة الملاك» في بولز ، وفـابر (ناشرين) ؛ فـالتر بـنيامين ، ص ٦٧ ، زيغـفريد فـيغل ، «صوت الميدوزا : أساليب الكتابة في الأدب النسوي المعاصر» راينبيك ١٩٨٩ ، ص : ٢٧٠ .

٣٢ـ «موضوعات حول فلسفة التاريخ» في اشعاعات ، ص : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، مع استعادة خطوط التشديد من الأصل الألماني .

في التاريخ الثقافي للقرن التاسع عشر ، من الماركسية ، من علم الملائكة في الكابالا ، (القبلانية) ، من التوراة واللاهوت القديم ، ومن علم الديناميك الحراري . وعلى الرغم من نُدْرة الاتفاق فيما بينهم بصورة عامة ، فإن معظم هؤلاء المفسرين يشتركون في القناعة بأن بنيامين نفسه تماهى مع الملاك في النص(٣٣) . أما الدليل المباشر الوحيد الذي يسند هذه القناعة فهو أن بنيامين الذي ابتاع هذه اللوحة في ١٩٢١ ، واحتفظ بها في برلين وباريس ، معلقاً إياها إما فوق مكتبه أو فوق سريره ، أشار إليها في العديد من كتاباته بوصفها رمزاً ينطوي على مضامين متباينة ؛ وأنه حين كان ذات يوم في حالة من الجنون أو السُكْر أو الهذيان ، خلال أزمة حيُاتية عقب هجرته من ألمانيا ، رآها «ملاكاً شيطانياً» ، «غولاً» بيدين لهما مخالب ووجه كوجه «أكل البشر» ، ومن خلال هذا الشكل الخيالي العجيب لملاك ساقط منحدر - لصراع يعقوب مع الملاك كما قد يقول البعض - تذكر روابطه الجنسية غير المشبعة(٣٤) . ولكن ما قبل التاريخ هذا ليس كافياً للاجابة على سؤال ما إذا كانت الصورة قد نُقِلت بعد سبع سنوات إلى إطار مختلف تماماً ، أم ، إذا كان الأمر كذلك ، ما إذا كان يتعين علينا أن ننظر إليه نظرتنا إلى متسكع Fla-neur يسبح ضد تيار جماهير المدنية (آرندت) ، الى «مراقب نقدي ولكنه

٣٣- هذا صحيح بالنسبة لكل من سولمي ، أرندت ، شولم ، هازلبرغ ، تيدمان ، فولد ، فيركمايستر ، ساور لاند ، رينه ، كاولن وآخرين . قراءة فيغل هي الأكثر دقة (ص : ٢٧٣) لأنها ترتكز على تمييز فرويد بين لاعضوية الوعي وبين ما يتخلف عن الذكريات من آثار . (وحول هذه الاشكالية انظر كريستين بانغة ، «الانبهار المرفوض : الزمن والموت والذاكرة كمفاهيم للتجربة عند بودلير ، بنيامين ومارغريت دورا» ، فاينهايم / بال ١٩٨٧ ، ص : ١٧٥) .

٣٤- شولم («فالتر بنيامين وملاكه» ص : ٥٧) يعيد ايراد ملاحظات كتبها بنيامين في ١٩٣٣ تحت اسم اغيسيلاوس سانتاندر . انظر يورغن ايباخ «اغيسيلاوس سانتاندر وبنديكس شونفليس» في بولز / فابر ،» القديم الحديث ، ص ١٤٨ حيث الاشارات الانجيلية تزيد من تأكيد تماهي بنيامين مع الصورة في ذلك الوقت .

مشلول» (كريستوف هرينغ) ، إلى مؤرخ معزول ومهزوم (أوتو كارل فيركمايستر) ، إلى «مؤرخ حقيقي» (هاينريش كاولن) ، أم ـ وفقاً للرواية التي تقول بارتداده عن الماركسية الى التدين اليهودي ـ إلى «انسان أشبه بكائن شمولي» (غيرشوم شولم) . ببساطة تبدو مماهاة بنيامين والملاك منطوية على جملة من الانعكاسات العفوية التي ليست مشغولة في النص ، وأحياناً أيضاً على نوع من الجهل باللاهوت بين المفسرين الجرمانيين أو الفلسفيين اليساريين الذين يقومون ، دون مزيد من الجَلَبة ، بربطه بكل من الصوفية و «قلنسوة الراهب» ، أو باضفاء قَدْر مفرط من المعاني العميقة التي لم تتعرض للمساءلة عليه . أما المساهمة الرزينة لأحد علماء اللاهوت فيوفر ، على النقيض من ذلك ، عبر الإفادة من أدوات التأويل والتفسير التاريخية ـ النقدية للانجيل العبري ، جرعة منعشة من العقلانية(٣٥) .

ورودولف باهرو ، بدوره ، في نقد لـ «أشكال التماهي والولع والهوى» بوصفها لب «فوضى ديناميتنا النفسية» يصف تأمل بنيامين التاسع بأنه «حلم مزعج» ويسارع إلى اسباغ الصفة الانتروبولوجية على تداعياته اللاهوتية .

> ليست العناصر المرئية كلها في الحلم إلا جوانب من الذات الحالمة التي هي حاملة التاريخ هنا . ليس الانسان هذا الملاك المطرود من الفردوس فقط . إنه يقوم أيضاً بمراكمة الركام وانتاج العاصفة . والإله الطيب الذي ينفخه الى خارج الفردوس (هو الآخر) موجود في الانسان نفسه . إن التاريخ هو ديناميك النفس . ومنطق تدمير الذات هو مرض يصيب روح الانسان . فدوافعنا الانتحارية ، وبُنانا التقنية والاجتماعية ليست طبيعتنا الأولى . ما هو ملموس ليس «مادياً»

٣٥ـ انظر ايباخ «نظرة الملاك» و «أغيسيلاوس سانتاندر» .

بالمعنى الذي يكون به الحجر مادياً . إنه الثقافة كلها ، الثقافة التي جعلنا منها طبيعة ثانية ، والتي نتهاوى فوقها . إنه الجانب غير المفتوح وغير المدحور من وجودنا الانساني النفسي(٣٦) .

وهكذا فإن صورة بنيامين البيانية عن التاريخ والمستَمَدة من لوحة كلي التي سبق له أن أضفى عليها جملة من الأفكار المختلفة الأخرى ، يفسرها باهرو ، أولاً ، على أنها حلم ، ظاهرة نفسية - روحية لاشعورية . صحيح أن بنيامين نفسه كثيراً ما سعى الى تفسير صورة الأحلام على أنها ذكريات كانت في اللاشعور ، ولكن هذه التأملات لا تتضمن أية اشارة ، مهما كانت بسيطة ، الى اي حلم ؛ بل يقوم بنيامين فيها باجترام ملاك يكون رمزاً للقوة الخائرة لدى أحد التقاليد اللاهوتية . أما في الصفحة الثانية من الرأي الذي يسوقه باهرو فإن سائر عناصر الصورة كلها - الملاك ، الزمن ، الطاقات ، الركام ، الموتى المسحوقين - تكون مصعَّدة في لحظة مركزية واحدة : لحظة أن «الانسان» هو «حامل التاريخ» . ومن أعماق الروح البشرية يخرج «الاله الطيب» ، الذي كان ، بالتأكيد مخفياً على بنيامين . وبعد خطوة أخرى ، نكتشف أن هذا الكائن كلي القوة ، الانسان ، هو روح مريض تجترم لنفسها طبيعة ثانية (يعتبرها باهرو «آلة عملاقة») وأن الانسان بات الآن متعثراً بها ومنهاراً فوقها . ليست المسألة ، بالنسبة لباهرو كما يبين لاحقاً ، بطبيعة الحال ، مسألة استقرار في قلب ما بعد التاريخ بل قضية اجهاز على «الدوران اللولبي المميت ، عبر الفعل التاريخي» - الأمر الذي يتطلب من الانسان أن يتغلب على المركزية الذاتية لانفكاكه عن

٣٦- رودولف باهرو ، «منطق الانقاذ : من يستطيع أن يلغي القيامة ؟» شتوتغارت ١٩٨٧ ص : ١٠١ ، وعنوان الفصل هو «اندفاع شيطان العقلانية» والعنوان الفرعي هو : «التاريخ هو ديناميك النفس» .

الطبيعة(٣٧) . غير أن هذه الفكرة لا تبدو مستمدة من معاينة صورة بنيامين المعقدة : يفترض أنها تقوم ، فعلاً ، بمنع التفجر الداخلي الانتروبولوجي العام لهذه الصورة عبر الامساك بتوترها التاريخي .

من الواضح أن التأمل التاسع لم يُكتب في الحلم أو في حالة السُّكر ، بل بقَدْر كبير من التأمل والتفكير . فالكاتب أكد في رسائله على أنه أراد أن يركز ثمار عقدين من التأمل ، وهي الثمار التي كان عازماً على ادخالها في مقدمة «كتاب الأزقّة» (Passagenwerk) : الذي كان في طور الاعداد منذ اثنتي عشرة سنة . ونظراً لأن هذا السِّفْر العظيم magnum opus : كان معرضاً لأشد الأخطار منذ الغزو الألماني لفرانسا ولا يُحْتَمل إنجازه أبداً ، فقد أراد بنيامين أن يطلق التصورات الكامنة في أعماقه على الأقل . وبعد عدد من المسودات الأولية(٣٨) ، لم تَبْدُ الصفحاتُ القليلة التي ظهرتْ الى الوجود

٣٧ـ يكمن العيب في فرط تطور العقل («الدماغ») بوصفه العضو المستقل للحفاظ على الذات . «تتكشف الأنا عن كونها . . ليس فقط سجناً روحياً بل ودرعاً مادية تجر البطل نحو الأعماق» ، المصدر السابق ، ص : ١٩٧ .

٣٨ـ يميل المفسرون الى اعتماد هذه المسودات وكأنها لم يتم الاستغناء عنها . والتأثير المشوه لمثل هذه المونتاجات ، التي هي غريبة عن الصياغة متعددة المستويات لفكر كاتب معين ، يمكن أن يتجلى باوضح صوره في تفسير كاولين الدقيق لولا هذا العيب : «الانقاذ والتفكيك» ، ص : ٢١٧ . يبدو التأمل التاسع أنه ، في الحقيقة ، التأمل الوحيد الذي ألفه بنيامين بضربة واحدة بدون سلسلة من المسودات . ثمة ملاحظة واحدة فقط تشير الى أنه أنتوي أساساً أن يضعه في البداية . يورد كاولن هذه الملاحظة مع مقتطفات من مسودات سابقة لاطروحات أخرى يبدو فيها المؤرخ مؤيداً لنفسه حول فريدريش شليغل باعتباره «نبياً ينظر الى الوراء» ويستخدم جملة متباينة من عمليات الحذف لتجميع نسق لا يقوم تبريره الا على واقع أن الشخصيتين كلتيهما كانتا تنظران باتجاه الماضي . سرعان مايتبدد المؤرخ (ومعه المفسر) في الأثير .

خلال عدد من الأشهر مناسبة للنشر بعد ؛ ولكن تسليمها ، آخر الأمر ، كان أكثر أهمية بالنسبة للرجل ، من حياته بالذات . لذا فإن الانكباب على دراسة حتى أدق تفاصيل النص ورموزه ليس عملاً مبالغاً به .

ثمة في التأمل التاسع ثلاث كلمات مؤكدة : هذه العاصفة التي تحرف الملاك عن مسار السعي الى الخلاص والتي نطلق عليها اسم التقدم ؛ وقبلها ذلك التعارض بين ما نتصوره نحن عن التاريخ (سلسلة أحداث) وما يراه هو (كارثة واحدة وحيدة ، كومة ركام تعانق السماء) . من المؤكد أننا نستطيع الاعتراض قائلين إن الكاتب في الأطروحات الأخرى يخفي ذاته أو أناه باستمرار وراء أحد التجريدات («المادية التاريخية» ، «المؤرخ المادي») ، أو على الأقل يجعلها تظهر عبر ضمير الغائب : هو . غير أن هذا التغليف المبرمج للـ «أنا» بالـ «هو» لا يقابل «نحن» قط ، بل خصوصاً محددين بالأسماء . اذا كان معنى لوحة «الملاك الجديد» منطوياً على نوع من التعارض بين وجهة نظر الملاك (الكارثة) ووجهة نظرنا نحن (أحداث ، تقدم) ، فإن المؤلف يرى نفسه جزءاً من «نحن» ، جزءاً من بدهيات ثقافتنا الأكثر عمومية ، بدلاً من أن يضع ذاته ضدها على أنه كائن أسمى .

ثمة ملاحظة ثانية متعلقة بالملاك وطيرانه . ما الذي يجعل الملاك طائراً ضد العاصفة(٣٩) ؟ دعونا ، أولاً ، نعترف أننا فوجئنا بصورة ملاك التاريخ الغريبة أو غير المألوفة . فالمؤرخون اعتادوا على اختيار عروس للشعر أو مصدر الهام كائناً أعلى ؛ ومختلف أصناف الملائكة الذين نجدهم

٣٩ـ من غير المفهوم كيف يعتبر شولم ، في معارضته لأرندت ، أن العاصفة تدفع الملاك « الى الأمام لا الى الوراء لاقحامه في المستقبل الذي يسرع أمامه كبشير» ، بما يضطره في النهاية إلى أن ينسب وجهة نظر دورانية عن التاريخ الى بنيامين ، بدلاً من وجهة نظر أخرى تقوم على التناقض بين التقدم والمسعى التاريخي . انظر شولم ، «فالتر بنيامين وملاكه» في أونسلد ، ص ١٣٨ ، ملاحظة رقم ٢٥ .

في الانجيل وفي التراث اليهودي يتولون مهمات رسل السماء ، الحماة ، الموقظين أو المنتقمين ، أو كائنات سرابية لا توجد إلا لتصدح بأناشيدها القائمة على اطراء الله لتتلاشى بعد ذلك . وفي كل مرة يكون الملاك ذا علاقة بالله أو البشرية أو بكليهما معاً ، ولكن بدون أية علاقة مع التاريخ . زد على ذلك أن التاريخ بصيغة المفرد - كما في فلسفة التاريخ الحديثة حيث يجري الجمع بين الماضي والمستقبل كسيرورة اجتماعية - غريب على الانجيل العبري . فما هو معروف للانجيل هو الماضي : ثمة دلالة نموذجية في اللغة العبرية على هذا في أن الكلمة نفسها (الماضي) تدل على ما يتجه الوجه نحوه بانتباه ، في حين أن الكلمة الدالة على المستقبل تعني أيضاً ما هو مخبوء وراء الظهر . وبالتالي فإن وضع الملاك الجديد (أو الذي مازال فتياً) وخط نظره في العاصفة يذكّران بالتراث الديني ، مثلهما مثل العاصفة تماماً . أضف الى ذلك أن العاصفة هنا ، نظراً لأن كلمة راوخ rauch العبرية تعني «الريح» و «الروح» في الوقت نفسه ، تشير الى ديناميكية استغلال الانسان للطبيعة ، وهيمنته عليها ، التي تترتب على انهاء النظام العَدْني (الفردوس)(٤٠) . وديناميكية التقدم والعقل هذه التي باتت منذ عصر الأنوار سيرورة تاريخية متناغمة وراحت تَعِد بتلبية الآمال الدينية عن طريق التطور الدنيوي العلماني ، تمنع الملاك منعاً باتاً من انجاز مهمته القائمة على توفير الخلاص .

إن لمبشر التراث الديني الذي يعرف الجنّة معياراً آخر ألا وهو ذلك المتمثل بالآمال المخزّنة من البداية في التراث الديني وفي أحلام الطفولة . يصاب بالدهشة إزاء ما يراه لأنه لا يستطيع أن يعزي نفسه بالوعود الفلسفية القائمة على أن تاريخ المستقبل كفيل بتعويض ضحايا الماضي وفقاً لمحاسبة قائمة على الربح والخسارة . إن ما يتعرض للتكنيس من جانب

٤٠- انظر ايباخ «نظرة الملاك» ص : ٧٢ - ٨٥ .

تاريخ التقدم يتراكم عند قدميه مثل كومة من ركام الآمال الخائبة والهزائم والتضحيات . ولكن قوة الخلاص الديني ما عادت في متناول الضحايا لأن الملاك يتعرض ، في رياح الخيبة العاتية ، للطرد بعيداً وإلى أعلى .

بعد كل أشكال التبحر التي جرى استنفارها لفهم ملاك بنيامين ، فإن هذه الملاحظات القليلة حول النص قد تبدو بالغة الهزال . ومهما يكن من أمر فإن الاستنتاجات الهامة تنبع من الرؤيا القائمة على أن من كان عاجزاً عن الفعل ليس بنيامين ومن هم مثله ، بل رسول السماء . وبالتالي فإن المسألة ليست مسألة أن بنيامين كان هارباً من الكارثة إلى أحضان الدين ؛ بل ، بالأحرى ، كان الرجل يستحضر آمال الخلاص المخزونة في التراث الديني[٤١] ، بغية طرحها كمعنى ومعيار في عملية احتكاك الانسان بالتاريخ - سواء فيما يخص الماضي أم فيما يتعلق بالفعل السياسي في الوقت الحاضر .

٤١- يقوم راينر سان زونس بازاحة هذا البعد تماماً لدى الحديث عن «تَوَق» بنيامين «الملغز الى نسف» الماضي ، . «فالتر بنيامين : موضوعات حول التاريخ...» في مجلة البحوث الفلسفية ٣٤ (١٩٨٠) . مرة أخرى ثمة قَدْر كبير من التشويش جراء مونتاجات مجمعة اعتباطاً من مواد أولية . هناك عدد غير قليل من المفسرين الذين يستمدون مفهوم بنيامين للاهوت عن صورة تبدو جميلة في ملاحق «الممرات» المشكوك بصحة نسبها ، التي تبدو لهم وكأنها تحوّل الماركسية الى نوع من الكتابة على المرآة أو مسح الوحي . (انظرمثلاً كايسر «نص مبتذل...») غير أن بنيامين يبدو مدركاً لضعف الصورة ولا يستخدمها ، رغم تسجيلها ، في نص التأملات : «ينتسب تفكيري الى اللاهوت كانتساب ورق النشاف الى الحبر . . يبدو النشاف مشبعاً بالحبر . ولو ظل الأمر متروكاً للنشاف لما بقي شيء مما كُتب» . (المؤلفات ٣/١ ص : ٢٣٥) . صحيح أن النشاف يمتص الحبر الزائد فعلاً ، ولكنه يساعد أيضاً على تثبيت الكتابة . في الواقع لا يبقى شيء متروكاً للنشاف : لابد له من ترك الكلمات تبرز كما هي .

ذيل عن تأمل حديث في موضوع جنس الملائكة

يكمن أحد الفروق بين بنيامين وممثلي الثورة المحافظة - ممن صارت أعمالهم ذات تأثير في أوساط رجالية مماثلة - في أن النساء كنّ مؤخراً بارزات في تلقي فكره. فكل من سوزان باك مورس، جان ماري غاغنيبين، كريستا غريفرات، كارين ماريا نويس، مارلين ستويسيل، سيغفريد فيغل، وليزلوت فيزنتال، خصوصاً، استطعن ادراك التوتر الديالكتيكي في صورتي بنيامين عن كل من الملاك وحجر الشطرنج وتفهم مغزاهما وسياقهما التاريخي، في حين أن عدداً كبيراً من المفسرين الذكور، من مشارب سياسية مختلفة، قاموا، بما يشبه القسر، باستئصال هذا التوتر(٤٢). من جهة ثانية، من الواضح أن الجنس ليس كافياً كمقولة ثقافية فكرية، إذ نجد هنا أرندت أيضاً في دائرة التصورات الرجالية بأكثريتها الساحقة. كما نرى أن الرجال لم يبقوا جميعاً تحت تأثير تلك الدائرة لدى معاينة هذا النص.

ثمة دراسة عن «الملاك» للفيلسوفة الباريسية كريستين بوتشي - غلوكسمان - تعلن، خلافاً للتفسيرات الأخرى، وجهة نظرها في عنوان الكتاب بالذات: «فالتر بنيامين ويوتوبيا ما هو نسوي(٤٣)» - يمكنها أن

٤٢- غاغينبين (ص ١٠) تقول «إن قراءتها المتبلدة أحياناً، ليست إلا رد فعل على نزعة في تلقي مؤلفات بنيامين تقوم على اعتبار كتاباته خزاناً مظلماً مملوءاً باقتباسات جميلة تصلح للخطب والمقالات المعمقة. ولا يخرج بنيامين من هذا بأي جدوى ذي شأن... سنخاطر هنا ونعتبر أن نص بنيامين يتسم بقدر من الانسجام الذي يمكن جعله مكشوفاً».

٤٣- بوتشي - غلوكسمان، «فالتر بنيامين ويوتوبيا ما هو أنثوي»، ثمة مقال نشر بالفرنسية في ١٩٨٢ بعنوان «فالتر بنيامين وملاك التاريخ».

تساعدنا على فهم هذا الفرق بصورة أفضل . ظهر المقال المعني للمرة الأولى في أوائل الثمانينات ، في اطار تفكيكي متأثر بكل من نيتشه ودريدا ولاكان - من الواضح أنها كانت انطلاقة جديدة في الحياة الفكرية للمؤلفة التي كانت من قبل في الدائرة المحيطة بنيكوس بولانتزاس وكتبت مؤلفات ماركسية أصولية (أورثوذكسية) (ملتزمة) «دفاعاً عن غرامشي» وضد الديمقراطية الاجتماعية(٤٤) . وبعد التحول الى التفكيكية والنسوية لا نعود نجد ، في الحقيقة ، أية اشارة الى هذه الشريحة المبكرة من الكتابات .

تقوم الفكرة المركزية في تفسير غلوكسمان على أن كتابات بنيامين المبكرة كانت قد أظهرت انبهاراً ببُنى نسوية لدى السان سيمونية وبودلير ، وخصوصاً بتعدد الأزواج كنموذج بطولي(٤٥) ، وأن هذا الانبهار تزاوج لاحقاً مع ملاحظات غير - شوم شولم عن الجنس الثنائي (أوثنائية الجنس ، كما تقول هي) لرأس الله في أجزاء الفلسفة الدينية السرية المعروفة بـ «القبلانية» والنزعة الصوفية اليهودية في العصور الوسطى(٤٦) . من الممكن أن نفترض أن بنيامين كان مطلعاً على كتابات شولم المبكرة العائدة

٤٤- غرامشي والدولة ، لندن ١٩٨٠ ، «الديمقراطية والديمقراطية الاجتماعية» ، باريس ١٩٨١ ، «اليسار ، السلطة ، الاشتراكية» تكريماً لنيكوس بولانتزاس ، باريس ١٩٨٣ . ومنذ ذلك الحين تركزت كتابات غلوكسمان على الباروك بتأثير قراءات فوكو وبنيامين .

٤٥- «فالتر بنيامين ويوتوبيا ما هو أنثوي» ، ص :١١ .

٤٦- ربما كانت هنا ملمَّحة الى اندماج أفكار غنوصية وقديمة عن ألوهة ثنائية الجنس بالعقيدة القبلانية ، والى الآراء الهرطقية الأولى عن تحرير النساء في «مسيح» الحركة السبتية في اطار الفكر اليهودي العائد الى القرن السابع عشر . انظر شولم ، «أصول القبلانية وبداياتها» ، فرانكفورت / م ١٩٦٢ ، ص : ١٤٣ ؛ «حول العقيدة القبلانية ورموزها» نيويورك ١٩٦٥ ؛ «اتجاهات رئيسة في الصوفية اليهودية» ، نيويورك ١٩٦١ ، ص : ٢٨٧ ؛ وساباتي سيفي : «المسيح الصوفي» ، لندن ١٩٧٣ ، ص : ٤٠٣ .

الى العشرينيات ، وإن ليس على أبحاثه المعمقة العائدة لسنوات ما بعد الحرب التي تلمح اليها غلوكسمان . فعن تلقي بنيامين لشولم وعن دراسة غلوكسمان نفسها للتصورات التي سادت في القرن التاسع عشر للأنثوية ولامكانية ازدواج الجنس لدى الجنسين ، تكشف الكاتبة عن قَدْر كبير من الأدلة فيقحمها في تقديم العمل كما لو كان تسلسلاً لمشاهد مسرحية . وأخيراً تطرح الكاتبة تفسيراً تحليلياً ـ نفسياً مثيراً للفكر ، لحلم عن «القراءة» رآه بنيامين وهو في معسكر الاعتقال الفرنسي . إن هذا الحلم الغني بالرموز الجنسية وفر له شعوراً نادراً بالفرح والسعادة تحدث عنها في رسالة وجهها الى غرتيل أدورنو(٤٧) . تقوم غلوكسمان بتفسيرهذا الحلم ، بلغة دريدية ، على أنه «أثر أولي» لمشهد أولي من مشاهد سفاح القربى ، «حيث يتم تبادل المادة والنص» . إن تفاصيل تحليلها واضحة ولكنها غير ملزمة ، ثمة على الأقل حَبْكة وعي مفاجئ ماضوي : «إن شيئاً بدائياً ، شيئاً متطرفاً ، كارثة دأبت على الوقوع باستمرار من قبل ، يتكرر .»

ومن هذه النقطة تغدو اللغة أكثر غموضاً وتأكيداً ، بالاستناد الى تداعيات مستمدة مسبقاً من مؤلفات بنيامين ، أو من دريدا ولاكان ، تداعيات تكون احاطتها بالنص أضعف(٤٨) . وهذا يفضي الى تعميم يتم

٤٧ـ بنيامين ، المؤلفات ، م : ٢ ، فرانكفورت ١٩٧٨ ، ص٨٢٨ ؛ بـ غلوكسمان ، «فالتر بنيامين ويوتوبيا ما هو أنثوي» ، ص : ٧٨ .

٤٨ـ إن الفكرة الأساس التي تسود التداعيات موجودة في الشعار الذي صاغه كارل كلاوس على النحو التالي : «الأصل هو الهدف»الذي وضعه بنيامين في صدر التأمل الرابع عشر عن «قفزة النمر الى الوراء» (من الثورة الفرنسية الى روما القديمة على سبيل المثال) . غير أن التأمل التاسع عن الملاك مسبوق بمقطع من قصيدة شخصية لشولم عن لوحة كلي :

جناحي جاهز للطيران
يطيب لي أن التفت الى الوراء .
لو بقيت زمناً بلا وقت .
لكان حظي قليلاً .

اجتراح مسألة الملاك منه : «في هذه (المنطقة الحدودية) الشهيرة تمارس آثار الدم، آثار الكتابة، آثار الهندسة الاجتماعية المخزنة في المدن، تمارس أدوارها. ربما كان المفتاح هو مسرح الملاك أو خيط أدريان في اللاهوت اليهودي ؟(٤٩)». إن الصورة باعثة على الحيرة حقاً. آثار تؤدي أدواراً ؟ هل يمكن وضع خيط أدريان مقابل التراث اليهودي ومساواته هنا بخشبة مسرح، «مسرح الملاك»، على الرغم من وجود عدد كبير من الملائكة المختلفين في ذلك التراث ؟ هل يمكن لمفتاح منطقة حدودية أن يشكل دسرحاً ؟ وما الغرض من المفتاح : هل هو لفتح المنطقة أم للمسرحية الدامية، للنص والمجتمع ؟ الأسئلة كلها تبقى مفتوحة. ثم سنحال على النص المدموم العائد الى عام ١٩٣٣ عن الملاك الساقط مع آجيسيلاوس سانتاندر المجانَس، حيث يرد ذكر الثنائية الجنسية الممكنة للملاك. وتقوم الكاتبة بالربط بين الاسم المستعار : بنيديكس شونفليس، المستمد من اسم جد المؤلف من أمه، والذي اعتزم استعماله ولكنه لم يفعل قط. وفي الوقت نفسه يجري إحياء الأمل القبلاني في الخلاص متجسداً في عودة من هو مقسوم جنسياً الى التوحد من جديد. باتت الصوفية والمدرسة النصية (السكولاستية) مختلطتين :

الملاك ثنائي الجنس، الاسم السري للام في زحمة الدلالة النصية، أثر الآثار كلها : أليس هذا كله دليل اسم منحرف هرطقي يقف في وجه الأصل الأبوي المسيطر ؟ إن خشبة مسرح النص ترسو هنا، الخشبة التي ينطلق منها بنيامين لمخاطبة المضطهدين، المنبوذين، الطبقة العاملة للتوجه نحو أولئك الذين «ليس لهم اسم». وهنا يتعانق ملاك «رواية العائلة» مع ملائكة النص والتاريخ. وبطبيعة الحال يجري هنا تحديد مصير الكاتب بنيامين الذي كانت الكارثة رسالته المشفرة(٥٠).

٤٩ـ ب. غلوكسمان، فالتر بنيامين ...، ص : ٨٢. ٥٠ـ المصدر السابق. ص : ٨٥.

فجاة يوصلنا أثر للآثار الدالة على الأم ، على الصفحة قبل الأخيرة الى ملاك التاريخ وبالتالي الى أطروحة المقالة .تزودنا الكاتبة برؤى جديدة تخترق العلاقة بين رواية العائلة والكتابة ؛ ولكن التاريخ يبدو مشكوك النسب ومقحماً مجرد اقحام على اشكالية المثقف . غير أننا ، حين ننظر الى نص تامل بنيامين التاسع ، نرى أن صورة ملاك التاريخ لاتشي ـ أوتفضح ، إذا أردت ـ باي أثر مهما كان خفيفاً من آثار ثنائية الجنس . قد لا يكون الملاك نَفْسَه ببساطة . فهو يستخدم صيغة الذكر الألمانية المالوفة في النص كله ، ولكن ليس بغية انقاذه من ملكوت سماوي رجالي أو ذكري كما هو واضح . يبدو كما لو أن جنس الملاك ، وبالتالي الضمير المتعارف عليه ، لم يكن منطوياً على أية أهمية بالنسبة له .

وبعد مقدمة نقدية مؤلفة من خمس وأربعين صفحة عن جنس الملائكة وعن ذكريات الأحلام ، نبقى مع صفحة واحدة فقط مكرسة لتفجر التوتر الكامن في الصورة الديالكتيكية(٥١) . والكاتبة لا ترى ديالكتيك الصورة في التناقض بين التقدم والكفاح في سبيل الخلاص لدى الملاك العاجز عن الفعل ، بل ، بالأحرى ، كما لدى مابعد ماركسي طيب ، في التقدم بالذات ، باعتباره مجابهة بين منتصرين ظافرين من ناحية ومهزومين مسحوقين من الناحية الثانية في إطار «اللااسم الصامت لتاريخ مازال ينتظر من يكتبه» .

أما عالم كافكا وكلي المكمل الآخر ، العالم / اللغة العائد لـ «قزم اللاهوت» والملاك فهو عالم لا ديالكتيكي . إنه يشير الى انقطاع التاريخ ، الى الكارثة ، الى ما ليس انسانياً ، والى ازدهار الذات وانحطاطها . إنه يدلنا على الجانب العتيق البربري لمجتمعنا

٥١ـ المصدر السابق ، ص : ٥٣ . حيث يجري وصف العلاقة بين الحمية والأحدب (القزم) في صورة حجر الشطرنج بأنها «مبارزة يستحيل حسمها» .

المتمدن ، على «الجوهر المشيا ، للمدن الكبرى» للسياسة الجماهيرية لدولة تلة النمل والأجهزة البيرقراطية الحديثة(٥٢) .

ذلك هو كل مافي الجعبة : كلمات مفتاحية عن التفكيك ومابعد التاريخ ، قلما كانت قراءة بنيامين ضرورية لصياغتها . لقد وصلنا مرة أخرى الى أمان البرج العاجي حيث يتم التأكيد على بنيامين ، في نظر هاتين اللغتين وعالميهما ، ذو «أسلوب مشطور في الكتابة» . أما الآخر القائم على السبب الغائي فمقطوع هنا وبات عاجزاً عن الفعل ولو حتى بطريقة أنثوية ؛ وبالتالي فان الموقف يغدو سراباً ، ملكوتاً للأشباح مثل الطرف المرئي . سبق للصورة أن وردت في بداية المناقشة حيث يتم اقتباس تلاعب لاكان بالألفاظ فيما يخص كلمتي المؤنث واللاهوتي : «ايترانجه Étrange » (غريب) ، كلمة يمكن تفكيكها الى كلمتين هما : ايتر : (فعل الكون) وأنج : (ملاك)(٥٣) .

بدأ هذا الذيل بملاحظة أن النساء قلما شاركن في جدل مابعد التاريخ ولكنهن لعبن دوراً بالغ الأهمية في تفسير بنيامين ، لأنهن كنَّ ، بأكثريتهن ، أقدر من زملائهن الرجال على مواجهة صوره البيانية ذات المستويات المتعددة وتفسيرها . ففي هوامش هذا الفصل شكلن نوعاً من اللحن المعارض الدائم لأساليب القراءة الرجالية السائدة بنزوعها الى الاسقاط الفعال والتراجم مابعد التاريخي .يشكل تفسير كريستين بوتشي غلوكسمان ، من هذه الناحية تفسيراً خنثوياً حقاً ، ولكن ذلك لم يتكشف عن أنه مفيد كلياً . إنهاتشارك أخريات ميلاً الى تحليل قائم على المعرفة التحليلية ـ النفسية لجملة تلميحات واردة في صور بنيامين البيانية وتاريخ حياته ؛ غير أنها ، مثل العديد من المفسرين الرجال تبالغ في

٥٢ـ المصدر السابق ، ص : ٨٦ .

٥٣ـ المصدر السابق : ص ٤٣ .

الفصل بين هذا الميدان النظري التصوري وبين البُعد الاجتماعي ، ولو بتاثير معكوس . ليس آخَرُ العقل (الوجه الآخر للعقل) هو ما تحجبه بقناع ، بل العقل نفسه .

في عمل بوتشي ـ غلوكسمان الأخير نجد الطبقة الماركسية ماقبل النسوية التي افترض أنها كانت جزءاً من تاريخ حياتها وبنيانها النظري ، مختومة بقشرة غير مفسرة من التفكيك ومابعد التاريخ . وبالتالي فإن مضامين هذه الطبقة لا تتطور بل تتطفل بين الحين والآخر كأجسام غريبة . ففي حين أن بنيامين حاول أن ينفخ روحاً جديدة في الديالكتيك من خلال تبني تصورات فعالة ، نرى مفهومها الجهازي الخاص للديالكتيك يستمر دون أي تعديل . وهذا الديالكتيك ، متحرراً من أي عائق ، يدفع الى السطح ما هو اجتماعي ، ولكن بلا ذات أو ذاتية هذه المرة . ولكن هذا الحجب للطبقة القديمة يمارس فعله على الطبقة الجديدة فيجعلها تبدو سرابية وغير دقيقة في الغالب ، خصوصاً حين يكون موضوع المساءلة متجاوزاً الحدود المفروضة ذاتياً للفهم الفكري ـ الثقافي . فكل ما هو خلف تلك الحدود يقع في نوع من الضباب حيث المشاعر والتقويمات وأشكال التذوق تهيم طليقة أو تتضافر مع أحكام واخزة . دعونا نأخذ مثالاً واحداً . بعيد الفقرة المقتبسة قبل قليل ، حيث تقوم الكاتبة باستخدام جملة تفاهات ما بعد تاريخية لتنأى بنفسها عن الزمن الحاضر (اللحظة الآنية) (Jetzeit) تختتم كلامها بملاحظة بالغة التفاؤل ولكنها هروبية مع ذلك إذ تقول : «إن العالم هو مقدمة تاريخ لتاريخ معين ـ لتاريخ تنبأ به ماركس ، ولكنَّ (مهذوية) بنيامين (الهزيلة) هي التي غاصت في أعماقه .»(٥٤) ثمة مشاعر ملتبسة تقوم هنا بتجميع جملة من المعايير في حكم لا ينطوي على أي شيء يمكن أن يصمد للمعاينة والتدقيق . إن «مابعد التاريخ» ليس نوعاً مما قبل

٥٤ـ المصدر السابق : ص٨٦ .

التاريخ : لم يكن ذلك ما تنبأ به ماركس أو قام بنيامين بمعاينته والغوص في أعماقه . كذلك لم يكن بنيامين مسيحاً سياسياً في اجازة دراسية : أراد بنيامين أن يسترد لصالح المضطهَدين الآمال المعلقة على سائر الآلهة ذات الجبروت الكلي في هذا العالم كما في العالم الآخر . وبرأيه فإن كلاً من تلك الآلهة بلا استثناء ينطوي على «قوة مهدوية ضعيفة» ما .

الظن بأن التاريخ في خطر

يقع نمط تفكير بنيامين بالتاريخ ، وهو النمط الذي يصفه ، بقدر من الخروج على المألوف ، بأنه مادية تاريخية ، في إطار تراث كل من بلانكي وفورييه وماركس . إنه يتطلع الى اعادة توحيد هذا التراث على أساس انساني كلياً ، مع المعاني الموروثة عن الآمال الدينية (بتعبيراتها اليهودية خصوصاً) . غير أن تفكيره مدين أيضاً بالشيء الكثير لكارل شميدت الذي يشار اليه فعلاً في نص التأملات . كان بنيامين مطلعاً على كتابات شميدت عن «اللاهوت السياسي» ، «الرومانسية السياسية» و «الدكتاتورية» ، ومعجباً بها ؛ كما كان يشارك في اقتسام اشكاليتها بقدر ما كان هو أيضاً مؤمناً بأن أي مجتمع معلمن لا يستطيع ببساطة أن يتجنب مسائل أساسية مثل السيادة أو حالة الطوارئ التي اعتاد الدين على اختزانها ، بل يتعين عليه أن يتبناها ويعالجها بنفسه . غير أن بنيامين ، بعيداً كل البعد عن الاتفاق مع شميدت حول هذه المشكلة ، أحس ، وهو اللاجئ اليساري اليهودي بأنه عدو لذلك الحقوقي المَلَكي الكاثوليكي والمعادي للسامية .(٥٥) ففي حين قام شميدت

٥٥ـ ذلك هو السبب الكامن وراء اسقاط التلميحات الايجابية على جمهورية فايمار بعد خروج بنيامين الى المنفى ، انظر ميكائيل رومبف ، «اللاهوت الجذري : علاقة بنيامين ـ

باسباغ المشروعية على السيادة عبر التنظير الحقوقي في الدين ، وزاد من سعيه الى بناء النظام القضائي على أسس أونطولوجية أو ظرفية كما على نزوع الحكام الموجودين الى اتخاذ القرارات الحاسمة ، تبنى بنيامين موقفاً مختلفاً تماماً . إن مفاهيمه المركزية عن «التذكر» ، «الزمن ـ الآن» و «القوة المهدوية الضعيفة» تنطوي على نوع من الدعوة الى تنشيط تقاليد بديلة . وهو حين يجعل التاريخ معاصراً ، إنما يريد استرجاع الآمال التي كانت تراود أولئك الذين تجاوزهم التاريخ : أي اطلاقها لصالح حرية المزيد من الفاعلية بما يضفي معنى على طاقتها الوجودية المؤكدة للتقاليد في النضال الذي يتوجب عليه أن يوقف العاصفة الكارثية للتاريخ . إن العاصفة تهب فعلاً من الفردوس ، وهي بالتالي قوة تحرك التاريخ كله . غير أن زخمها الأساس المندفع نحو الكارثة قد أصبح ، كما يرى بنيامين ، بالغ

ـ بشميدت» في بيتر غيبهاردت وآخرين (ناشرين) ، «معاصر الحداثة فالتر بنيامين» كرونبيرغ ١٩٧٦ ؛ ايلين كنيدي ، «كارل شميدت ومدرسة فرانكفورت» ، تيلوس ٧٣ (١٩٨٧) ؛ مع النقاش الذي أثارته في ألمانيا مثل الفونس زولنر ، «بعيداً عن كارل شميدت : تصحيحات علمية حول النظرية السياسية في أوساط مدرسة فرانكفورت» ، مجلة التاريخ والمجتمع ، ١٢ (١٩٨٨) ؛ وأورلنج ك . بروس ، «كارل شميدت ومدرسة فرانكفورت» في المجلة نفسها ، ١٣ـ (١٩٨٧) . أما مادة ليسلوت فيزنتال فتبين مدى الأهمية النظرية لما هو متطرف في دين بنيامين لكل من كاسيريه وشميدت . تعود الاشارة الى «اللاهوت السياسي» لشميدت والى الصحوة اللاهوتية اليهودية بقيادة فرانز روزنبرغ الى بنيامين نفسه . ولابد من التفريق بينها وبين المحاولة مابعد التاريخية للامساك به من جانب أتباع جاكوب توب الذين يضعونه في سياق واحد مع كل من اوزفالد شبنغلر ، مارتن هايدغر ، وايرنست يونغر ـ ممن كان بنيامين يعتبرهم سلفاً أعداء وقد سبق له أن هاجمهم علناً في جمهورية فايمار . انظر مثلاً نوربرت بولز ، «مدرسة تحضيرية للالهام المبتذل» في بولز / فابر (ناشرين) ، «الهام مبتذل» ، ص ١٩٠ ؛ و «الوجود الماهر» في بولز/ فابر (ناشرين) «القديم والحديث ، ص١٩١ . .

الوضوح مع تجلي التأثير المدمر للفاشية - وخصوصاً مع نسف جملة من التوجيهات البديلة المتركزة على الشيوعية السوفيتية كدعامة أخلاقية وسياسية رسمية بعد حلف هتلر - ستالين .

إن القوة المهدوية الضعيفة «الممنوحة لكل جيل» ، وهي تعتبر طاقة انسانية أساسية في كل عصر ، يمكنها أن تتعلم من التراث اليهودي القائم على انتظار المستقبل حيث «تشكل كل ثانية من الوقت باباً مشرعاً يمكن للمسيح أن يدخل منه» . فالمبعوث السماوي يذكّر بقدرة يتعين عليها اليوم - حيث يقوم العقل الغائي الديناميكي (أو التقدم الكارثي) بمنعها من ايقاظ الموتى وجمع الأنقاض - أن تنتقل الى البشرية نفسها . ولتحقيق ذلك ، كما يقول بنيامين في مكان آخر ، يجب على اتصالنا بالتاريخ أن يؤدي الى تكنيس تمجيد التقدم ومنتصريه في الاتصال المشكوك به للزمن الفارغ . على البشرية ، بدلاً من ذلك ، أن تنفتح على الآمال الأولية للانسانية ، تلك الآمال التي ظلت مخزونة في اللاهوت ؛ ولكن استردادها ، عن طريق الوعي التاريخي ، من آمال المسحوقين غير المرتبطة باي تيار من تيارات التراث بات ضرورياً أكثر فاكثر . وفي السعي الى وضع حد ثوري لهيمنة التقدم ، يجب على ذات التحرر التاريخي («الطبقة المسحوقة المناضلة») أن تعود ، كما هي الحال باستمرار ، الى امال أولئك الذين مهّدوا الطريق وتعرضوا للهزيمة - عبر (قفزة نَمر نحو الماضي ، بصيغ تاريخية سليمة وملائمة) .

لابد أن تصوراً كهذا كان من الصعب التوصل اليه بالنسبة لمادي يهودي كان في أكثر البرازخ الشخصية بعثاً على اليأس ، وكان ، بعد حلف هتلر - ستالين ، قد فقد مرتكزاته الكامنة في الصراع الطبقي ، وتم وضعه في معتقل احتياطي خلال الحرب الكلامية . في ذلك الوقت كان بنيامين متفقاً مع بريخت حول الأفق المظلم والكئيب لـ «زمن بلا تاريخ» - أي بلا صراعات طبقية . (هذا العَرض وحده يثبت نوعاً معيناً من القرابة مع خبراء «مابعد

التاريخ» اللاحقين ، رغم احتفاظه بنظرة اجتماعية وتاريخية) . غير أن من النموذجي أن بنيامين ، وهو المؤيد للحركة الشيوعية ، لم يبادر الى ادانة الستالينية علناً . ففي التأملات خاض معركة فرعية ضد الديمقراطية الاجتماعية ، متهماً إياها بذلك الايمان الأعمى بالتقدم واستغلال الطبيعة ، الأمر الذي كان يطبع شيوعيي زمانه أكثر من الديمقراطيين الاجتماعيين(٥٦) . نظراً لاستحالة أي توجه سياسي عملي ، وهو الأمر الذي لا يذكره إلا بايجاز لدى الاشارة الى الهزيمة والخيانة التي جلبها عدد من قادة اليسار ممن لا يذكرون بالاسم ، فإن «الدنيوية السياسية» توفر له هامشاً يمكنه من العودة الى العمل النظري وتضم نوعاً من التناظر بين تأملاته واعتباراته وبين جملة التأملات العائدة لخوارنة العصر الوسيط .

لحظة انبطاح الساسة الذين علق خصوم الفاشية آمالهم عليهم وتأكيدهم على هزيمتهم عبر خيانتهم لقضيتهم بالذات ، فإن هذه الملاحظات ترمي الى تحرير الدنيويين السياسيين من الشباك التي أوقعهم الخونة فيها . إن رأينا مستمد من رؤيا أن إيمان الساسة العنيد بالتقدم ، ثقتهم بـ «قاعدتهم الجماهيرية» ، واندماجهم العبودي بجهاز يتعذر التحكم به أخيراً ، لم تكن إلا أوجهاً ثلاثة للشيء نفسه .(٥٧)

لابد من التأكيد على أن هذا النقد الشامل الذي يتجنب أي فحص لأخطائه الخاصة في التوجه ، لا ينطوي على قدر أعم من انسحاب الدنيوي

٥٦ـ يسلط كامباس الأضواء على نقد بنيامين المضمر أو الداخلي للستالينية ، ولكنه يوضح أيضاً أن هذا النقد كان مرتبطاً مباشرة باشتراكيي الجبهة الشعبية من جهة وباطار انشغاله بالقرن التاسع عشر من الجهة الثانية ، «فالتر بنيامين في المنفى» ، ص : ٢٠٣ .

٥٧ـ التأمل العاشر ، «اشعاعات» ، ص : ٢٦٠ .

السياسي الى الدير ، كما لا ينطوي على أية تسووية ما بعد تاريخية تحيل العالم الخارجي الى رتابة فقدت انسانيتها . لم يقم بنيامين قط بدور أي نبي سياسي . ظل منتمياً الى الضحايا لا الجلادين الجناة . صحيح أن المعاني السياسية لأمله بالنجاة فُقِدت ، ولكن سياق المعنى الاجتماعي الداعم لممارسته الثقافية والفكرية ظل صامداً . حقاً ، «يعتبر بنيامين غربلة التاريخ ونخله إحدى مهماته» ، إنه يسعى لامتلاك تصور للتاريخ تكون حالة الطوارئ فيه هي القاعدة ، بغية ادراك ضرورة التوصل الى «حالة طوارئ حقيقية (أي ثورية)» وفي سبيل «تحسين وضعنا في النضال ضد الفاشية» .

لحظة الخطر ، حين كثف ثمار عقود من الاستغراق في التأمل النظري ، لاذ بنيامين بالهامش المتبقي له في سبيل تقديم خلاصة للتصور القائم على نوع من الممارسة التاريخية التي تطلبت قطيعة مع النزعة التاريخية وتفريغ الزمن .

تتشكل النزعة التاريخية ، بحق ، بالتاريخ الكوني الشامل . والتاريخ المادوي يختلف عنها ، فيما يخص النهج بقدر أكبر من الوضوح بالمقارنة مع أي نوع آخر ، فالتاريخ الكوني الشامل لا يلبس درعاً نظرية . يقوم منهجه على الادمان ؛ يجترم كتلة من المواد ليملأ بها الزمن الفارغ المتجانس . أما التاريخ المادوي فيكون ، بالمقابل ، مستنداً الى مبدأ بناء . لا ينطوي التفكير على تدفق الأفكار فقط ، بل وعلى اعتقالها والامساك بها أيضاً . فحيث يتوقف التفكير فجأة أمام تشكيل حامل بتوترات ، يسارع التفكير الى لكز ذلك التشكيل بصدمة تؤدي الى تبلره وتحوله الى موناد (جوهر فرد) . وأي مؤرخ مادوي لا يقارب أية ذات تاريخية إلا حيث يواجهها كجوهر فرد . وفي هذا البنيان يتعرف على نوع مهدوي من انقطاع الحدث ، أو ، بعبارة أخرى ، على فرصة ثورية في النضال من أجل الماضي المقموع . إنه

يتعرف على هذه الفرصة الثورية ويعترف بها في سبيل نسف حقبة بعينها لاخراجها من المسار المتجانس للتاريخ - ناسفاً حياة بعينها من قلب الحقبة أو عملاً بذاته من مجمل الأعمال الحياتية . وكنتيجة لهذا النهج يتم الحفاظ على عمل العمر في هذا العمل المعين كما واختزاله في الوقت نفسه ؛ ثمة الحقبة في عمل العمر ؛ وثمة مسار التاريخ كله في الحقبة .

إن الثمرة المغذِّية لما هومفهوم تاريخياً تحتضن الزمن كبذرة ثمينة ولكنها بلا طعم(٥٨) .

قيل عن هذا التصور إنه يعكس فرص العمل المحدودة بالنسبة للمثقف الهامشي الغريب .(٥٩) قد يكون ذلك صحيحاً . ولكن الأمر لا يمكن اختزاله جراء ذلك الى مستوى تراجيديا غير ذات تأثير ، كما قد يرى المفسر المعني . فهذا التصور يدأب ، بالأحرى ، على التفكير بالمأساة الى نهايتها بآفاقها بعيدة المدى(٦٠) . إن الزخم الذي وفّره بنيامين لقضية بناء تقليد

٥٨- التأمل السابع عشر ، المصدر السابق ، ص : ١٤١ .

٥٩- فيركمايستر ، ص١١٨ .

٦٠- نظراً لأن المؤرخين ظلوا على مايبدو نائمين طوال فترة الجدل حول بنيامين - الأمر الذي لم يكن لصالحهم هم ولا لصالح النقاش - فإن مساهماتهم تركت شيئاً مفتقداً ومرجواً بالنسبة للجدل البائس والمستقطب زيفاً حول التاريخ التجريبي مقابل نظيره البنيوي ، كما بالنسبة للجهود الرامية الى اعادة تنشيط هذه المدرسة عموماً . فأهمية نظرية بنيامين عن التجربة فيما يخص الممارسة التاريخية ، التي برزت سلفاً في «نقد الخلاص» لدى هابرماس ، باتت الآن جلية في كتاب كاولن «الانقاذ والتفكيك» وفي مساهمات مختلفة ظهرت في المجلدات التي نشرها بولز وآخرون . انظر خصوصاً ميكاييل لوي ، «نقد التقدم» في «القديم والحديث» ؛ «ثورة ضد التقدم : رومانسية فالتر بنيامين الفوضوية» ، نيولفت ريفيو ١٥٢ ، تموز آ ١٩٨٥ .

معين يخص المقهورين أو المعذبين. تقليد لا يمكن ادراكه إلا بصورة افرادية على الدوام ـ يؤمن لنفسه جملة من البنى النظرية مثل الدمية التي تبقى في الحالة الودية ـ الخاطئة لما هو افتراضي . إنه لأمر ينطوي على ما يكفي من المعقولية لأن الكل لا يمكن فحصه ومساءلته ـ كما كان يمكن لأدورنو أن يقول : إن الكل هو ما ليس صحيحاً . وبدون احترام بُنى نظرية معينة كهذه فإن من شأن قفزة النمر نحو الماضي أن تفضي الى جواهر منفردة (مونادات) أدبية عشوائية لا تكون علاقتها إحداها بالأخرى ، وبالآن مفتوحة إلا أمام أنواع من التخمينات الحدسية ، ولكن مع استحالة مَفْصَلَتها وبالتالي نقدها واعادة النظر فيها . وإلا فسوف نجد أنفسنا أسرى تلك الكتابات التاريخية المركبة المفتقرة الى الصحة فيما هو خاص وغير القابلة للمناقشة حول ما هو عام ؛ فلأنها لا تتوجه بصدق نحو الفرد ، تراكم بالضرورة سائر التقاليد المتوفرة للحكام وتقوم بطريقة تجريبية زائفة أو نسبية بجمع المبادئ التي تشكل أساس الروابط . إن مكافحة بنيامين لما يطلق عليه اسم النزعة التاريخية موجهة في الحقيقة ضد أدبيات سائبة ثورية مغتربة تتحدث عن المسافات الرائعة التي قطعناها .(٦١)

وبقَدْرٍ موازٍ من الوضوح خاض بنيامين معارك فكرية ضد قلب البُنى النظرية الى بيانات غير مدعمة عن الحاضر أو المستقبل ـ ضد تلك الممارسة التي أسبغت المشروعية إما على السلبية أو الارهاب ، أوكليهما معاً . قام بنيامين بتحميل الديمقراطية الاجتماعية الكاوتسكية مسؤولية الأولى ، أي

٦١ـ يشير جوزف فونكاس ، بالارتباط مع نثر بنيامين ، الى العناصر السوريالية والمهدوية في فكرته القائمة على التاريخ الشامل : عالم ذو ذهنية شاملة وموحدة ، تحول فيه الماضي قابلاً للاقتباس في كل واحد من اللحظات ؛ «نثر موحد فجَّرَ قيود الكتابة ومفهوم من قبل الجميع» . «السوريالية كمعرفة ـ شارع فايمار ـ ذو الاتجاه الواحد ، والأزمة الباريسية» ، شتوتغارت ١٩٨٨ .

السلبية ؛ أما الثاني ، الارهاب ، فلم يعاينه إلا في الرسائل . فالبديل السلمي ظاهرياً ، هذا البديل الذي استهدف التحرير اقتصادوياً عبر التنمية الاجتماعية الشاملة ، تم فضحه بوصفه موقفاً قصير النظر مرشحاً لأن ينتهي بكارثة ؛ فالتحالف الاجتماعي المعني قائم نتيجة قتل الطاقة البشرية لدى المظلومين المضطهدين بالوعود البراقة في المستقبل ، على الاستغلال الملجوم للموارد الطبيعية المعتبرة خطأ انها حرة ومجانية . وفي التأمل الأخير حيث أكد الكاتب على هول الطبيعة التي يساء استخدامها بهذه الصورة جراء كارثة التقدم ، اعتبر بنيامين الحياة العضوية على الأرض يوماً واحداً ووصف تاريخ الانسان المتمدن على أنه خُمْس الثانية الأخيرة من الساعة الأخيرة ، في حين أن زمن الآن المهدوي يكثف مجمل تاريخ البشرية كلها في الكون .

يعارض بنيامين هذا بتجربة تاريخية تنتمي الى الثورة ، بتجربة طاقتها مدمرة للعلاقات القائمة . وهذه التجربة تستمد زخمها من التوق الى حياة خالية من الهيمنة والاستغلال ، حياة معاشة في الطفولة ومصاغة في التراث الديني . وفي التأملات لا تتم مناقشة هذه الأطروحة بمقدار ما يجري تقديمها في استعارات عن الزمن في حالة توقف أو سكون . غير أن بحوثاً لاحقة تناولت الثورة بعمق ، بحوثاً قام بها كثيرون بمن فيهم غونتر فرانز وادوارد تومبسون ، قدمت وفرة من الأدلة الداعمة لتلك الأطروحة . لقد بات واضحاً ، مثلاً أن الحرب الفلاحية (أو حرب الفلاحين) أو الثورات التي حدثت خلال الثورة الصناعية ، أن «الجماهير الثورية لحظة الفعل» ، كانت تتطلع الى استعادة ظروف عدالة محفوظة في الذاكرة أكثر من تطلعها الى تحطيم القيود المكبّلة لقوى الانتاج . يتركز أمل بنيامين على امكانية إيقاف عجلة الزمن لصالحه هو ولصالح الجماهير ، قبل أن يقع هذا الزخم ضحية بناء صرح جهاز جديد للحكم والاندفاع المتقدم للانتاج ، من أجل ترك الزخم يتطور ويصل الى ما وراء أكثر الظروف افتقاراً لامكانية الدعم لمساعدة

ذكريات الجنس عن الحياة الطيبة ـ أو السعادة كما يقول بنيامين نفسه ـ بوصفها مرشداً للفعل الانساني . على المؤرخ عن طريق قفزات النمر التي يقفزها ، أن يقف في صف الجماهير المظلومة ويفجر الآمال المكبوتة من أعماق الماضي الذي قام التقدم بتسطيحه . وكلما زاد غوصاً في الماضي تضاعفت قدراته الجلية على استخراج التوقع الأعم للخلاص المحفوظ في التراث الديني . أما وقد قامت العلمنة بكسر الحلقة الرابطة بما هو وراء ، خلف ، الأمر الذي أزاح فكرة تحقيق العدالة بالتأكيد ولكنه جعلها ، في الوقت نفسه ، فكرة حاضرة لدى الجميع ، فإن مشكلة الاضطهاد والقهر تبقى بدون حل . ما من أحد سوف يستنهض الساقطين ؛ ما من أحد سوف يصل الى الجنة(٦٢) . غير أن قوة خلاص وإعادة توجيه ضعيفة ما تبقى صامدة في ذكرياتنا عن الذين دُفنوا والذين تعرضوا للاضطهاد ، كمتحد دائم وثابت للاختبار التجريبي . ليست صوفية ولا عقيدة الفية(٦٣) ، بل محاولة لاطلاق الرغائب التي تمت التضحية بها خضوعاً لمستلزمات التقدم ، حيثما يكون الأمر ممكناً تاريخياً . وأي مسعى نحو التراث يكون أقل طموحاً لن يقدم للمظلومين فرصة الاهتداء الى الحقيقة (أي الى خزان التجارب الانسانية المدفونة في أجزاء من التراث) كما لن يوفر لها الجرأة اللازمة للاقدام على

٦٢ـ انظر رسالة بنيامين الى هوركهايمر في ربيع ١٩٣٧ ، وقد وردت في تيدمان «المادية التاريخية» ، ص ٨٧ .

٦٣ـ يرى رونالد كاني بنيامين مجرد نبي «مابعد تاريخي» غير معقول أو لا عقلاني يبشر بيوم القيامة ، مضحياً بالحقيقة والاستمرارية التاريخيتين على مذبح تعليم سياسي عن بلوغ الماضي ـ وهو أمر حاول النازيون أيضاً تحقيقه ، ويساعد آخر المطاف على تعبئة الغرائز واستنفارها . غير أن أحكام كاني الغاضبة يجب أن ننظر اليها في ضوء روايات ابستمولوجية غريبة عن التاريخ «منيموسينه برنامجاً : التاريخ والذاكرة والخشوع ، حول ماهو تافه في مؤلفات أوزنر وفاربورغ وبنيامين» توبنجن ١٩٨٧ .

الفعل . كان بنيامين يرى خطر تعرض اليسار للشلّل على يد الفاشية في السلطة ، وأحس بأن التاريخ كان يتابع تقدمه نحو كوارث ذات أمداء لم يسبق لها مثيل . في الأشهر التي كان بنيامين يكثف فيها تأملاته حول التاريخ لصالح اليسار ، كانت السلطات الألمانية في بولونيا تعيد تسمية قرية صغيرة وتطلق عليها اسم أوشفيتز وتقوم سراً ببناء معسكر اعتقال هناك(٦٤) .

٦٤ـ يشير ولفغانغ كراوسهار الى هذه المصادفة في «بعد أوشفيتز» ، في دان دادىر (ناشراً) ، «انكسار المدنية : التفكير في ما بعد /أوشفيتز/» فرانفكوت/ م ١٩٨٨ من الجدير بالملاحظة أنه يغلق أن من الممكن إعادة بناء تفكير بنيامين عن التاريخ التجريبي بدون أخذ ملاحظاته المحددة لحظة الخطر بنظر الاعتبار .

٦٥ـ يمكن الاحساس بمدى بعد مثل هذه الأنباء في المنفى إضافة الى مدى قرب قوة ضعيفة معينة كان من الممكن انقاذها من اليأس ، في قصيدة كتبها بريخت في لوس أنجيلوس :

بلغني أنك رفعت يدك ضد نفسك
متخوفاً من قدوم الجلاد .
بعد ثمان سنوات في المنفى ، وأنت تلاحظ صعود العدو ،
أقمت ، أخيراً ، حداً يستحيل اجتيازه ،
يقولون : رحلتَ رحيل انسان متواضع .
* * *
امبراطوريات تتداعى وتسقط . قادة عصابات
يتبخترون كساسة . لم تعد الشعوب
مرئية تحت هذه الأكوام الهائلة من الأسلحة .
* * *
المستقبل هاجم ، بالتالي ، في الظلمات وقوى الحق
واهية . رأيت هذا كله بجلاء
فحطمتَ جسداً يمكن تعريضه للعذاب .

«حول انتحار اللاجئ ف .ب .» ترجمة جون ويلليت ، قصائد من شعر بيرتولد بريخت ، جون ويلليت ، رالف مانهايم (ناشرين) ، لندن ١٩٧٦ .

حزن أصدقاء بنيامين في المنفى كلهم لدى سماعهم لنبأ وفاته . ولكن ردود أفعالهم على النص الذي تركه بعنوان «تأملات حول التاريخ» كانت متباينة . فَفَهِمُ حنا آرندت ، التي سبق لها أن رأت المسودة الأولى في باريس ووصفت فيما بعد هشاشة بنيامين الخطرة لأخت أشد وقاحة ، بلغة عاطفية ولكنها مفعمة بالاستخفاف - لجوهر التأملات كان فهماً سطحياً ومضلِّلاً أو سائباً(٦٦) . أما آندرس فوجد النص «غامضاً ومضطرباً» ، في حين تذوق بريخت ذلك التوضيح لطريقة مختلفة في التفكير(٦٧) . ربما كان ادورنو أفضل من استوعب رفض التقدم ؛ ولكنه وجد شيئاً من الغرابة في الملموسية التاريخية(٦٨) لدى بنيامين ، كما في قربه المبكر من التقاليد المهدوية(٦٩) فضلاً عن آماله السياسية . فرغم تأثره العميق به ،

٦٦- انظر أرندت ، «مقدمة» ص : ١٩ - ٣٧ .

٦٧- انظر توثيقات الناشرين في المؤلفات ١/٣ ص : ١٢٢٧ .

(٦٨) كان أدورنو يعتبر بنيامين فيلسوفاً لا مؤرخاً يسعى إلى توفير أساس محدد لممارسته . يتذكر الماضي ويقوم بصياغة التعبير الكامل عن توقعاته البرجوازية . الذكورية ويقول : «منذ البداية الأولى عقدت أسمى الآمال وأعظمها على بنيامين «بدت له مسودة «الممرات» منطوية على «فكرة» فلسفة ملموسة ومتسامية في وقت معاً» ؛ حين تلقيت نبأ وفاته في خريف ١٩٤٠ بنيويورك أحسست بالفعل بالمعنى الحرفي تماماً ، أن الفلسفة فقدت ... بموته أفضل من كان بوسعها أن تتطلع إليه .» (حول فالتر بنيامين ، فرانكفورت/ م ١٩٦٨ ، ص : ١٤) . كما أن ويزنتال يقف مع ادورنو ضد تيدمان في اظهار حقيقة أن بنيامين لم يكن هيغلياً . أما هوركهايمر فيلاحظ بالمقابل ، في مقال مبكرعن بيرغستون له أيضاً علاقة قوية بمفهوم التجربة لدى بنيامين ، المهمة الانقاذية للمؤرخ نتيجة الحاده في ذلك الوقت . مجلة البحوث الاجتماعية ٣ (١٩٣٤)

ظل أدورنو محافظاً على قَدْر من المسافة بينه وبين بنيامين : «إن موت بنيامين يجعل النشر واجباً . لقد غدا النص وصيته . والشكل المبعثر لهذا النص ينطوي على مهمة الوفاء لحقيقة هذه التأملات عبر فكر دائب على الاستمرار» .(٧٠)

كتب هوركهايمر مقالين يكشفان عن عدد من الخطوط الموازية لحركة فكر بنيامين ولكنهما متميزة عنها بعدم اهتدائها الى أي منظور سياسي على مستوى فلسفة التاريخ . في المقال الأول الذي يحمل عنوان «نهاية العقل»(٧١) في الترجمة الانكليزية ، ينظر هوركهايمر الى الوراء لمعاينة السيرورة التي أفضت الى اختزال العقل ، وقد بات الآن «رمزاً بلا وظيفة» و «اشارة بلا معنى» ، الى أداة صالحة للحفاظ على الذات - الى ما سيطلق عليه لاحقاً اسم «العقل الغائي» - فضلاً عن تأكيده وتحييده في ظل الفاشية . في نقطة المركز ينتصب الأسى ازاء انحطاط الفرد البرجوازي الذي

---

(٦٩) انظر أنسون رابينباخ ، «بين التنوير والقيامة : بنيامين ، بلوخ والمهدوية اليهودية الألمانية الحديثة» ، نيوجيرمان كريتيك ٣٤ (١٩٨٥) ؛ وعن لاهوت ادورنو السلبي ، ميكا برومليك ، «اللاهوت والتبشير في فكر أدورنو» ، في هـ . شروتر و س . غورتلر (ناشرين) . «نهاية التاريخ» ، مونستر ١٩٨٨ .

(٧٠) في بنيامين ، «المؤلفات» ١/٣ ص ١٢٢٤ . المسودة غير المنشورة لمقدمة من أجل طبعة محدودة لنص في معهد البحوث الاجتماعية ، «في ذكرى فالتر بنيامين» لوس أنجلوس ١٩٤٢ . عن التذوق الانتقائي القريب من الفجاجة للموضوعات من قبل هوركهايمر وأدورنو ، انظر رولف ويغر سهاوس ، «مدرسة فرانكفورت : تاريخها وتطورها النظري وأهميتها السياسية» ، ميونيخ ١٩٨٨ ، ص : ٣٤٨ . أما عن مغزى وأهمية بنيامين بالنسبة لادورنو وقيام هذا الأخير باستبدال التاريخ الانقاذي بالمضمون الطوباوي للفن فانظر باك - مورس .

(٧١) في «دراسات في الفلسفة والعلوم لاجتماعية» ٩ (١٩٤٢) ، ص : ٣٦٦ .

كان مايزال يجسد ضبابية العقل الكاملة . فمقولة الفردية «لم تواكب الصناعة ذات النطاق الواسع» بل «تقلصت» وانحصرت في خلية متكيفة من خلال الصراع الاجتماعي في سبيل البقاء ، «بدون أحلام وبدون تاريخ»(٧٢) . باتت الأفاق كئيبة ومتجهمة في النهاية . ولكنْ ، في هذا الجحيم المنتج ذاتياً ، على الأقل تعني الطبيعة الثنائية للعقل ـ خدمة أهداف معينة من جهة والهروب منها مع تسمية الأشياء بأسمائها من جهة ثانية ـ أنه ، أي العقل ، ما يزال قادراً على أن يكون واعياً ، «في هامش لحظة» بما يجعله ، «عند توقف التقدم» يبقى لا يملك شيئاً سوى «التقهقر الى البربرية أو بداية التاريخ»(٧٣) . إن الخاتمة كئيبة لأن الظهور المفاجئ لنوع من «بداية التاريخ» يترك مسالة ما إذا كنا نحال مرة أخرى على أمل ماركس بتاريخ محرر بعد الثورة ، أم ما إذا كان العقل سيبقى مع تاريخه هو فقط ، أولاً . ومن ناحية ثانية ، وهي أكثر أهمية ، فإن الأمل المعقود على أن التحليل السابق قد يسمح باضاءة مفاجئة للرؤيا («فالايديولوجيا تكمن في قلب طبيعة البشر أنفسهم ، في شَلَلِهم العقلي وفي تعويلهم على الارتباط ببعضهم كالقطيع») قد أثبت على الصعيد العملي أنه أمل غير ذي أساس ، حتى وإن كان موهوباً للجميع نظرياً . فعلى الرغم من أن العالم المعقلن كلياً قادر أيضاً على تحرير الجميع من أسبقية الحفاظ على الذات ، تبقى الذات الاجتماعية لمثل هذا العقل مبعثرة على الانسانية عموماً ، بما يجعل أي أمل فيها يتخذ صفة مهدوية : مهما كانت النوايا والأغراض ليس ثمة إلا قَدْر قليل جداً من الأمل ، غير ان امكانية معينة تبرز فجأة من نافذة رؤيا تعود الى عدد من مثقفي البرجوازية المتاخرة ممن يستطيعون تحطيم القيود وازالتها .

---

(٧٢) «العقل والحفاظ على البقاء» ، في ماكس هوركهايمر ، المؤلفات ، م : ٥ فرانكفورت / م ١٩٨٧ ، ص : ٣٢٠ ، ٣٣٤ خصوصاً .

(٧٣) المصدر السابق ، ص : ٣٥٠ .

وفي المقال الثاني ، وقد كتبه ، مثل تأملات بنيامين حول التاريخ ، في ربيع ١٩٤٠ تحت تأثير حلف هتلر ـ ستالين ، حوَّلَ هوركهايمر انتباهه نحو «الدولة التسلطية»(٧٤) . مودِّعاً من حيث الأساس ، تحليله الماركسي الخاص للفاشية ، ذلك الذي كان قبل عام واحد فقط يطبع مقاله عن اليهود(٧٥) ، يقوم هوركهايمر بارساء الأساس الذي سيبني عليه نظريته عن النظام الشمولي (التوتاليتارية) وتوسيعها لتشمل المجتمعات الصناعية الغربية . فحسب رأيه تتقاسم الأنظمة النموذجية الثلاثة في عصره (أي نظام الصفقة الجديدة : New Deal ، النظام الفاشي والنظام الستاليني) عنصراً مشتركاً يقوم على اقتصاد متوسط سياسياً ، وتبدو ، بالتالي ، سائرة جنباً الى جنب نحو طبعات متناظرة عن «رأسمالية الدولة» نفسها . لذا فإن التركيز يتحول باتجاه الدولة التسلطية التي ليست «الدولتية الموحدة» من الطراز السوفييتي إلا الشكل «الأكثر تناغماً واضطراداً» بين أشكالها المتعددة ، والتي تؤيد «الأفق المرعب لفترة كونية شاملة من النزعة التسلطية» .

عندئذ ، وفي لوس انجلوس ، كان المسار يتحدد للطبعة الفرانكفورتية مما بعد التاريخ الوليد ، لـ «العالم المدار»(٧٦) ، الذي ستنتفي منه امكانية الممارسة الديالكتيكية(٧٧) . وعلى الرغم من أن ديالكتيك أدورنو السلبي ذا الاطلالة الجمالية ـ اللاهوتية سوف يبادر لاحقاً الى استرداد معنى ما لصالح الـ «آخر» ،(٧٨) فإن المسار الجديد بات غير قابل للارتداد خلال الحرب

---

(٧٤) المصدر السابق ، ص : ٢٩٣ . (٧٥) انظر داينر ، ص : ٣٠ .

(٧٦) انظر المقابلة الاستعادية مع هوركهايمر ، «عالم مُدار ؟» زيوريخ ١٩٧٠ .

(٧٧) يعيد برومليك (ص : ٤٧) اليأس ، «بوابة المعرفة» ، إلى بداية الحرب العالمية الثانية .

(٧٨) انظر تيودور أدورنو ، «الديالكتيك السلبي» ، نيويورك ١٩٧٣ .

نتيجة الاجهاز على يهود اوربا . اهتدى المسار الى صيغته لدى صورة فكرية تنتمي الى فلسفة التاريخ : «باتت الخرافة تنويراً» و «يصبح التنوير نفسه مع كل خطوة يخطوها غارقاً أكثر في بحر الميثولوجيا العميق»(٧٩) . ومثله مثل بنى ما بعد تاريخية أخرى مثل معارضة زايدنبرغ بين الغريزة والعقل(٨٠) ، كان هذا منطوياً على تصور للتاريخ بوصفه حقبة متوسطة في تحليل ثنائي لسيطرة العقل الغائي . أما الحقبة الثالثة فبدت بالغة الشمول حتى باتت أشبه بالأولى في اجهازها على الذاتية الاجتماعية واعدامها للحرية - الأمر الذي تم بلوغه عبر تعميم عمى عقل تعرض للضمور غائياً . غير أن الأفق لم يعد الآن إلا أفق هروب كامل . فالاحساس بما يشبه الشعور بأنك على قيد الحياة«بعد يوم القيامة» - أو «بعد أوشفيتز»(٨١) كما سيقول فيما بعد - يتم التعبير عنه في تأمل كُتب في خريف ١٩٤٤ ونُشر في كتاب مقالات أدورنو الذي كان بعنوان «مينيما موراليا Minima Moralia»(٨٢) . لدى تحليله للحرب الاعلامية المنبثقة «من خط النار» ، يدخل الكاتب في نوع من الحوار الداخلي مع بنيامين الذي يغدو أمله المعقود على الزمن المجمد نوعاً كارثياً من ثقب طلقة في

---

(٧٩) تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر ، ديالكتيك التنوير (١٩٤٤) ، لندن ١٩٨٦ ، ص : ١١-١٢ .

(٨٠) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٨١) انظر ديتليف كلاوسن «بعد أوشفيتز» في داينر ، ص ٤٥ . عن التصور اللاحق للتاريخ ، انظر هارتموث شايبل ، «التاريخ في حالة توقف ، حول النظرية الجمالية عند أدورنو» ، في كتاب «تيودور و . أدورنو» لناشره هاينز لودفيغ ، ميونيخ ١٩٧٧ ، ص :٩٢ .

(٨٢) تيودور أدورنو ، «مينيما موراليا : انعكاسات عن حياة مدمرة» ، لندن ، ١٩٧٨ ، ص : ٩٢ .

احساس بالحياة كان ملحمياً من قبل . «لقد تحولت الحياة الى تعاقب لازماني لصدمات تفصل إحداها عن الأخرى فترة خاوية مشلولة» . فالتفكير بأية حياة طبيعية اعتيادية أو اعادة بناء الثقافة ، بعد الحرب ، وبعد قتل ملايين اليهود ، يبدو له نوعاً من «البلادة أو البلاهة» . أما ما هو أكثر احتمالاً فهو تأبيد الكارثة ، فيما يستغرق في بحر من الضياع العاجز متركزاً على آفاق نوع من الانبعاث لروح الثأر حيث تعيش «أمم كاملة كذوات بلا ذوات» في وطن مخرَّب يبعث على النفور . إن منطق التاريخ يبدو له مدمراً كالناس الذين ينتجونه : «الطبيعية أو الاعتيادية هي الموت» .(٨٣)

يتبلور احساس ادورنو بانعدام المعنى في صورة شيء يطير . ليس هذا الشيء بطبيعة الحال ملاكاً عاجزاً عن الفعل ، كما ليس صورة ديالكتيكية من أي نوع من الأنواع ، بل هو شيء يبدو كما لو أنه نَفْي لموقف كوجييف ، وهو ما يكاد يساوي الشيء نفسه بالنسبة لكل ما سيتبع .

لو احتضنت فلسفة تاريخ هيغل هذا العصر لاهتدت قنابل هتلر الآلية الى مكانها . . بوصفها احدى الحقائق التجريبية المنتقاة التي من خلالها تتجلى حالة الروح العالمية في الرموز بصورة مباشرة . فالروبوتات (القنابل الآلية) ، مثلها مثل الفاشية نفسها ، تؤدي دورها بلا ذات . ومثلها أيضاً مثل الفاشية تثير رعباً قاتلاً وهي تافهة كلياً . «لقد رأيت روح العالم» لا ممتطياً جواداً ، بل محمولاً على جناحين بلا رأس ، وهذا يدحض ، بالضربة ذاتها ، فلسفة تاريخ هيغل .(٨٤)

قبل انتصار الحلفاء بنصف عام كانت مثل هذه التداعيات خارجة على السياق بالنسبة لأمريكا . هل كان مايزال ثمة جمهور يهتم بالتقويمات

---

(٨٣) المصدر السابق ، ص : ٥٥-٥٦ .

(٨٤) المصدر السابق ، ص : ٥٥ .

الصادرة عن الشخصيات الرئيسة المنتمية الى مدرسة فرانكفورت ، بعد أن باتت بعيدة عن التفاؤل التاريخي ولو حتى لدى طبعة برجوازية من الماركسية ؟ في ١٩٤٤ ، و١٩٤٧ مرة أخرى - بعد مزيد من تشذيب المفاهيم الماركسية - قام هؤلاء بنشر «مقتطفاتهم الفلسفية» بما يشبه السر . كان ذلك منسجماً مع تأملاتهم الأخيرة التي قوبل مضمونها الكئيب بنقد أعضاء أكثر شباباً من المدرسة عبر التعبير الملَغَّز : «رسالة في زجاجة» . «إذا كانت الكلمات مؤهلة لأن توجه الى كائن من كان اليوم ، فإن هذا الكائن ليس هو ما يُعرف باسم الجماهير كما ليس الفرد الذي هو بلا حول ولا قوة ، بل ، بالأحرى ، يمكن توجيهها إلى شاهد خيالي نتركها له بما يقيها من الاندثار الكامل والزوال مع زوالنا نحن» .(٨٥)

عاد هوركهايمر وأدورنو إلى فرانكفورت في وقت كان فيه معظم الألمان الغربيين ، تحت مظلة القوى الحامية الجديدة ، يحاولون بالضبط ممارسة ما أطلق عليه أدورنو اسم «البلادة أو البلاهة» : أي العودة الى الحالة الطبيعية أو الاعتيادية وإلى عملية إعادة بناء معينة للثقافة ، متطلعين في الحالين كليهما إلى استلهام الماضي فيما قبل الحرب . وبالتالي فإن الساحة كانت غير ملائمة تماماً لاستقبال فكرهما . زد على ذلك أنهما كانا قد وضعا حداً للذكريات المتعلقة بآرائهما الماركسية السابقة ، التي كانت مؤهلة لأن تنسف مرجعيتهما ونفوذهما عبر اظهار قَدْر من التحول في تفكيرهما . يتحدث هابرماس الذي كان مساعداً في معهد البحوث الاجتماعية خلال الخمسينيات عن أكثر الأفعال الرمزية غرابة حين يتحدث عن قيام هوركهايمر بسَجْن المجموعة الوحيدة من اعداد مجلة البحوث الاجتماعية العائدة الى عقد الثلاثينيات في صندوق محكم الاغلاق خبأه في قبو المعهد ، وهي المجلة التي كانت ، في السابق ، منبر النظرية

---

(٨٥) هوركهايمر ، المؤلفات ، ص : ٢٨٨ .

النقـديـة[٨٦] . ولكنّ مـا لم يمت (مـا لـيس قـابلاً لـلمـوت) قـاوم مـثل هذا الحَبْس . وما إن بـات طليقـاً حـتى سارع ، وبقَـدْر مـتزايد من الـحيـوية ، الى مص دم الجيل اللاحق . أمـا في طفـرة السـتـينيات التي باتت مـرحـبة فـقـد بادرت التشخيصات المستقـبلية المنتسبة الى أعوام الحرب الى التقاطم مع النظرية النقـدية العـائدة الى الثلاثينيـات . انفـتح التابوت ، وصلت رسـالة ـ الزجاجة إلى الشاطئ مـما أدى ـ مهما كان مستوى غـضب وانزعاج المؤلفين ـ إلى زيادة حـدة التناقـضـات في نشـاط قـائم علـى العزوف فلك حيناً يرقص فرحاً احتفالاً بضياع الواقع كشكل من أشكال بلوغ القوة عن طريق الخيال .

أمـا من كـانوا مـسـتنديـن الـى قَـدْر أكـبـر من الـخـبـرة فـسـعـوا جاهدين للحصـول ، في الـحدود الدنيا ، على نوع من الوضــوح بشـأن الآفـاق . وكـمـا سـبق لنا أن رأينا فـإن هابـرمـاس انتـقى «أطروحـات» بنيـامـين في سـبـيل تحرير دمـية المادية التاريـخـية من شاة الخيط الملغز العجيب المخـبوء تحت الطاولة . وقـبـيل ذلك كانْ أولريخ سـونمان قـد ألح على الملاك ـ الذي كـان ما يزال يُعتـبـر قـادراً علـى اصدار التوجيـهات حول فلسفـة التـاريـخ ـ طالباً منه أن يحسّن ملاحـتـه عن طريـق استـخـدام مـرآة خلفـيـة . ففـي شكـواه ضد التـركـز الألمـاني الغـربي علـى أنقـاض التاريخ ، وفـي دعـوتـه الى نوع من تعزيـز قوة المحاكـمة لدى الألـمان الغـربيين ، صـب كل ما في جعبـتـه من سخـرية على تامل بنيامين التاسع بعبارات بالغة الارباك :

ولكن ، حسب موضوعة نبوءة ماركس التاريخيـة التي تبناها بنيامين والتي ، دون أن تعـرف معنى الهـزيمـة ، تنجـو من أخطائهـا ، تغدو العاصفـة ، أول الأمـر ، تقدماً لا يمكن تعـريفـه بغير هذا الاسم حين لا يعـود الملاك يسـمح لنفسه بأن يبـقى مسـوقاً بـها ، فـتصبح الحركـة

---

(٨٦) يورغن هابرمـاس ، «شـخـصيـات سـيـاسـيـة ـ فلسـفـيـة» ، فـرانكفـورت/م ١٩٨٧ . ص :٤١٥ .

المتقدمة حركة تخصه هو . لذا فإن عليه أن يلتفت الى الوراء ويدير ظهره لكومة الأنقاض والركام : فأبسط الاعتبارات الديناميكية الهوائية يبين أن ليس ثمة إلا هذه الطريقة للم جناحيه بل وربما لاستخدامهما في صالح رحلته التي لا يتعين فيها على انطلاقة ضد الريح ، انطلاقة قد تفرضها دورة أخرى الى الوراء ، بأي حال من الأحوال ، أن تكون محظورة عليه ، حتى يبقى قادراً على تحديد مسار طيرانه الخاص بالافادة من تيارات غير مواتية . إنه مرمي على ذاته بطريقة تفوق ما كان يمكن لأي هيغلي هرطوق أن يخطر له على بال من حيث اثارة الرعب والخوف : إذا التفت الى الوراء فإنه يرى أن ليس هناك أي أثر لطريق يفضي إلى الأمام ، وإذا أراد أن يضمن مساره فإن عليه أن يبقي مسار العاصفة التي تكون أشبه بالدورانية في أثناء الدوامة ، داخل ساحة رؤيته الخلفية . إذا لم يلذ بالفرار ، فإنه محكوم بأن يعاد قسراً الى داخل الفردوس - إنه أمر لم يتخيله حتى بنيامين لأن عاصفته لم تكن تورنادو (اعصاراً قمعياً - زوبعة خاصة) . إن الفردوس حياة إذا كنتَ خارجاً منه ، ولكنه موت حين يتعين عليك أن تعود إليه . لذا فإن ما يحتاج إليه ملاك التاريخ لا يعدو كونه مرآة خلفية . إن الرأي القائم على نوع من نقد التاريخ يثبِّت عقلَ المرء على مثل هذا التركيب أو الحل .(٨٧)

سيعذرني القراء إذا لم أفسد استمتاعهم بنقد هذه الأسطر . قد يكفي أن نشير إلى أن المؤلف طرح ، بعد ذلك ، أطروحة «الطريق» الألماني «الخاص» (Sonderweg) لتحليق الملاك تحليقاً ابداعياً نشطاً الى قلب المستقبل - أي البديل النقدي المعادي لبروسيا لنظرية التحديث(٨٨) .

---

(٨٧) زونمان ، ص : ٢٧٧ .

(٨٨) مؤخراً ، في سياق جدل المؤرخين ، خاض معركة كلامية ضد وجهة نظر هابرماس -

كانت ضرورة أن يتوجه ملاك التاريخ نحو المستقبل هي وجهة نظر المعارضة الماركسية الجديدة أيضاً ، قبل أن يتعكر أفقها بالغوص فيما بعد التاريخ . وفي السبعينيات بدأت الشريحة الأكثر حساسية من المثقفين الماركسيين في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، لدى ملامستها لحدود المستقبل القابل للتحقيق ، تحس بأن الفعل الاجتماعي العقلاني مستحيل وتنقش أشباح الماضي وظلاله في تاريخ حياتها .(٨٩) ربما كان الكاتب المسرحي هاينر مولر الأكثرَ وضوحاً في مجال إرجاع تجميد آفاق المستقبل داخل قوالب «الاشتراكية الموجودة فعلاً» إلى التاريخ القومي ، وتثبيت التناقضات بين التقاليد والفعل في صور بيانية مابعد تاريخية . ففي هذه الأثناء تكشف الفعل ذو المعنى عن أنه محاط بالموت ، «تكشفت النجاة عن كونها نوعاً من أنواع خيانة الموتى»(٩٠) . أما أمل بنيامين المعقود على أن

.القائمة على أن الانفتاح غير المتحفظ للجمهورية الاتحادية على ثقافة الغرب السياسية شكل «انجازاً فكرياً عظيماً في فترة ما بعد الحرب التي نعيشها .» أنظر زونمان ، «التاريخ كهروب من التاريخ» في كريستوف نوركه (ناشراً) . «آفاق النظرية النقدية» لوبنبورغ ١٩٨٨ ، ص : ٣٤١ ، حيث يشير - عبر مرآة خلفية باذخة على ما يبدو إلى هانس - اورليخ .فيهلر مؤرخاً نفسياً لفه صمت الجمهور حاول ، على الأقل ، أن «يبدأ» بنوع من أنواع اعادة تقويم الماضي .

(٨٩) حتى في سنوات ذوبان الجليد خلال عقد الخمسينات ، كانت فكرة التقدم المعززة بالقيامة تشكل أكبر العقبات على طريق تلقي بنيامين في جمهورية ألمانيا الديمقراطية . ففي مقال رئيس عن بنيامين ، على افتقاره إلى العمق والدقة ، خرج هانس هاينز هولز من المسألة متجاهلاً ، ببساطة ، التأمل التاسم ومغطياً ملاك التاريخ بنصف جملة : «كان بنيامين هو الآخر ضد الايمان المتأنق بالتقدم» . «التفكير الموشوري ، حول فالتر بنيامين بمناسبة نشر مؤلفاته المختارة» «العقل والشك» ، ١٩٧٦/٨ ، ص : ٥٤٤ .

(٩٠) رولف غونتر رينَّر ، «الوضع ما بعد الحداثي» ، ص : ٣٢٧ .

الفعل التاريخي قد يزدهر بفضل توقعات مدفونة في الماضي فلم يعد له ما يسنده في التاريخ كما بدا ، بطريقة تكاد أن تكون منهجية ، مخنوقاً . قبل بعض الوقت ، في سياق إعادة نشر مقتطف بريخت بعنوان «رحلات إله الحظ»(٩١) ، كان مولر قد استخدم صورة «ملاك بلا حظ» البيانية لصالح قراءة معاصرة لبنيامين ، أعاد نشرها بصورة منفصلة عام ١٩٨٢ .

إن الماضي مجلي خلفه ، والأنقاض تنهال كالمطر على جناحيه وكتفيه ، مع هدير قرع الطبول الجنائزية . في الوقت نفسه يتراكم المستقبل أمامه ، يضغط على عينيه ويُقْحِمهما في محجريهما ، يفجر حدقتي العينين مثل حجر ، يقلب كلماته الى حركة فم شوهاء أشبه بالتقيوء ، يخنقه بأنفاسه هو . لبرهة اضافية من الوقت يمكن أن تستمر في رؤية خفقات جناحيه ، في سماع جلبة الصخور وهي تنهال وراءه ، وفي ادراك حركاته العامة اللامجدية وهي تغدو أكثر صخباً وأشد عنفاً ، وإنْ أبطأ أيضاً ، بين الحين والآخر . وبعدئذ تنطبق اللحظة عليه . وعند محطة الوقوف المدفونة الصمّاء ، يجد الملاك البائس راحته ، ويروح ينتظر التاريخ في تحجر أنفاس حلم الطيران ، إلى أن تنتشر الأصوات المتجددة للأجنحة الخافقة بقوة في موجات متلاحقة مخترقة الحجر وتعلن أنه يطير .(٩٢)

---

(٩١) «رحلات إله الحظ» . لم يُنشر من هذا المؤلف الذي بدأه بريخت عام ١٩٤١ واستمر به خلال سني الحرب سوى عدد قليل من الأغاني . لا يمكن ، بالتالي تقرير ما إذا كان لـ (ملاك) مولر (البائس) أي أصل بريختي . ولكن من المفيد أن نعرف الحقيقة لأن بريخت كان قد علم بمؤلف بنيامين (حول مفهوم التاريخ) قبيل شروعه بمشروعه المتفائل تفاؤلاً يائساً في لوس انجلوس . ممكن طبعاً أن تكون هذه مساهمة مولر بالذات ، عقب نشر مؤلفات بنيامين المختارة في ١٩٥٥ .

(٩٢) هاينر مولر ، «إله الحظ» ، الاعمال المسرحية ، برلين الغربية ١٩٨٦ ، ص : ١٨ . كتب النص في ١٩٥٨ وورد في مولر ، روتفليش ، برلين الغربية ١٩٨٢ ، ص : ٨٧ .

من الواضح أن ملاك مولر أكثر انشداداً الى الأسفل بما لا يقاس من ملاك بنيامين الذي يلمح اليه . فأنقاض التاريخ لا تتراكم عند قدميه بل دفنته فعلاً ؛ وبدلاً من السعي الى انقاذ أولئك الذين تعرضوا للسحق ، فإنه هو نفسه يمثل الديالكتيك التاريخي للتقدم متوقفاً تماماً . ومع ذلك فإنه يبادر إلى تحريك جناحيه ثانية وهو تحت الأنقاض . في إطار ستالينية متأخرة غير مستعدة للتسليم بأنها انتهت ، يتعين على ذلك أن يكون التعبير عن تفاؤل يائس لم يستطع التخلي عن التماهي مع التفوق المعلمن . غير أنه ، مع حلول أواخر الثمانينيات ، بدا الأمر لمفسري مولر كما لو كان أحد تشخيصات ما بعد التاريخ ، فراحوا يبلغون الملاك بأن خلاصه كامن في التوقف الكامل الذي أزاحه الى خارج دائرة التاريخ .(٩٣)

كثيراً ما أكد هابرماس على التقدم الاجتماعي الكامن في «الحريات المماسسة» وفي «نمط من الحياة الجماعية يخلو نسبياً من الصراع» في الجمهورية الاتحادية(٩٤) . وهنا بالذات يرى الفرق الرئيس الذي يفصله عن الفرضيات الأساسية الواردة في ديالكتيك التنوير ، حيث «حقق العقل الغائي هيمنته كاملة حتى لم يعد ثمة في الحقيقة أي مخرج من منظومة أوهام كلية شاملة ، لا يتم بلوغ الرؤيا فيها إلا عبر ومضات تصدر عن أفراد منعزلين» . ومن الجهة الثانية ثمة كثرة من الأعراض البادية على مجتمع

---

(٩٣) انظر رينر ، ص : ٣٢٧ . ولكن جورج ويفهاوس يبدي قَدْراً أكبر من التحفظ في «هاينر مولر» ميونيخ ١٩٨١ ، ص ٨٣ .

٩٤- «التجربة السياسية وتجديد النظرية الماركسية» مقابلة جرت في ١٩٧٩ مع ديتليف هورستر ووليام فان راين ، تمت إعادة نشرها في بيتر ديوز (ناشراً) ، «هابرماس : الاستقلال الذاتي والتضامن» ، لندن ١٩٨٦ ، ص/ ٧٩ . لمعرفة السياق انظر هيلموت دوبيك ، «النظرية النقدية والمجتمع ، اعادة تشكيل تمهيدية منذ البدايات في حلقة هوركهايمر حتى هابرماس» ، فاينهايم ميونيخ ١٩٨٨ ، ص : ٨٧ .

ألمانيا الغربية «ترعبه» و «يقتنم تماماً على صعيد الحدس بأن شيئاً في هذا النظام مفقود بعمق» يقلقه التناقض ، يتسبب «بقدر من التأرجح» في عمله النظري(٩٥) . وكما لو أن هذا التأرجح كان هونفسه مقيداً ، فقد استخدم صورة آلة طائرة غير قابلة للخدمة المجازية في ١٩٨٠ للتعبير عن نواة همومه المعرفية ، عند نهاية طريق بدأ «على حافة ما بعد التاريخ»(٩٦) وقاده عبر المادية التاريخية الى «نظرية الفعل القائم على التواصل» : (Theory of communicative action) . إنها صورة جميلة ولطيفة ولكنها حزينة .

إن المشكلة التي برزت بقدر أكبر من الوضوح في السبعينيات والتي أرادت نزعة محافظ ، جديدة صريحة قمعها وكبتها بأقصى سرعة ممكنة ، هي التالية : كيف يمكن فتح الميادين المتخصصة المغلقة للعلوم والأخلاق والفنون وربطها بالتقاليد المفقرة لعالم الحياة بدون أن تفقد معناها المميز الهش أو سريم العطب ، بالطريقة التي تتآلف بها لحظات العقل المنفصلة من جديد في ممارسة التواصل في الحياة اليومية ؟ وكما أرى اليوم فإن الدور التفسيري المتركز على عالم الحياة للفلسفة هو أن يساعد على إعادة حفز التفاعل فيما بين ما هو معرفي ـ غائي مع ما هو أخلاقي ـ عملي ، وما هو جمالي ـ

٩٥ـ المصدر السابق ، ص : ٧٨ ـ ٧٩ . هابرماس ، «تشابك الاسطورة والتنوير : اعادة قراءة ديالكتيك التنوير» ، نيو جيرمان كريتيك ٣٥ (١٩٨٥) .

٩٦ـ في «رعاية الوعي أو النقد المنقذ» ، ص : ١٢١ ، لم يستطم هابرماس إلا أن يشك بـ «أن تحرراً بلا سعادة يفتقر الى الاكتمال قد لا يكون ممكناً مثله تماماً مثل الازدهار النسبي بدون استئصال القمع والاضطهاد . ليست هذه مسألة تخلو من المخاطر ؛ غير انها ليست عديمة المعنى كلياً أيضاً ونحن عند حافة مابعد التاريخ حيث البنى الرمزية مستهلكة ، ضامرة وممزّاة من وظائفها الضرورية .»

تعبيري ، وهو التفاعل المتوقف بجمود مثل جسم متحرك معلق بكلاّب .

إن الكلاّب مثبت تثبيتاً جيداً الى حد ما بطبيعة الحال . فاشكال حياة المجتمعات الرأسمالية المحدَّثة التي لا تقدم الاشتراكية البيرقراطية إلا نسخة أقل جاذبية عنها مشوهة مرتين : جراء عملية نسف مصداقية جوهر التراث التي يستحيل إيقافها من جهة ، وتحت تاثير الاذلال الناجم عن ضرورات ذات عقلانية أحادية الجانب محصورة بما هو معرفي - غائي(٩٧) ، من جهة ثانية .

ليس ثمة مزيد من الكلام عن العاصفة ؛ يبدو أنها أرهقت نفسها بفرط هبوبها أو أن النافذة أُغلِقت . غير أن التفاعل بات مضطرباً ، ورام الكاتب يعاني من صعوبات استعادة التوازن بين عناصره . من المؤكد أن فهم السبب الكامن وراء تعرض هذه الآلة الجمالية التي تحافظ على مظاهر الطيران أمام العقل للاعتقال والتوقف - مع سبب تسمية ما تم تثبيتها عليه باسم الكلاّب - أمر بالغ الصعوبة . ربما جاءت نتيجة أخرى من ثمار هذه الصورة المجازية الكاملة القائمة على الحركة الثابتة واقتحمت الكاتب في أثناء الكتابة : أي أن الجسم المتحرك كان معلقاً على كلاّب ، وأن ما كان يتدلى منه لم يكن موجوداً في اللوحة .

٩٧- يورغن هابرماس ، «شخصيات فلسفية - سياسية» ، طبعة موسعة ، فرانكفورت/م ١٩٨٧ ، ص : ١٢ .

ذوبان التاريخ وانحلاله

الفصل السابع

مازلنا هنا ، دائبين على التحرك بموجب شعارات أخذناها من القرن التاسع عشر ، على غربلة الأمور ونَخْلها ، وعلى التصارع مع اجهادنا العصبي الأكبر . نعلم أن ذلك ليس ما نعيش ، ونستطيع أن نموت ، من أجله وفي سبيله . سوف يُهْدَر دمُنا ولكنّ أحداً لن يكشف لنا عن السبب .

كريستا وولف (١٩٧٩) : لا مكان على الأرض

آ ــ تراث تاريخ الخلاص

ثمة ثلاثة جوانب من التاريخ مضمومة بأسلوب فريد في الثقافة اليهودية ـ المسيحية (التوراتية) . فالأسطورة الأصل (تاريخ الخلق) تستطيل لتتحول الى بنيان زماني للعالم الذي يحتضن تطلُّم المؤمن بأمل الى الافتداء والخلاص (تاريخ الخلاص) ، بما يجعل قُرْبَ موعد حصول الخلاص والحكم مضموناً أو معلناً عبر أنْسَنَة الإله والسماء . وهكذا فإن التراث الديني في الغرب يعتبر فَهْم العالم كتاريخ فهماً مفعماً بآمال تخص الخلاص الفردي وبالتماهي بين الله والانسان بوصفه المنعطف الحاسم . غير أن عِلْماً تجريبياً عن مسار العالم تطوّرَ من أسلاف ينتمون الى العصور القديمة ، داخل هذا الاطار . تركز هدف هذا العِلْم على حماية التراث فيما هو خاص (بما فيه جملة الأحداث والأفعال الاستثنائية) وعلى توفير تقويم معياري لحالات أو أوضاع دائبة على التكرر .

ومثل هذا الاحتفاظ بتفكير تاريخي وقياسي في اطار تاريخ الخلاص انتهى ، بالضرورة ، بأزمة . فسرعان ما بات واضحاً أن هناك أسباباً دنيوية قادرة على تغيير شروط الوجود الأساسية وإبعادها عن دورية الطبيعة . ما انْ فَجَّرت المكتشفات الجديدة حدود العالم ، وما انْ قامت التجارة ، التكنولوجيا والعلاقات المهيكلة للسلطة بتحرير جزء من المجتمع من العلاقات المباشرة بسياقات الطبيعة ، حتى بات نقل عناصر من تفسير كلي للعالم عن ملكوت تاريخ الخلاص إلى ملكوت التجربة المنتجة للعلم أمراً وارداً . وفي الوقت نفسه باتت الثانية (التجربة المُنتِجة للعلم) أكثر ميلاً باضطراد إلى أن تروز ذاتها في ضوء شمولية الأول (تاريخ الخلاص) ومضمونه الذي يحمل معنى . بعبارة أخرى ، كان لابد من أن يخرج من رحم التواريخ المتباينة التي مكنت البشر من الاتفاق حول أصول ومؤسسات جماعتهم واعتماد تجربة ملائمة لصالح استمرار الوجود ، تاريخٌ كوني شامل ، تاريخ ذو أفق من شأنه أن يوفر فهماً للكون يمكنه أن يحل محل النظرة الدينية الى العالم .

١ـ ثمة جهد أولي مبذول لفهم هذه السيرورة نجده عند كارل لويث ، «التاريخ العالمي والخلاص : المقدمات اللاهوتية لفلسفة التاريخ» ، شتوتغارت ١٩٥٢ . انظر أيضاً راينهارت كوسيليك «ماضي المستقبل : حول دلالات الزمن التاريخي» ، كامبرج ، ماس ١٩٨٥ ؛ جاكوب توب يتابع تأثير الفكر اليهودي عن القيامة حتى فلسفة القرن التاسع عشر في «فلسفة الخلاص الغربية» ، بيرن ١٩٤٧ . ومن الدائرة المتأثرة بكارل شميدت وأرنولد غيهلن انظر كستينغ «فلسفة التاريخ والحرب الأهلية العالمية» ، وكوسيليك ، «النقد والأزمة : التنوير وأصل عِلّة المجتمع الحديث» ، اوكسفورد ١٩٨٨ ؛ ومن وجهة نظر الوضعية كارل بوبر ، «بؤس النزعة التاريخية» ، لندن ١٩٥٧ . أما تركة مدرسة فرانكفورت فقد عبر عنها كل من هوركهايمر وأدورنو في «ديالكتيك التنوير» و«الماركسية الجديدة» التي نجدها في هنري لوفيفر ، «نهاية التاريخ» ، باريس ١٩٧٠ .

حلت اللحظة الحاسمة في هذا المسار حين باتت امكانية المطالبة بجعل الجانب التاريخي من النزعة القائمة على الخلاص داخل دائرة المسؤولية البشرية متوفرة ، فضلاً عن ضرورة بقاء الدين محصوراً بالعلاقة بين الله والروح المنفردة . وفي هذا المجال قامت حركة الاصلاح الديني بارساء القاعدة الأساس ، فيما قامت حركة التنوير برفع الأمر الى مستوى الفكر (فيما يمكن أن يعرف بـ «العصر المحوري») وراحت تعيد بناء المجال الاجتماعي من خلال الثورات السياسية والتكنولوجية ـ الصناعية .

إن اقتحام الدعاوى العلمية لملكوت الدين أفرز أعمالاً وانجازات فكرية بالغة الأهمية حقاً ، لانها كانت مُلْزَمة بان تتفوق على سلطان الأسطورة والخرافة . لقد كان ذلك هو العصر البطولي بالنسبة للانتليجنسيا ، العصر الذي لم تتوقف أبعاده قط عن غرس نوع من الحنين الماضوي في نفوس الطبقات الوسطى المتعلمة وبين جنبات منتجي الثقافة . كان العقل ينضح قوة وسلطاناً . ففي الفترة التي كانت البرجوازية المتعلمة المثقفة تحقق فيها فتحاً بعد آخر ، كانتْ مزاعمها تنغرس كالأوتاد الثابتة في مجالات تم انتزاعها عنوة من تاريخ الخلاص ، عبر منظومات فكرية أدركت العالم ككل موحد ، أرادت أن تبني صرحه وراثياً من الأساس ، وملأته بمعنى يربط مساعي الفرد بتطور العالم . حقاً ، كان لأنجح هذه المشروعات تأثير لا يمكن فصله عن تطور المجتمع البرجوازي في القرنين التاسع عشر والعشرين . فالمنظِّرون اللاحقون جميعاً وقفوا على أكتاف عمالقة حقيقيين مثل كانت Kant ، هيغل وماركس ، الذين شكلت انجازاتهم البروميثوسية ردوداً على التحديات العملاقة التي انطوت عليها عملية إحلال العقل محل الخرافة . إلا أن عملية الاستبدال التاريخية العالمية هذه بقيت ، مع ذلك ، وثيقة الارتباط ، ومقيدة بشكل مقلوب من أشكال الأسطورة أو الخرافة . وتد تجلى هذا باوضح صُوَرِه في واقع أن فلسفة التاريخ المبكرة ما لبثت أن انغمست في

التفكير بنهاية ما للتاريخ . فجرياً على تقاليد الآمال السابقة المعلقة على الـ «ماوراء» جرى اعتبار التاريخ قادراً على جلب السلام الأبدي ، أو الروح قادرة على التصالح مع ذاتها ، أو المجتمع قادراً على أن يعيش بدون استغلال أو تغريب .

لم يكن استكمال استعراض مجمل تاريخ العالم ، وخصوصاً كشف النقاب عن مبادئ حركته ، ممكناً إلا عبر اختزالية مفرطة وعدد من الافتراضات بالغة الفجاجة . وعلى الأخص لم يكن اشباع افتراض المعنى ممكناً إلا طوال إبقاء سماته الأساسية قادرة على اقتحام التاريخ . ومع ذلك فان فلسفة التاريخ المبكرة اكتسبت قدراً ملموساً من المشروعية التي عززت مطالبات العلم بالقيادة السياسية والآمال المعقودة على استبدال الآخرة (العالم الآخر ، الماوراء) بما يوازيها هنا على الأرض . شكل هذا التخلي عن التواضع تناقضاً حاداً مع الغنى التجريبي لسائر الثقافات القديمة كلها .غير أن عملية اطلاق القوى المنتجة التي كانت قد أتاحت فرصة دَحْرَجة الدين الى الوراء بالذات حَفَزَتْ ذلك التخلي عن التواضع الذي عَزَّزَ توسع المدنية الجديدة وانتشارها . بعبارة أخرى ، أصبح معنى التقدم المحدد غائياً والمدعَّم تاريخياً زَيْتَ محرك الديناميك الاجتماعي ـ لأنه مَنَح الظافرين راحة الضمير والخاسرين قليلاً من الأمل .

ولكن الأمر لم يدم إلا فترة معيَّنة من الوقت . ما لبثت فلسفة التاريخ ان استهلكت نَفْسَها في عالم الواقع . فالاهتمام التجريبي بالتاريخ ، ذلك الاهتمام الذي كانت هي نفسها قد حَفَزَتْه وأثارته ، أظهر أن هذا كان متسماً بقَدْر مفرط من العرضية والتمايز مما يجعله عاجزاً عن انجاب أية استنتاجات جليلة أو آفاق شاملة اجمالية . وقبل كل شيء لم يفض مسار التقدم في المجتمع نفسه الى الأهداف المتنبا بها والمتمثلة بالأخوّة ،

بالسلام الأبدي ، بالحرية المكتفية ذاتياً ، براحة النفس والروح وبامبراطورية غارقة في بحر الجمال ، كما أن تلك الثورة الاجتماعية التي ظُنت قادرة على تلبية حاجات الفرد والمجموع لم تتحقق . كانت العقول الأشد حساسية بالتحديد هي التي بادرت قبيل نهاية القرن التاسع عشر الى تشخيص مجتمع يقوم على بُنى وأجهزة تزداد تحجراً وجموداً ـ مجتمع تحركه قوة الالزام والقسر من أجل تكبيل حيوية البرجوازية وذكائها بقيود اقتصادية وبيرقراطية ، وفي سبيل نشر حالة البروليتاريا التي لم يتخفف بؤسها إلا من خلال جيوب صغيرة لتشمل العالم من أقصاه إلى أقصاه . لم يبق الأسياد أسياداً ، ولكن العبيد ظلوا عبيداً .

بدا الحل كامناً في رفض فكرة وجود مسار حتمي أو ضروري للتاريخ ، مسار نستطيع استجلاءه وفهمه وصولاً الى تسريعه عن طريق عكسه ومواكبته . إذا كان الله قد مات ، فما من سبب يدعو الى نقل التواضع الملازم له الى التاريخ ، فالانسان يستطيع أن يتحرر تماماً ويفرض عليه (على التاريخ) أهداف ارادة القوة ، هذه الأهداف التي كان الناس قد تبنوا تاريخ الخلاص في سبيلها . بالنسبة للنزعة الفردية البرجوازية قد ينطوي هذا ـ كما كانت حاله مع نيتشه ـ على تدمير التاريخ في عودة أبدية الى الشيء نفسه ، بما يفضي الى استبدال معناه المتاصل بمزاعم القيادة أو بالجمالية المتنافرة مع المجتمع لدى الشخصية العظيمة . وعلى المستويات القريبة أو المباشرة ثمة تجديد للحيوية يمكن التماسه عبر العنف السوريلي (نسبة الى جورج سوريل ، ١٨٤٧ ـ ١٩٢٢ ، وهو مفكر فرنسي تأثرت الفاشية والنازية ببعض آرائه) ، محمولاً سياسياً عبر جسر الأمة ، بما يتيح فرصة اجترام طريق ثالث بين «رأس المال» و «العمل» . وفي ظل البروليتاريا ، حسب رأي لينين ، يمكن جعل قوانين التاريخ ، التي لم تكف وحدها وبحد ذاتها ، تسود وتطغى من خلال التنظيم الجماعي

للسلطة في أجهزة حزبية ممركزة . وفي الحالين كليهما بقيت البرامج المتجاوبة مع هذه المقاربات الطوعية الإرادوية ظاهرة تخص الأقلية فيما قبل الحرب العالمية الأولى ، ولكنها ما لبثت ، بفضل تجربة الحرب ، أن اكتسبت قاعدة جماهيرية وتطورت فيما بعد الى قوى ديناميكية فاعلة تلتمس التحقق في السعي الى أهداف أسبغت فلسفة التاريخ عليها صفة المشروعية (أهداف من قبيل جعل القيادة بأيدي فئات نخبوية مثقفة ، تحقق عظمة الأمة ؛ أو بلوغ مجتمع بلا طبقات ، وعلى الصعيد العالمي إن أمكن) . اتسم كل المؤلفين الذين صاغوا رؤى ما بعد تاريخية منذ الحرب العالمية الثانية بمثل هذه الأشكال من إعادة التجميع أو التوليف .

نستطيع أن نعرض هذا الاكتشاف الأول بعبارات أعم . فالتاريخ الذي يفترض أن ينتهي مع ما بعد التاريخ إنْ هو إلا بنيان نظري عن مسار العالم ككل . يتألف لبُّ هذا البنيان من تعميم المعرفة التجريبية عن الواقع (عن الأحداث السابقة ، طبيعة البشر ، آلية حركة السيرورات الهيكلية) بما يضمن عدم تضاربها ، بل وحتى تساندها ، مع وضع هدف شامل . ونظراً لأن هذه المعرفة التجريبية تفوق قدرات الفرد على الفهم ، فانها ، أساساً ، مسألة تفسير انتقائي ، وفقاً لمعايير مستمدة آخر المطاف ، من أطروحات تأملية ومعيارية عن المستقبل . وطالما بقيت البشرية متمتعة بنعمة الحرية فإن من شأن التفسير أن يغازل رغبتها في القيام ، عن طريق الفعل ، بتغيير الاتجاهات المتصورة للتاريخ . واذا لم يتكلل مثل هذا الفعل بالنجاح ، أو أثبت أنه فعل كارثي أو إجرامي صارخ ، فإن التفسير (أو الإغراء) أو الحرية يصبح موضع مساءلة ومثار جدل . والاحتمال الثاني هو الأقرب الى نمط التفسير الفعال .

ب ـ ارادة العجز (اللاقوة)

ليس مابعد التاريخ نظرية متطورة ؛ إنه أقرب الى نوع عرضي (نسبة الى أعراض) من الحساسية . فالكلمة نفسها رمز مراوغ يدل على مزاج معين ولكنه يفترض مسبقاً أن يكون التاريخ منطوياً على أشياء كثيرة . إن ما بعد التاريخ ، إذن ، يروز نفسه بميزان ما لدى فلسفة التاريخ الكلاسيكية من نزوع هائل لأن يكون ذا توجه محدد ، ويحاول أن يحدث انعطافاً ارادوياً من شأنه ، عبر الإفادة من مصادر القوة والسلطة ، أن يبلغ ذلك المعنى والهدف اللذين لم يعودا موجودين في الواقع التاريخي . غير أن مثل هذا الجمع بين الروح والقوة لا يتناظر مع ذلك الزواج الفاشل العام الذي يجمع العلم والفن يسلّمان بأن يصبحا أداة وحِلْية للحكام الموجودين . فالروح ، على النقيض من ذلك ، تحاول استنفار القوة وتوظيفها بين أعضاء ثوريين ينتمون الى الطبقات المتوسطة المتعلمة ، من أجل استخدامها لصالح خطتها هي ضد هيكليات السلطة في المجتمع . يكون التمرد الحاصل قبل صدع انعدام المعنى مستمداً من الوعي المتناقض المتضمن في دعاوى التحلي بعظمة الروح التي تخفق في التأثير على «وعي» الجماهير(٢) . غير أن روح الانحطاط البرجوازي هذه ، طالما بقيت

٢ـ ثمة عرض نموذجي من أعراض أزمة المعنى لدى مثقفي البرجوازية نجده في تطلعهم للقيام بدور شديد التسلط ، دور يقوم على اعادة برمجة النسق الذي رسمته فلسفة التاريخ . فالقطاع المحافظ من الانتجلنسيا يكشف بهذه الطريقة عن مدى نبله العقلي الأمر الذي يرفع المثقف البرجوازي الى ما فوق ركام المجتمع البرجوازي ويقوم ، زيفاً ، بالباسه الثوب الذي يليق بعظمة النظام القديم . ذلك هو الشكل السائد من السلوك بين منظري ما بعد التاريخ . ولكن حزب الحركة يرى نفسه حزب ارستقراطية السرعة ، حزب «الطليعة» ، الذي يعيش سلفاً مسيرة التاريخ ويحدد اتجاهات جديدة .

مصرة على التمرد ضد الهياكل الاجتماعية للسلطة ، بدلاً من أن تلوذ بالفرار منها لترتمي بين أحضان شكل من أشكال الوجود الجمالي ، تكون مضطرة الى التحالف مع آخرها ، أي مع الجماهير ، مما يعيدنا الى الفرضية الثالثة لما قبل التاريخ : أي الى فرضية أن هذا المشروع قد تعرض للانهيار .

لكل من المحاولة والاخفاق جانبان اثنان : ذاتي من جهة وموضوعي من الجهة الثانية ، نمط من ناحية وحالة أو شرط من ناحية ثانية . ليس من الصعب تحديد الإطار الزمني : إنه سنوات ما بعد الحرب ، وثمة موجة ثانية منذ السبعينيات على الضفة اليمنى ، تكون الحالة محددة بيوغرافياً (سيَرياً) بتجربة الفاشية وسقوطها السابقة ؛ أما على ضفة اليسار ، فتكون هذه الحالة محددة بالانسحاب من الأشكال المختلفة للشيوعية ، من الستالينية أولاً ومن مجموعات أصغر في ما بعد . غير أن ذلك ليس إلا عنصراً واحداً ، لأن المرء يُصدَم بالتركيبات غير الاعتيادية لمجموعة مؤلفينا . ففي السنوات اللاحقة أصبح جوفنيل عضواً في نادي روما ؛ كتب كارل شميدث عن تشي غيفارا ، خاض يونغر ثقافة المخدرات ؛ قام كوجييف بزيارة شميدث ، وتقدم دومان بمقتطفه من حياة اشتراكي أوربي إلى معهد الصناعة الألماني . لذا فإنني سأحاول التعرف بقدر أكبر من الدقة على السمات المميزة لعشرة من منظّري(٣) ما بعد التاريخ .

٣- سأقوم بتسمية أعضاء نواة هذا الجيل الأكبر حسب تسلسل تبنيهم لمنظور مابعد تاريخي : جوفنيل ، كوجييف ، يونغر ، دومان ، غيهلن ، فرير ، آندرس ، بودريار ، بروكنر ، وتوب . ثمة آخرون جديرون بأن يؤخذوا بنظر الاعتبار مثل غوتفريد بين ، هايدغر ، شيلسكي وكارل شميدث من جهة ، وأدورنو ، زايدنبيرغ ، براون ولوفيفر من الجهة المقابلة ، مع أتباع المدرسة ما بعد البنيوية الفرنسيين اضافة الى عدد من الفلاسفة والانتروبولوجيين الألمان الشباب بقدر أقل من المباشرة .

أردت للعبارة التي استخدمتها قبل قليل - أعني عبارة «أعضاء ثوريين ينتمون الى الطبقات المتوسطة المتعلمة» - أن تشكل نقيضاً وصفياً لأولئك المثقفين الثوريين الذين كرّسوا حياتهم لفترة طويلة لهذا التنظيم السياسي أو ذاك . في مجموعتنا كان دومان هو الوحيد المنتمي إلى هذا الصنف : فقد شغل مناصب معينة في الحزب الاشتراكي البلجيكي على امتداد عقد كامل من الزمن ، على الرغم من أنه كان استاذاً جامعياً أيضاً . ثمة خمسة آخرون على الأقل كانوا أعضاء في أحزاب جماهيرية راديكالية (ثورية ، متطرفة)» مثل : PCF, KPD, PPF, NSDAP ، دون أن يتحولوا الى كوادر بالمعنى الوجودي للعبارة . كان تورطهم في التنظيم إما قصير الأمد جداً (مثل رئاسة جوفنيل لتحرير جريدة حزب دوريو التي دامت عامين أو بالغ الهامشية كما في حالة مشاركة بودريار جنباً الى جنب مع آلتوسر في مركز بحث تابع للحزب الشيوعي الفرنسي ، أو محاولة غيهلن الرامية الى تنظيم أساتذة جامعة لايبزيغ لصالح الحزب النازي) . إن جميع مؤلفينا عاشوا على الأقل حياة برجوازية متوسطة - هايدغر وشميدث فقط ارتفعا الى ذلك المستوى من سوية أدنى(٤)- وكانوا متمتعين بمواهب فكرية عظيمة . لم يكونوا ميالين أو محكومين بالقدر لاحتراف السياسية - أسرع السلالم الاجتماعية ولكنها أخطرها أيضاً في القرن العشرين . سبعة من العشرة كانوا أساتذة جامعيين ؛ اثنان من الكتاب المشهورين ؛ وواحد أصبح فيما بعد موظفاً كبيراً . ولكن هذه المناصب لاتصفهم إلا خارجياً ؛ فالجميع كانوا ، أو ما زالوا ، جراء أمزجتهم واهتماماتهم ، مثقفين

---

٤ - قد يكون غياب أي موقع اجتماعي (مثل مهنة يونغر ككاتب) أحد الأسباب التي جعلت هذين يبدوان ، بأكبر قدر من الوضوح ، مطبوعين بالتصميم على اثبات استمرارية فكرهما ، وبفانتازيات مفاجئة عن العظمة يمكن وصفها بنوع من الضلال العميق المبرمج أو المُنَمَّط .

سياسيين ، جماهيريين ، رجالات أدب Hommes de lettres ، منتمين الى روح العصر من الداخل ، ونخبة باي من المعايير (وخصوصاً معاييرهم هم) .

خلال فترات مهمة من حياتهم انتسب حوالي نصف مجموعتنا إما الى اليسار المتطرف أو الى اليمين المتطرف ، بمعنى أن نشاطاتهم البرنامجية أو الدعائية كانت مرتبطة بقوى سياسية دائبة على تدريب الجماهير على الفعل من أجل تغيير النظام . غير أن مثل هذه التحالفات بين حلقات مثقفين من جهة ومنظمات كبرى توفر اتجاهاً سياسياً محدداً من جهة ثانية ظلت قصيرة العمر نموذجياً ، وكانت مفعمة بنوع من التوتر الاجتماعي - الثقافي . لدى ثمانية من المؤلفين العشرة يمكننا أن نلاحظ انقلاباً عفوياً بقدر أكبر أو أقل في مواقفهم السياسية الأساسية . من شأن ذلك ألا يكون لافتاً للنظر بصورة استثنائية نظراً للتقلبات الكثيرة التي عاشها تاريخ أوربا في القرن العشرين ، لولا أنهم تحدثوا أو تصرفوا لاحقاً كما لو كانوا قد ظلوا ثابتين على مواقفهم أو على جادة الصواب باستمرار . مع استثنائيين ، ولدوا جميعاً قبيل أو بعيد بداية القرن ، وعاشوا الى ما بعد السبعين من العمر ، بل ولفترة أطول بشكل ملفت للنظر بالنسبة للبعض . عاش أكثرهم أحداث حربين عالميتين مع ثلاثة منعطفات ثقافية ومنعطفين سياسيين على الأقل - أزماناً كانت تتغير بوتائر أسرع من أي وقت مضى . لذا فقد تعين عليهم أن يتغيروا معها ، اثنان على الأقل تأثرا ثقافياً وبعمق بالحرب العالمية الأولى . اضطر الأول الى ترك وطنه الروسي بسبب صورته الاجتماعية غير الملائمة على الرغم من تعاطفه مع ثورة اكتوبر . وترعرع الثاني خارج وطنه لأن أباه اضطر للهجرة كحاخام . ظل خمسة يتحركون ذهاباً وإياباً بين عدد من البلدان لأسباب مهنية وأخرى سياسية لا يمكن تمييزهما إحداهما عن الأخرى بوضوح على الدوام . اضطر أحدهم أن يهاجر من ألمانيا بوصفه يهودياً يسارياً ثم عاد الى النمسا في ١٩٥٠ . اثنان ممن عرفوا بأنهم أنصاف يهود - أحدهما سليل بيت شيوعي والآخر بعد فترة من

التورط مع الفاشية - بحثاً عن «الأمن بعيداً عن المسار المطروق(٥)» فَقَدَ خمسة وظائفهم لفترة من الزمن خلال الحرب العالمية الثانية ، كما أن أربعة اضطروا الى تغيير مكان اقامتهم . قِلّةٌ - وكلهم من اليمين : جوفنيك ، فرير ، غيهلن ، يونغر - كانت ناجحة في ظل كل الأنظمة ، شرط التساهل خلال فترة انتظار قصيرة . وعلى الرغم من أن الأكثرية حصلت على مناصب نخبوية محترمة الى هذا الحد أو ذاك بعد أوائل الخمسينيات ، فإن عدداً آخر واجه زمناً أصعب الى حد ما . فالشخصية اليسارية الأخيرة كانت كبش فداء في الأرض اليباب التي أعقبت «الخريف الألماني» - بصورة مخالفة للقانون كما حكمت المحاكم - ولم تتم إعادة الاعتبار إليها إلا قبيل موتها في ١٩٨٠ .

لو أمعنا النظر أكثر في بيانات سير الحياة والانتماءات المتقلبة ، لبدت الصورة أكثر اضطراباً وتشوشاً بما لا يقاس . فبيتر بروكنر الذي انتسب في شبابه الى التنظيم الاشتراكي القومي ، كان يعتبر نفسه شيوعياً ، لعب دوراً نشطاً في ألمانيا الشرقية بعد ١٩٤٥ ، انتقل الى الغرب وأصبح أحد قادة اليسار الجديد ، صار موضع شبهة كمؤسس لفرقة الجيش الأحمر ، وأكبّ على دراسة غيهلن ليجترح تشخيصاً للعالم المعاصر . هاكم مثالاً آخر : بدأ الليبرالي - اليساري المتطرف جوفنيك حياته داعية من دعاة التخطيط الاقتصادي ، أصبح فاشياً ، وربما عضواً في المقاومة ، بعد ذلك ، ليبرالياً يمينياً فيما بعد ، ومن دعاة الحفاظ على البيئة آخر المطاف . أما يونغر فقد اهتدى ، بدوره ، الى صيغة من صيغ المعارضة اليمينية - النخبوية للأنظمة كلها . أصبح فرير ، أحد أعضاء الحركة الشبابية الشعبوية اليمينية في العشرينيات ، «فوهرر السيوسيولوجيا الألمانية» عام ١٩٣٣ ، قام بحل التنظيم بعد عام دون أن يصل الى حد مقاطعة النظام ، لاذ بالمهجر خلال الحرب ، حافظ على كرسيه بلايبزيغ في منطقة الاحتلال السوفيتي ، ثم

٥- اشارة الى بيتر بروكنر ، «الهامش كملاذ آمن» ، انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

حـصل على منـصب فـخري في الـغرب وأصـبح عـضـو شـرف في الكليـة بمونتسـر . أما هندريان دومان ، وهومنظِّر اشتراكي طويل الباع ، فقد وجد نفسـه متـورطاً في مراسلات ودية مع موسوليني عام ١٩٣٠ . ثمة آخرون ينتمـون الى اليـسار مـثل آنـدرس ، كوجـيـيـف أوتوب ، وقـعـوا تحت تأثيـر هايدغـر أو أذعنوا «مع صراع» لكارل شـمـيـدث . كـان جان بـودريار ، ذلك الشيوعي البرجوازي صاحب «الاقتصاد السـياسي للرمز» ، بعد فترة قصيرة ، يسـخر من «يـسار السـمـاء» وينحني بحـماس أمام نيتشـه الذي كـان أستـاذه السابق هنري لوفيفـر ـ صاحب الثقافة الكاثوليكية ، المـاركسي النشيط جداً والمطرود من الحزب الشـيـوعي الـفرنـسي في ١٩٥٦ ـ قـد كـتب عنه كـتـاباً تقـويمياً خلال فـترة الجـبـهة الشـعبـية . وثمـة بعـد ذلك رجعي مـتردد مـثل غيـهلن قام ، بعـد فتـرة شعبوية مبكِّرة ومنصـب وزارة الداخليـة في الرايخ الثـالث ، باطراء ثبات جـمـيـع المؤسـسات التـسلطية مدبِّجاً فـيـضاً دائماً من المقـالات بغيـة إثبات وجـوده على جبـهة القتـال ضد اليـسار ، ضـد الجماهير البـاعـثة على الـقرف ، وضـد روح العـصـر . على الرغم من أن الرجل كـان من كوادر الحـزب النازي ، فقـد أصبح مع حلول عـام ١٩٤٧ استـاذاً جـامعـياً يدرِّس كبـار المسؤولين في المـنطقة الخاضـعة للاحتـلال الفرنسي : غيَّر اختصـاصه ثلاث مرات وكـان شديد الحرص الدائم على التعليق على الفن الحديث الذي ظل يُمطِره بقَـدْر هائل من اللـعنات المـريرة . كـان خـطُّ حـيـاتـه مـا يـمكن تحديده بخط ـ حياة مستقيم!

ليست هذه الانقطاعـات والتـوترات في سبَـر حيـوات مـؤلفـينا أمـثلة عـشوائـية عن فـوضى الـقرن العـشرين . كمـا لا يمكن ، في مـعظم الأحـوال ، تفـسيـر الـتـغيـيـر الواضح غـالبـاً في المـوقف بمـجـرد فـائـض الطاقـة لدى «المرتـد» . لم يكن هؤلاء مـجـرد دُمى يتـلاعـب بهـا التاريخ ، كـمـا لـم يحـاولوا حمـاية العالم مـن خطأ أساليـبهم . بالفـعل تابعوا انتـاجهم الـثـقافي ، كـما لو كـان الأمـر مسـألة اثبات أن ذكـاءهم لم يكن معـتمـداً على أي نظام(٦) . إما أن

الكتابة خلت من أي تحليل ذاتي يتناول سيرة الحياة (غيهلن وهايدغر) ، أو بعيدة عن التاريخ جراء تبني تفسير وتعزيز ذاتيين من منظور جملة من المبادئ الأساسية (كوجييف وهايدغر مرة أخرى) . وإلاّ ، كما في حال يونغر ودومان ، فإن السيرة الذاتية كانت تتعرض باستمرار لاعادة الكتابة حتى وصلت الى مستوى الاضطراد الشخصي الموازي لنوع من اعلان الاستقلال عن المجتمع .

لم يكن هؤلاء ، خلافاً لحال معظم الضحايا المجهولين لكل من الدكتاتورية والحرب ، مجرد دمى ، بالفعل . لقد راهنوا على تيارات متطرفة تحت شعار «إن لـ التاريخ معنى ذا شأن» ، موظِّفين أقلامهم وأسماءهم ومشوراتهم لخدمة أغراضها . حتى تصورهم النخبوي لأنفسهم لم يكن هو الآخر مجرد وهم ، لأنهم كانوا يتمتعون بقسط من السلطة الثقافية الموضوعة تحت تصرفهم . فالجانب الخيالي لأوهام العظمة كان يشير الى ممارستهم ـ الى الفكرة التي تقول بامكانية قيادة الجماهير والأجهزة ، على حد سواء ،وإبقائها بعيدة في الوقت نفسه . أصبح هذا واضحاً بجلاء على الأقل ، حين انتقلت التزاماتهم السياسية المتطرفة جراء البحث عن معنى ما ، من المعارضة الصريحة الى نوع مفعم بالاستياء والحسد من الارتباط

٦ـ لا تنطبق هذه الملاحظات إلا على أولئك المؤلّفين الذين كانوا على علاقة مع جماعات سياسية متطرفة وصلت الى الحكم ، أو أولئك الذين كانت اشكالية التعامل أو الأممية الشيوعية قد ورَّطتْهم بصورة غير مباشرة مع أنظمة حكم دكتاتورية فاشية أو ستالينية . زد على ذلك أن أولئك الذين كانوا منتمين الى حركات معارضة لم تصل الى الحكم قط (أندرس ، توب ، وبروكنر في المراحل الأخيرة من حياته) . لم يبدوا ذلك التصلب الدفاعي الذي رأيناه في أعمال الآخرين وسير حياتهم . ولكن من شأن الأمر أن يقود بالمثل الى تبني نوع من أنواع منظور ما بعد التاريخ طالما أن كأس الاخفاق السياسي تم تجرُّعها بوصفها خيبة أمل بعجز الجماهير عن الحركة وبالتحاقها بركب السلطة .

بنظام راسخ الأقدام . فالحاجة الى القبول بالمساومة في الخصوصيات لم تكن واردة في عظمة مشروعهم الأصلي الجليل . ولكن المجابهات مع قوة الجهاز ما لبثت أن جرحت كرامة حملة المعنى هؤلاء جرحاً بليغاً حتى بدا المعنى كله متعرضاً للضياع . فبدلاً من قيادة التحالف بين العقل البرجوازي والجماهير ، باتوا يشعرون بأنهم ليسوا إلا ديكورات (زينات) (شراشيب خرج) معلّقة على تحالف معين بين السلطة والجماهير .

بما يتناسب مع احترامهم لأنفسهم ومع فرص البقاء على قيد الحياة ، قاد هذا الوعي الى نوع من أنواع الانسحاب من ميدان التاريخ . جرى التعويض عن الهزيمة العملية بالانتاج الفكري الثقافي الذي اعتمد على الموارد المأخوذة من «ماقبل» وحاول أن ينقذهم من الشك حول أنهم كانوا مسؤولين عن الهزيمة كما من عواقب التحالف الشائه . ثمة تدابير دفاعية ضد هذا الشك الذي شكل تهديداً عميقاً للفهم الذاتي لمقولة القيادة الثقافية ، حالت دون أي نقاش ملموس حول انخراط الكاتب وتجربته التاريخية . إذ حل محل الشك تشخيص قائم على تبرئة الذات للعالم الخارجي . أما التحالف بين الجماهير والسلطة ، على الأساس النظري للهيمنة التكنولوجية على الطبيعة ، فقد بات الآن يعتبر متطوراً الى منظومة ذاتية القيادة تقوم ، باختلافات هامشية على صعيد التعبير السياسي ، بإدارة العالم كله تقريباً وبإعادة انتاج نفسها بصورة دائمة رغم الحروب والتغييرات الثورية كلها . وهذه المنظومة الثانية ، التي لم تكن بحاجة الى أي تفكير جديد ولا مستعدة للسماح به ، دابت على أن تنأى بنفسها عن الطبيعة ، عن امكانية التعلم من الواقع ، عن الزمن كنسق ذي معنى من أنساق التطور ، وعن تدخل كائن من كان من الأفراد . فحرية الفرد لم تعد قادرة على الارتباط ارتباطاً ذا معنى بمجمل مسار الأحداث ، بل راحت ، وفي أحسن الأحوال ، تؤكد ذاتها في المحاريب ، في الذكريات الوهمية ، في الأسطورة ، في اطار «كما لو» .

جـ ـ التاريخ وما بعد التاريخ

يقوم تفسيري لأصل مفهوم ما بعد التاريخ ، بوصفه شكلاً من أشكال تبرئة الذات الاسقاطية ، على قراءة لهؤلاء المؤلفين تغوص الى الأعماق . إنها تقوم بتجميم قطع فسيفسائية تشير الى فقدان معنى الفكر التاريخي . إنها تغوص في العمق حيث يشير الكتاب أو المؤلفون الى العالم الخارجي . غير أننا ، اذا جرّدنا المفهوم من فائضه الدفاعي وتأمله الإرادوي الشبيه بتأملية مفهوم هيغل للتاريخ ، نرى أن التشخيص لا يبقى ، جراء ذلك ، بلا موضوع ، بل نجده وقد بات مفتوحاً على تقويم أكثر تمييزاً في عمل المؤرخين .

لدى منظري ما بعد التاريخ جميعاً ثمة تقويم للمدنية العالمية ، منظوراً إليها في الغالب عبر منظار التبلور أو البلورة . وهذه الصورة المجازية المستمدة من نظرية التطور البيولوجية ، تنطوي على أن التحول الوراثي العشوائي مصحوباً بقانون بقاء الأقوى والأنسب ، هو الذي يشكل الأجناس التي لا تلبث أن تتصلب على صعيد بنيتها الوراثية وتستمر في اعادة انتاج ذاتها طالما ظلت بيئاتها ملائمة . ولدى نقل الصورة نفسها الى التاريخ فإنها تعطينا عملية تطور اجتماعية ـ ثقافية محكومة مع الزمن ، بفضل الاستقلالية الكبيرة عن الطبيعة التي تتمتع بها المدنية التقنية ـ الصناعية اضافة الى انتشارها المتسق على الصعيد العالمي ، بأن تصل الى نهاية مسلسل تبدلاتها النوعية فتتحجر وتنقلب الى بنية تعيد انتاج نفسها . قد تبدو المسألة وكأنها نظرية تحديث بمضمون تطوري أوسع ، ولكنها ملحّنة بمفتاح أشبه بمفتاح مينور . فالبلورة أو عملية التبلور هي الأخرى تنطوي على زوال كل من الحرية والمعنى ، وبالتالي على إعادة الانسان الى الحالة الحيوانية .

يرى دومان وأندرس عاقبة اضافية ألا وهي عاقبة النزوع الى الموت :

فكتابات هذين المؤلفين كليهما تتجاوب مع الطاقة التدميرية الطليقة في الحرب العالمية الثانية ، ومع صعود آلات الحرب والابادة التي يستحيل التحكم بها بسبب اخفاق ذكاء الانسان وعقله . ومن الغريب أن مبدع مفهوم ما بعد التاريخ هو الذي - مثل تايهارد دو شاردان ، بيترو ، أو سير - عقد ، أيضاً ، آمالاً على نوع من «التحول» يكون منطوياً على انقلاب جذري لجملة البُنى الاجتماعية والمواقف ، وبالتالي على تغير تاريخي ذي شأن عظيم . لذا فإن الشعارات المفتاحية الرئيسة على جدول الأعمال كانت عبارات : التخلي عن «العدمية» ، وضع القيود على النمو ، تبني اللامركزية ، العمل على توفير الموارد ، السعي الى علاقات ودية وسلمية بين البيئة والمجتمع ، تحقيق الشبع عبر ما ليس مادياً .

على الرغم من امكانية فهم هذه القائمة ، بشيء من الجهد ، نوعاً من التكيف مع برنامج التنوير - أي نوعاً من اعادة استبطان تقدم بات خارجياً غريباً تحت تأثير قوى العقل - فإن مجمل الاطار يتحطم تحت ضربات نظريات أعم تجلب معها كلمات مفتاحية مثل «الضمور» (الانتروبيا) أو «غريزة الموت» تفعل فعلها في المجتمع . ففي الأمل الطليق المعقود على التقدم كإحدى سمات «العصر المحوري» ، لم تكن التصورات العالمية لتضاؤل طاقة الحياة وتقلُّص هامش المناورات فضلاً عن رؤيا الحياة نفسها كمرحلة عودة الى الموت ، ترى على أنها عملية «التحول» التاريخية الأخيرة . ونظراً لأن تاريخية الطبيعة ، أحد الاكتشافات العظيمة في القرن الماضي ، قد أضفت صفة النسبية على التناقض بين العلوم الانسانية ونظيرتها الطبيعية ، فلربما توقع المرء ظهور بدائل لنموذج النمو والتحديث على صعيد النظرية التاريخية والاجتماعية من قلب التناسب بين محدودية وجود الانسان وتناهي وجود العالم . ولكن الاستخدام ما بعد التاريخي لصور مجازية اجتماعية - بيولوجية (التبلور ، حالات النمل الأبيض ، الخ . .) رافقت مثل هذا الخطاب منذ عصر الأنوار لا يوفر شيئاً من هذا القبيل . فبدلاً من فهم

الثقافة في ضوء كل من إطار طبيعي وبعد اجتماعي ، تقدم وجهة النظر نوعاً من الداروينية الاجتماعية المتجمدة التي تخلط بعدي الطبيعة والثقافة خلطاً عشوائياً وتبقى ، من نواح غير قليلة ، مرتبطة بتقاليد ترفضها . وهكذا فإن وجهة النظر هذه ، إذ تبقى داخل اطار تقاليد التنوير ، تتغافل عن قابلية الطبيعة للفناء ، توازن موت الذات المنفردة بتاريخ النوع أو الجنس ، تسطّح الصراعات الاجتماعية الناجمة عن تعارض المصالح وأشكال عدم الانتظام وبالتالي تزيح الحركة كلها من التاريخ لغرض المساءلة والبحث .

لذا فإن منظور ما بعد التاريخ ، مفهوماً على أنه عكس نخبوي متشائم ثقافياً لنزعة التفاؤل الملازمة للتقدم ، يبدو لي طامساً لتشخيص العصر بدلاً من القاء الضوء عليه وجلائه . فمعظم متبحريه يركزون على همومهم وهواجسهم الخاصة بهم بدلاً من النظر الى المشكلات الجديدة التي جاء بها القرن العشرون . لا يلفتون الأنظار الى القدرة الحديثة على افناء الذات ، ولكنهم يظلون منبهرين بجملة من الأعراض المبالغ بها الدالة على تحجُّر المدنية . لذا فإن مسألة المعنى تطمس مسألة الوجود . بدءاً بكوجييف ومروراً بغيهلن وحتى بودريار ، يجري إعلان نهاية التاريخ (أو تجاوز الآفاق التقليدية للمعنى) على أنها فانتازيا عن سيرة غير ذات معنى ولكنها مستمرة منذ الأزل ، للأحداث .

زد على ذلك أن ما بعد التاريخ يفترض بنى لمعاني على شكل روايات «مابعد» عن تاريخ العالم - وبالتالي يبقى مطبوعاً بما هو موروث عن تاريخ الخلاص . في اطار هذا القالب التقليدي يتعرض الاستقطاب ، ببساطة ، للقلب رأساً على عقب بما يجعلنا رهن الخوف من القيامة بدلاً من الانبهار ببريق التقدم ، أساساً لمفهوم عما هو تاريخي يعكس محدودية كل من الانسان والعالم . أما البنية الروائية التجريبية الزائفة لتاريخ العالم فيتم ، بالمقابل ، الاحتفاظ بها كما لو كنا نعرف شيئاً جوهرياً

عن البداية والنهاية . ونظراً لأننا نجهل ذلك فإن إطاراً نظرياً واسعاً عما هو تاريخي يبقى دائماً على صعيد التفكير الافتراضي . إن لانتاج التاريخ أصلاً مختلفاً وموقعاً ابستمولوجياً (معرفياً) مختلفاً عن التصنيم التاريخي - النقدي لما هو موروث . فالتاريخ ذو المعنى يتم خلقه ، كقاعدة ، عبر طروح متقدمة في تفسير آثار أحداث واقعية جرت في الماضي . غير أن ماهو حاسم ، فيما يخص العلاقة بين التاريخ وأي مسعى عملي ، إن هو إلا أن مكانة النماذج والاختزالات التفسيرية التاريخية الواسعة - التي يستحيل بدونها جلاء أهمية العلاقة بين التفاصيل - يتعين عليها ألا تطمس بما يجعل التفسير بادياً وكأنه متأصل في الأحداث نفسها وملازم لها . إن عدداً من منظري ما بعد التاريخ اهتموا بمحاولات تجريبية ظاهرياً رمت الى اسباغ نوع من الواقعية على الطابع المتردد أو التجريبي لتاريخ العالم . كما في نظريات الدورات الثقافية (الحضارية) التي طرحها شبنغلر أو توينبي (بقدر أكبر من التحفظ) . ولكن هذا أفضى ، بدلاً من اطلاق نوع من التوتر بين أنماط مختلفة من مقاربة العالم التاريخي ، الى جملة من الأوهام الخادعة القائمة على العظمة ويقينية التشخيص .

يقف معظم منظري ما بعد التاريخ في صف أحد التقاليد المنحدرة عن فلسفة التاريخ عند هيغل ، فلسفة التاريخ الهيغلية التي سعت الى كشف النقاب عن معنى معين كامن وراثياً في صلب مسيرة العالم . وقد أثار ذلك صعوبتين على الأقل . فمن جهة ظل بناء المعنى متقدماً باستمرار على تحليل الواقع التاريخي ، بما لا يتيح إلا امكانية معاينة هذا الواقع مجزءاً وممزَّقاً أشلاء أو عبر اختزال شديد لتعقيداته (ما يعرف باسم استنفاذ طاقة المفهوم) . ولكن من شأن الاختزال الانتقائي حتى في أحسن الأحوال ، أن يحد من قابلية المفهوم للتشخيص الذي يثبت دوماً ، لدى النظر اليه بعد حدوثه ، أنه كان مسبوقاً بالتاريخ . ومن جهة ثانية ما من تاريخ يهتدي ، جراء بنيانه الروائي - السردي ، الى معناه إلا عند اكتماله . لذا فإن الخطة

النظرية تفترض أن مجمل التاريخ يصل الى نهاية معينة لدى الاقرار بأن معناه بات متحققاً . يتيح لنا هذا فرصة رؤية مدى قرب الفلسفة المادية للتاريخ من التيارات الألفية المختلفة - سواء تلك المؤمنة ، مثل الرومانطيقية ، بأن القيامة وشيكة ، أم الأخرى التي تعتبر ، مثل الماركسية ، الغاء الزامية الحركة وارداً في التاريخ من ناحية وقابلاً للتحقيق على صعيد الممارسة العملية في المعرفة المطلقة - بد، يعني ، على هذا المستوى ، أن نهاية التاريخ لا يمكن اتباعها إلا من خلال عودة أبدية الى الذات ، الى النسخة الأصلية the same . وفي كل من هذه الأحوال المنطوية على دارة مختصرة بين نقطة البدء وهدف المعنى التاريخي الحقيقي تتكشف نهاية التاريخ عن كونها واحدة من فبركات الفكر .

غير أن تشخيص ما بعد التاريخ ، رغم وجود هذه الاعتبارات كلها ، لا يمكن استبعاده أو الاستغناء عنه ببساطة . فعلى مستوى آخر ثمة مايزال جدل لابد من خوضه حول توصيفه الفعلي للتشكيلة الاجتماعية المعاصرة ولعلاقة هذه الأخيرة بالفرد . وهنا نستطيع أن نرى الأساس المشترك بين تشخيصات ما بعد الحرب لـ «الآلة العملاقة» (ممفورد) أو «المجتمع ما بعد الصناعي» (بيل) وبين نظيرتها القائلة بـ «الوصاية الاجتماعية» (جوفنيل) ، «المنظومات الثانوية» (فرير) أو الطبيعية الجديدة» (بروكنر) : أي ثمة محاولة لاختزال أهمية الالتزام بالدستور ، علاقات الملكية وغيرها من مؤشرات النظرية الاجتماعية التقليدية في المجتمعات المتطورة تقنياً ، والتأكيد بالتالي على وجود بنية تقنية - اجتماعية مشتركة تعيد انتاج ذاتها لا تلبث أن تنزلق الى خارج دائرة السيطرة والتحكم بما يجعل الشروط المسبقة للمراقبة والتحكم عاملاً ذا أهمية ثانوية . يجري التنظير لهذه البنية في حالتها المولدة تاريخياً ولكنها باتت لا تاريخية ؛ يبدو وكأن المجتمعات المتطورة ما عادت منطوية على أي تناقض أساسي يضغط باتجاه إحداث تغييرات هيكلية - أو بالأحرى وكأن التناقضات لم تعد الآن إلا

تناقضات جزئية وثانوية وغير خاضعة لقوة عطالة البُنى الاجتماعية الأساس ؛ وكأنها باتت الآن تنزع لا نحو الثورة أو التحويل الاجتماعي بل نحو إفراغ شحناتها هي عن طريق التحلي بروح التمرد والعصيان أو عبر الانسحاب الى أعماق العوالم الداخلية .

ثمة ، إذن ، عدد من المستويات التي يمكن اعتمادها في فهم آلية التنميط الاجتماعي وعطفها على أشكال التقدم التكنولوجي . فعلى الصعيد الاقتصادي وفَّرَتْ الزيادات في الانتاجية امكانية الازدهار على نطاق واسع سعة مقبولة بدون أي صراع طبقي ، فجرى تحويل التناقضات القائمة بين الرأسماليين والبروليتاريا الى علاقة تعاون متوترة بين رأس المال والعمل ، علاقة تعمل منظمات تعاونية معينة على إدامتها وتقوم عمليات النمو العلمانية للخدمات العامة والخاصة بتدعيمها من جهة واعادة تنشيطها من جهة ثانية . ففي البلدان الاشتراكية حيث حلَّتْ الدولة محل وسائل العنف وتنظيماته فيما بين رأس المال والعمل ، قطعت عملية التنميط هذه شوطاً أبعد ولكنها ظلت أقل كفاءة على مستوى التنظيم . وعلى المستوى السياسي فإن المجالات البعيدة عن الدولة ـ وبالتالي أيَّ شكلٍ نقي من أشكال الاستقلال الذاتي الاجتماعي ـ استسلمت لعمليات اشاعة البيرقراطية ، أمام الجبروت المتنامي لحضور أجهزة الدولة القائمة على العنف ، لاغراق المجتمع بقوانين الدولة وأوامرها ، ولتبعية كل فرد وكل وظيفة «خاصة» أو «شخصية» (خصوصاً تلك المنطوية على الوصاية الاجتماعية) لصناديق الدولة وخدماتها . إن نمو مثل هذه السلطة المُحْكَمة ، على عجزها التام عن الحركة ، يقلص الهامش الذي يمكن لأية معارضة جذرية أن تتطور فيه ، ويلغي حتى أبسط التصحيحات السياسية الثانوية للمسار . ومن ناحية ثانية يكون الضبط الداخلي للصراع معتمداً اعتماداً واسعاً على توزيع ثمار النمو الاقتصادي مما يفضي الى تثبيت النظم في آليات توسعها . وعلى المستوى الثقافي ، أخيراً ، نجد أن الاستقلالية

النسبية للثقافات الاقليمية والطبقية تتعرض للطمس جراء الحركة ، نتيجة عمل أجهزة التعليم والتدريب التابعة للدولة ، ومن خلال الحضور الطاغي والصارخ لوسائل الاعلام الجماهيرية . أما ما يحل محل تلك الثقافات فهي ثقافة نظمتها السوق لجماهير متشظية ؛ ثقافة باتت تخومها الزمانية والمكانية غائمة ، ثقافة لم يعد من الممكن في ظلها التمييز بين ما هو ظاهري وما هو حقيقي ؛ ثقافة غدت أشكال المحاكاة الزائفة تحت مظلتها ، أكثر ابهاراً ، بل وحتى أكثر واقعية من التجربة الأولية . إن المرجع الأول لهذه الثقافة هو تناقض انتقل الى الفرد الذي يتحدد سلوكه العملي بالسوق والقوى البيرقراطية التي تقوم بتحديد الروتين اليومي الأساس ؛ غير أن تصورات هذا الفرد وتعبيراته تكون طليقة وسائبة بين سائر أشكال الفانتازيا وألوانها .

قد يبدو أن ثمة أشياء كثيرة يمكن قَولُها عن مثل هذه الصورة التخطيطية الفجة للمجالات المعاصرة ، أشياء كثيرة قادرة على احتضان سلسلة طويلة من الملاحظات الفردية عن الحياة اليومية والبحث العلمي . تكمن المسألة في المنظور الذي يشكل إطار الصورة . فالانسان الذي يعيش على سطح القمر يمكنه أن يصدر النصائح الجيدة(٧) ، ولكن السؤال هو ما إذا كان أولئك المذعنون سلفاً لتطور المعرفة التجريبية ولحتمية البُنى الموصوفة بأنها حتمية في اطار تلك المعرفة ، قادرين على اطلاق مثل تلك النصائح أم لا ؟

ربما هناك ، حقاً ، كائنات مثل الانسان الموجود على القمر ، مراقبون مغرَّبون ليسوا ، رغم معاصرتهم ، جزءاً من العصر بما يمكّنهم ، أو هكذا

٧ـ سبق له أن ظهر في ١٩٣٢ من خلال حديث يونفر الاذاعي حول تشخيصه للعصر : «العامل» حيث قال : «حاولت أن أرسم واقعنا الحالي كما لو كان بحاجة الى تفسير وشرح . . لانسان من القمر ، وأترك أمر تقدير مدى نجاحي لك أنت» (وارد في بايتك) .

يبدو ، من النظر الى هذا العصر من خارجه . إذا أراد المرء أن يتعرض لنفوذ تشخيص أولئك الذين خرجوا من التاريخ أو تم إخراجهم منه عنوة ، فإن عليه أن يصغي اليهم بانتباه وألا يأخذ منهم أكثر مما يستطيعون تقديمه. وإن كانوا غير واعين لمدى محدوديتهم . تكمن المشكلة الأساس لدى مؤلفي ما بعد التاريخ في أنهم ، في إحدى المنعطفات الحاسمة ، أساؤوا فهم العلاقة بين المثقف والجماهير . كنخبة أو كطليعة برجوازية متعلمة لم يطيقوا أن يعتبروا أنفسهم جزءاً من الجماهير مما دفع بهم الى اذابة مفهوم الجماهير بمفهوم الذوات الفردية . وبهذا المعنى فإن خطأهم يتطابق مع تلك المسافة بالذات التي تجعلهم بنظرنا ذوي أهمية كمراقبين مغرِّبين . غير أن تلك المسافة لا تتحدد أساساً إلا في ضوء المنظور المتميز للمؤلفين في ضوء تجمع عدد من أبناء جيل واحد في اطار موضوع مفهوم «الجماهير» من جهة ؛ وفي ضوء محاولة ترمي الى تغطية أو نفي مسؤوليتهم الخاصة عن الآثار الناجمة عن التزامهم السياسي من جهة ثانية . لابد لنا من العودة الى هذه السمات الاضافية المفرطة . في الحالة الثانية نرى أن عامل التصحيح الضروري هو في متناول اليد : إعادة تركيز الانتباه على الفوارق بين الأنظمة بما يوفر امكانية روزها بنوعيات الحياة التي تسمح بها ، بالضحايا التي تنتجها وبالقدرة التي تمتلكها في مجال ادراك مشكلاتها وعكسها . غير أن لمثل هذا النمط من التمييز أن يفيد من الرؤيا المخترقة للسمات المشتركة الكامنة في «بنيتها التحتية» التاريخية .

أما فيما يخص العلاقة بين الذاتية والجماهير ، فإن المشكلة أشد تعقيداً لأنها تهم المنطلق بالذات . لا يرى مؤلفو ما بعد التاريخ أنفسهم جزءاً من الجماهير بل يعتبرون الأخيرة شيئاً لا يشكل ، في تفاعله غريزياً وميكانيكياً مع أوامر المجتمع ، ذاتية بحد ذاتها ، أو ينطوي على أية قابلية للمعرفة أو التغيير التاريخيين . ومثل هذا الفهم للبنى الاجتماعية ، حيث الجماهير هي التوسطات بين الاقتصاد والسياسة والثقافة ، لا يلبث أن

ينقل هؤلاء الكتاب الى خارج دائرة التاريخ . لو كان الأفراد الذين تتألف منهم الجماهير متمتعين بالذاتية لبدت الصورة التي يقدمونها أقل موضوعية وأقل بعثاً على اليأس . كان من شأن ذلك أن يعني ادراك مجمل القيود البنيوية أو الهيكلية بما يتيح بعضاً من تلك الدرجة من الحرية التي لا يصعب على المراقب ، آخر الأمر ، أن يدعيها لنفسه . فلو أدرك المراقب أنه جزء من الجمهور ، لسارع عقد هذا الى الانفراط ليغدو أفراداً قادرين على فهم أنفسهم وتأملها وروزها في ضوء اندماجهم بسيرورات مبنية اجتماعياً . يتعين علينا أن نبعد عنا أي وهم حول أن الفرد وحده قادر على تغيير هذه البنى تغييراً يتصف بالحدود الدنيا من الجذرية . ولكن الفرد ، رجلاً كان أو امرأة ، ليس وحده ؛ والجميع تتوفر لهم الامكانية نفسها ، مهما بدت صغيرة في البداية بالمقارنة مع مدى ضخامة قائمة المشكلات . فأساس الأمل يكمن بالتحديد في الطابع الجماهيري للذاتية المتأملة والمتواصلة ، لا في اسباغ الصبغة الذاتية على الموضوع الجماهيري أو أي مفرد جماعي آخر .

يرى تشخيص ما بعد التاريخ التشكيلة الاجتماعية مخترقة بطابع عملية تنميط فوضوية قائمة على ركيزة السلطة لم تَعُدْ تَعِدُ بأية حركة نوعية بل متحركة باتجاه التحجر . وكل ما ينحرف عنها ليس إلا نوعاً من السُّكْر المتبقي عما قبل التاريخ (من العالم غير الأوربي)(٨) أو مقولة من مقولات «كما لو» الجمالية ما بعد التاريخية . ففي هذا الديالكتيك المخصيّ

٨ـ إن استبعاد الأمم والدول غير المنتمية الى نادي روما ، واختزالها الى حالة أسلاف يلفها الزمن للمجتمعات الصناعية ، من شأنه أن يكون عمى قاتلاً ناجماً عن المنجهية الأوربية . فمثل هذا الموقف إما أنه يستخف بالتأثير التاريخي للهموم والآمال الجماعية لدى تلك الشعوب التي تشكل الأكثرية المحرومة من سكان العالم ، أو ينطوي على تعويل مُتَعَمَّد وواعٍ على أسلحة ذات طاقات تدميرية شاملة .

بين المركز والأطراف ينعكس تهميش القائد الثقافي ـ الفكري . ولكن السؤال يبقى : ماذا لو تم حل التناقض بين المثقفين والجماهير . وهو أمر يبدو هنا أمراً لا مناص منه ، في اطار منظور يقوم على الذاتية الجماهيرية ؟ بوصفها منطلق الفعل التاريخي دون ارتهان أو مصادرة كل ما له قيمة في الصورة ما بعد التاريخية للتشكيلة الموجودة . غير أن من شأن هذه الأخيرة أن تضطر لأن تتعرض الى تغيير في مكانتها . أما حين يتم جلب مخاطر الابادة الى ساحة النقاش ، فإن التشخيص الشائل القائم على الاستقلالية الذاتية الهيكلية يغدو شبحاً مرعباً يدفع الذاتية التأملية باتجاه البحث عن أساس ما للفعل أو الحركة . يتحول ما بعد التاريخ الى مقولة تاريخية إذا تمت قراءته لا كتشخيص كوني شامل ، بل كيوتوبيا سلبية تخص ضياع الآفاق وانسدادها في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل ثمة امكانية لتصور فهم وتأمل تاريخيين لذاتية جماهيرية في الثقافة المعاصرة ؟ في رواية «يومزفيل» ليونفر وهي نوع من المزاوجة بين نيتشه وبودريار ، كان التاريخ ، تحديداً ، الهم السياقي النموذجي لملك الفوضى المنتمي الى ما بعد التاريخ ؛ فمع الغاء منظومات المعاني الماوراء روائية ، انحط التاريخ الى أرشيف فيديو لأشكال وأحداث ماضية دأب ابهاره على تقديم العزاء للتاريخ على ضياع المعنى من وجوده هو ومن العالم . نجدنا هنا أمام صيغة رؤيوية للبديل النخبوي عن المرجع الهدف لصناعة الثقافة والبيرقراطية . يكون المتلقي مابعد تاريخي بمعنى أنه مواجه دوماً بمزق وأشلاء من الماضي تغرِّبه عن حالته التاريخية الخاصة وعن ذاتيته .

حاولت أن أبين أن تشخيص ما بعد التاريخ ، على أكثر المستويات تعميماً ، ليس إلا خاتمة كئيبة لفلسفة تاريخ القرن التاسع عشر تغفل المشكلات المفتاحية الكامنة في فهم تاريخ اليوم ، فضلاً عن أن تفسيره المدعم للعالم المعاصر لا يحمل أي معنى إلا بعد ادخال جملة من التصحيحات

الرئيسة . أما البعد الجمالي أو الاعلامي لنظرية ما بعد التاريخ فنجده ، بالمقابل ، بعداً عملياً ومواكباً للعصر تماماً . إن البحث عن بديل نقدي سوف يتعين عليه أن يبدأ بالسؤال عن نوعية الخدمة التي يمكن للمؤرخين ، أو لمن هم مطلعون على التاريخ ، أن يؤدوها دعماً لذاتية الأفراد في ادراكهم التاريخي لأنفسهم . قد يبادر مثل هذا المنظور الى التقاط أو تبني تراث النزعة الفردية البرجوازية ولكن عليه أن يتخلى عن مثله الأعلى المتمثل بالعظمة والسلطة حتى يتوصل الى تقويم واقعي لهامش الفعل في اطار البنى الاجتماعية القائمة وضدها . وقد يعتمد أيضاً على جملة من الغرائز المادية والتقاليد الجماعية ولكن عليه ، إذا أراد أن يهتدي الى مثل هذا الهامش وأن يستفيد منه ، ألا يعقد آمالاً على امكانية انقلاب السمات الموضوعية فوراً الى أفعال . ومثل هذا المنظور يمكن أيضاً أن يوصف بانه «تاريخ من تحت» ، لأنه يضم سلم المهمات التاريخية «بالترتيب الصحيح» ، فهو لا يسعى لضمان المعنى عبر فلسفة للتاريخ ترجمت جمالياً الى صروح هيكلية أو تشخيصات روائية ، حيث تتم البرهنة على صحة جملة من الأنظمة ، الأحداث والشخصيات العظيمة وتكييفها آخر الأمر بما يتناسب مع الأغراض التعليمية أو الوعظية .

تنطلق وجهة النظر التي أفكر بها من السعي الى تصنيف حياة تاريخ أفراد معينين في سياق اجتماعي وتاريخي محدد ، تجاربهم واخفاقاتهم ، جنباً الى جنب مع قدرتهم على تأملها ، على إسماع الآخرين قصصاً صحيحة عن أنفسهم ، وعلى التوصل الى اتفاق فيما بينهم حول التاريخ الذي يجمعهم . ومثل هذه العملية تمتد بالضرورة الى الاطار التاريخي للزمن والى الأشكال ماقبل التاريخية لكل من العائلة والجماعة وورشة العمل والحي والحركة والخ . . لأنها تحتاج اليها لالقاء الضوء على الذات . ثمة كثيرون باتوا يستخدمون أمثلة نموذجية بغية فهم تواريخ حياتهم هم بالذات ، ذلك هو السبب الكامن وراء الاهتمام الحالي بالتاريخ الشفوي والأحاديث المصورة

بين أشياء أخرى . فالجميع بحاجة الى مساعدة المؤرخين المحترفين في تعقب اطار اليوم وجذوره ، وكلما كانت مراجعهم الزمانية والموضوعاتية أوسع ، كان اعتمادهم على وظائف إعادة البناء والتنظيم لعلم التاريخ أكبر . ما الذي يستطيع التاريخ أن يقدمه اذا فلك ، بدلاً من اخضاع الأفراد لحكاية سيرورة ذات معنى ايجابياً أو ازاحتهم عبر سائر أشكال النُّتَف أو المزق المُجَمَّلَة ، يسعى لارساء الأساس اللازم لفهم ذواتهم تاريخياً ولتمكينهم من الفعل التاريخي ؟ من شان الاجابة عن هذا السؤال أن يبدو منطوياً على ثلاث مكونات أساسية على الأقل .

أولاً ـ يستطيع التاريخ أن يقدم روايات عن السياق المعاصر وعن المقدمات التاريخية لجماعة بعينها ، ممتدة من شروطها المسبقة الموضوعية عبر خياراتها السياسية وصولاً الى الآثار الاجتماعية ـ الثقافية على ممارستها اليومية وسائر التجارب الجماعية والفردية النموذجية المتباينة . بعبارة أخرى يقدم التاريخ عناصر لبعد اجتماعي لدعم محاولة الفرد المتعاظمة من أجل فهم تاريخ حياته أو حياتها .

ثانياً ـ إن بناء الأطر الحياتية العريضة (حتى التاريخ العالمي وبما فيه هذا التاريخ) يستند ، على الدوام ، الى جملة من البنى الفرضية أو الافتراضية . ومثل هذا الاطار أساس بالنسبة لفهم الذات تاريخياً ؛ ولكن ما يوازيه أيضاً في الأهمية هو تجنب إحلال هذه البنى محل الواقع ، هو إدراك حقيقة أن لهذه البنى طابع مخطط فج . وهكذا ، لدى تفتح مجموعة من الميادين الأقدم والأوسع للتاريخ ، تكون الخلاصات والنقاشات النظرية القابلة للقراءة أكثر فائدة من التركيبات (السينتيزات) التجريبية الزائفة الجليلة .

ثالثاً وأخيراً ـ إن فهماً للتاريخ ينطلق من شروط وأحداث الوجود الخاص للمرء يتعين عليه أيضاً أن يحيط بتلك الدائرة من الفانتازيا الاجتماعية

التي تهم تجربة الآخر أو الآخرية ، لأن ذلك يوفر امكانية تعرف هذا الانسان على يقينياته هو باعتبارها خاصة وبالتالي قابلة للتغيير . وتجربة الآخر أو الآخرية هذه لا يجوز التسرع في نقلها الى ساحة الهُنَا والآن : إنها تجعلنا نعي هذه الحقيقة في ادراك المسافة . كما أن التجربة ليست بحاجة لأن تنطوي على بناء اطار معين ، على الرغم من أنها قد تثير فضولاً بشأن اطار كهذا . فما تتطلبه بدلاً من ذلك ، هو احساس معقد بما هو ملموس ، مما يلقي أيضاً مزيداً من الضوء ، عبر الأمثلة ، على المستويات العميقة من ثقافة ثانية .

إن الأساس التاريخي المرتبط بنوع من جلاء التجربة الخاصة لهذا الانسان أو ذاك يقتحم اليقينيات الظاهرية لتلك التجربة ويفتحها . وهو يتيح لنا فرصة توجيه أنفسنا عبر وضع رسوم تخطيطية لأطر تاريخية معينة ،والتغلب على ذلك التعارض بين القيادات المثقفة والجماهير حيث يحمّل المفسرون أنفسهم أعباء كبيرة جداً في حين تجري عملياً إخافة الأفراد من صنع التاريخ وفقاً لقدراتهم ومواهبهم . إن قراءة معاكسة للمزاج الطبيعي لمجمل تشخيصات مابعد التاريخ تبين أن مثل هذا التعارض يجمّد التاريخ أو يفجّره ، ليس فقط في الخيال بل وفي الواقع أيضاً . ومن شأن التفجيرات أن تكون منطوية على الخطر حين لا يكون أساس الفهم التاريخي للذات قادراً على اختراق الذوات المنفردة ، وحين يجري إفراغ بحثهم عن المعاني في هويات جماعية أساسية وحركة دورانية قصيرة محصورة بالعلاقة بين الجماهير والسلطة السياسية . تكون عودة اللاهوت السياسي عندئذ إحدى علامات افلاس الثقافة والتصادم العنيف بين هويتين يستحيل التوفيق بينهما . أما القطب المقابل فيمكن وصفه بـ «موت بارد» (تبلوري أو ذري) ، ناشئ عن المسار العفوي أو التلقائي لجملة «النظم الثانوية» ، عن تحجُّر هذه النظم ، وعن الخطر الذي تشكله إذ تنذر البشرية بالكارثة .

من المؤكد أن المثقفين قادرون على تصور هذا الخطر المنهجي (الخطر الكامن في الأنظمة أو النظم) . ولكن «الجماهير»المؤلّفة فعلاً من أفراد لا يتمتعون الا بقدر قليل من الحرية والمسؤولية ، والتي ينتسب اليها المثقفون أيضاً ، وحدها هي القادرة على تفاديه .

المحتويات



هذا الكتاب

في الكراس الدعائي الذي وزعته فيرسو VERSO عن منشوراتها الجديدة وردت العبارات التالية عن كتاب مابعد التاريخ (هل انتهى التاريخ؟) :

«سواء أكانت المحطة الأخيرة متمثلة بالديمقراطية - الليبرالية كما عند فرانسيس فوكوياما، أم بالواقعية المفرطة كما لدى جان بودريار، فإن مسيرة التاريخ، برأي عدد من الراسخين في العلم، قد وصلت الى نهايتها. وفي غمرة المناقشات المستفيضة التي أعقبت ذلك، لوحظ أن التاريخ هو الذي جرى إغفاله في أكثر الأحيان : فمفهوم مابعد التاريخ بعيد كل البعد عن أن يكون جديداً» .

«في هذا الكتاب يغوص المؤلف لوتز نيتهامّر، وهو كبير أساتذة مدرسة التاريخ من تحت، في ألمانيا، عميقاً في بحر التفاصيل الكاشفة لجملة الأشكال والصيغ الذي أخذها مفهوم مابعد التاريخ في القرن العشرين؛ وبالإفادة من رحلة الغوص الاستكشافية المضنية هذه يقوم الكاتب ببناء مايمكن اعتباره نظيراً لتاريخ فكري قائم على ركيزتين : التحرر من الوهم أولاً، والاذعان ثانياً».

«يهتدي نيتهامّر الى مؤمنين بالفكرة التي تقول بأن التاريخ قد انتهى بين صفوف اليمين واليسار على حد سواء؛ منهم من علق الأمل على الأمة ومنهم من اعتبر الخلاص كامناً في البروليتاريا ؛ ولكن هؤلاء وأولئك وقعوا في خطأ الخلط بين الاخفاق الجلي لهذا المشروع التاريخي أو ذاك من جهة وبين انهيار التاريخ نفسه من جهة ثانية ».

«يقدم المؤلف تحليلاً مثيراً لردود الأفعال المغرضة لدى الفئات النخبوية من المثقفين خلال الأعوام الممتدة بين الحربين العالميتين على ظاهرة صعود الثقافة الشعبية وأزمات الحركات الجماهيرية ».

«ستكون قراءة مابعد التاريخ شديدة الاثارة وبالغة التشويق بالنسبة لجميع أولئك الذين مازالوا يتساءلون حول امكانية توقف تاريخ البشر».

دار المدى للثقافة والنشر